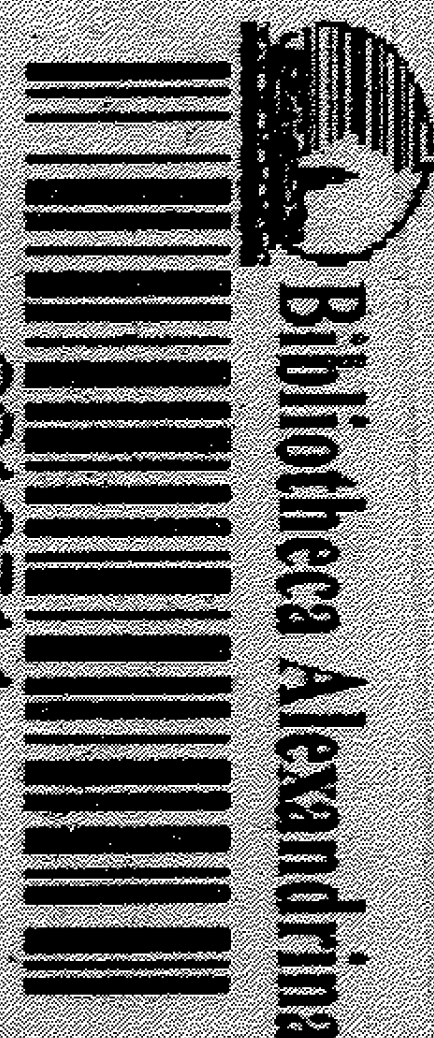
شريف الشوباشي



نهاية تفكير



شريف الشوباشى

نهايـــة التفكـيـر

شكر واجب

أتوجه بالشكر للاستاذ **ابراهيم نافع** الذى شجعنى على كتابة مقالات اسبوعية بالاهرام وللأساتذة **ماهر الدهبى وفتحى الشرقاوى وهانى طلبة وإبراهيم نصر .**

كما أشكر الفنان الكبير نور الشريف الذى أهدانى صورة الغلاف الأخير.





إهداء

إلى أرواح رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده وقاسم امين وطه حسين وكل من ساهموا بعقولهم المضيئة فى تنوير وجدان الشعب المصرى والعربى.. وإلى الملايين الذين يرفضون اليوم الارهاب المعنوى لانصار نهاية التفكير.. لان كل الحضارات الانسانية قامت على تشغيل العقل وانهارت عندما سيطر عليها منطق نهاية التفكير.





تصميم الغلاف :
ماهر الذهبي

المحتويـــات

مقدمــة

العقل هو الوسيلة الوحيدة في التصور والتصديق
رفاعــة الطهطــاوى

نبتت فكرة هذا الكتاب من سلسلة المقالات التى نشرتها فى جريدة الاهرام خلال عامى ١٩٩٤ و١٩٩٥ وحاولت ان اتناول فيها قضايا مصرية صميمة ولكن برؤية مختلفة عمن يعيش داخل الوطن. فالحياة خارج الوطن تعطى فسحة من البعد الجغرافى والنفسى وامكانية التفكير بهدوء بعيدا عن مؤثرات الحياة اليومية فتكون النظرة أشمل وربما اكثر موضوعية. ومن يعش خارج الوطن قد يفقد احيانا حس المشكلات اليومية الملحة ويبدو منقطعا عن واقع بلاده لكنه قد تتفتح عيناه على قضايا وحقائق كثيرة تفوت على المقيم بالداخل بسبب انغماسه فى الهموم وغرقه فى التفاصيل.

قد يكون من عيوب هذه الرؤية من الخارج انه تعوزها الحماسة والنظرة الذاتية من الداخل والانفعال المباشر بالاحداث لكنها تعطى ابعادا من الصعب ان تشتمل عليها النظرة الداخلية. ولعل من اهم ميزات النظرة من الخارج امكانية عقد المقارنة بين ما يحدث فى الوطن وما يدور خارجه. والمقارنة تلقى ضوءا كاشفا على الاشياء وتجعل الانسان يكتشف ما لم يكن يفكر فيه أو يتخيل وجوده.

فالانسان يميل فطريا إلى الاعتقاد بان اسلوب الحياة الذى نشأ عليه واعتاد على ممارسته منذ طفولته هو الوحيد الصالح لحياة سوية وطبيعية و لا يحتمل هذا الامر عادة اى تفكير أو نقاش. فالطباع والمثل العليا والقيم والاخلاقيات والاحتياجات المعنوية تمثل منهاجا للحياة ينخرط فيه ابناء الوطن الواحد بالتوريث

والممارسة الجماعية. والشعور بتفوق المثل والقيم يتولد على نطاق اضيق حتى داخل البلد الواحد بين المدن أو الطبقات المختلفة فى العادات والتقاليد والقيم.

والنفور من الطبائع والمثل الغريبة يأخذ بعدا آخر عندما يتعلق الامر ببلاد اجنبية خاصة ان كانت تدين لحضارات اخرى ويسود فيها دين مختلف. وهناك نزعة غريزية عند معظم الناس تدفعهم إلى تحقير العادات والتقاليد والقيم التى تؤمن بها المجتمعات الاخرى أو التهكم عليها خاصة تلك التى تتناقض مع ما نشأ عليه الانسان وتتعارض مع مفاهيم ومبادىء مجتمعه النابعة من صلب ثقافته ودينه وتاريخه.

لكن من يعش خارج الوطن وسط مجتمع غريب يتضح له ان هناك قيما اخرى جديرة بالاحترام أو على الاقل بعدم الاحتقار ومفاهيم ومثلا مختلفة تسير على هديها شعوب اخرى دون ان تنهار أو تفنى أو تصيبها الفوضى ويتقاتل ابناؤها فيما بينهم.

وتتأكد صحة هذا الشعور ان كان المجتمع الذى يعيش فيه المغترب متقدما وناجحا فى مواجهة المشكلات الاساسية التى تكبل المجتمعات فى العالم الثالث مثل الفقر وقلة التعليم وانتشار المرض. فهذا النجاح يدل على ان معايير ذلك المجتمع الاجنبى وقيمه لا يمكن الاستهانة بها حتى وان كان بعضها أو الكثير منها قابلا للانتقاد بل والرفض من منطلق عاداتنا وديننا وثقافتنا. وهذه المقارنة التى يعقدها الانسان سواء بطريقة واعية أو غير واعية تغير نظرته إلى الوطن وتثرى فهمه لواقع مجتمعه.

وكما قال احد اقطاب الثورة الفرنسية دانتون (١٧٥٩ ـ ١٧٩٤) فان الانسان يحمل دائما وطنه فى نعل حذائه. والمقصود ان الانسان لا يستطيع أن ينسى وطنه اينما ذهب. واستخدام كلمة نعل الحذاء قد تبدو شاذة للبعض لكن دانتون لم يقصد بطبيعة الحال اى استخفاف بالوطن وانما قصد انه مهما سار الانسان ومشى بعيدا عن بلده وقطع ارض الله الواسعة طولا وعرضا فان الوطن يظل معه وداخله ولا يستطيع ان يستغنى عنه أو ينساه حتى ولو حاول ذلك.

واذا كان هذا الرأى ينطبق على جميع الناس فى العالم فما بالك ان كان الانسان ينتمى إلى مصر وإلى حضارتها الخالدة وثقافتها الثرية. فايا كانت

المشكلات التى تواجهها مصر اليوم وأيا كان عناء الحياة اليومية بها ودرجة الاحباط التى يعانى منها المواطن فان الانسان لا يملك ان ينقطع عن التفكير فى مصر يوما واحدا من ايام الغربة مهما طالت هذه الايام وامتد زمن البعد عن الوطن.

وقد عبر احمد شوقى (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢) عن هذا الشعور بصدق عميق عندما نفى إلى اسبانيا خمس سنوات كاملة بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى نظرا لقربه من الخديو عباس حلمى الذى خلعه الانجليز آنذاك.

وكانت اشهر قصائد شوقى هى التى مطلعها: «يا نائح الطلح اشباه عوادينا» والتى عارض فيها رائعة ابن زيدون (١٠٠٣ ـ ١٠٧١) التى يتغنى فيها هذا الاخير بحبه لولادة بنت المستكفى. لكن احلى ما كتبه شوقى فى هذا المعنى ثلاثة ابيات بعث بها فى رسالة من المنفى إلى صديقه حافظ ابراهيم (١٨٧٢ ـ ١٩٣٢) فى عام ١٩١٧ يقول فيها:

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على ... عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم ... شيئا نبل به احشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة ... ما ابعد النيل الا عن امانينا

وقد رد عليه حافظ ابراهيم من مصر بثلاثة ابيات فى خطاب بتاريخ ٨ مايو ١٩١٧ آخرها هذا البيت البليغ:

لم تنأ عنه وان فارقت شاطئه ... وقد نأينا وان كنا مقيمينا

ويقصد شاعر النيل ان الانسان يكون احيانا اقرب إلى الوطن وهو فى الغربة وان الذى يعيش داخل الوطن قد يكون بعيدا عنه نفسيا بسبب ما قد يشعر به من الاغتراب أو ربما من الاحباط والعزلة النفسية.

وتستحق ظاهرة الحنين إلى الوطن أو إلى الارض إلى وقفة سريعة حيث انها كانت دائما من مصادر الوحى الهامة فى الشعر العربى. فقديما تغنى غالبية الشعراء العرب بالارض التى تركوها وبكوا على الاطلال عندما ارادوا التعبير عن حبهم للمرأة التى ابتعدت عنهم. وبرغم ان شعراء الجاهلية كانوا بدوا الا ان

الحنين إلى المكان كان سمة غالبة عليهم يجسدها البيت الفاتح لمعلقة امرؤ القيس (نحو٥٠٠ –٥٤٠) والتى يقول فيها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ومن اجمل شعر الحنين إلى الاهل والبلاد روميات ابو فراس الحمدانى (٩٣٢ ـ ٩٦٨) التى كتبها خلال فترة الاسر فى بلاد الروم عندما تأخر ابن عمه سيف الدولة حاكم حلب فى دفع فديته.

والغريب ان أشعر العرب وافضل من عبر عن مزاجهم وعاداتهم وثقافتهم وهو المتنبى (٩١٥ ـ ٩٦٥) يعتبر من الاستثناءات القليلة لهذا الشوق للارض والوطن ان جاز هذا التعبير لان مفهوم الوطن هو مفهوم حديث لم يكن متضح المعالم فى عصر عمالقة الشعر العربى كما هو الان. فالمتنبى كان يعتبر « شر البلاد بلاد لا صديق بها ». وكما قال باحدى قصائده:

غنى عن الاوطان لا يستخفنى   الى بلد سافرت عنه إياب

وهناك ابيات اخرى كثيرة للمتنبى تدل على عدم اكتراثه بالحنين إلى الارض أو إلى الوطن لا مجال لذكرها هنا لكن موضوع الحنين إلى الارض فى الشعر العربى جدير بالدراسة من قبل المتخصصين.

ولاننى اغتربت عن وطنى الغالى فترة من الزمان فقد ادركت كم تسهم الغربة فى تعميق الشعور بالانتماء وتؤجج الرغبة فى المعرفة الاصيلة بمصر وبكل أبعادها الثقافية والحضارية. وقد أدركت فى الغربة كم اننا فى مصر لا نعرف بلادنا وكم نجهل ثقافتنا بل كم نجهل المواقع الجميلة التى تنعم بها مصر.

فكم مصرى زار ابو سمبل وكم مصرى زار رشيد أو قام بزيارة لدير سانت كاترين بسيناء ؟ كم مصرى زار واحة سيوة أو الواحات الداخلة ؟ بل اذهب إلى ابعد من ذلك فكم قاهرى زار جامع عمرو بن العاص أو القلعة ومسجد محمد على ؟ كم قاهرى زار الكنيسة المعلقة أو المتحف المصرى؟ وكم من سكان مدينة الاسكندرية فكر فى زيارة قلعة قايتباى أو المتحف الرومانى ؟

لو كانت لدينا احصائيات دقيقة عن الزائرين المصريين ونسبتهم للاجانب الزائرين لكل هذه الاماكن التى تشكل تاريخ بلادنا وهويتها الاصيلة ووجدان

شعبنا لأصابنا الذهول و لاحباط بعيدا عن المـ ايدات والادعاءات والكلام عن حب مصر والهيام بها والتمسح بترابها. وعندما ؤدى عملية ارهابية إلى ابعاد مؤقت للسائحين الاجانب عن بلادنا تخلو المزار ت السياحية والمناطق الاثرية من الزائرين كما حدث للاسف اكثر من مرة فى السنوات الاخيرة.

ولا يعد هذا الجهل بالتراث والآثار سمة عامة تطبع كل شعوب العالم وان كانت بعض الشعوب تشاطرنا فعلا هذا النقص وخاصة دول العالم الثالث. فاذا اخذنا فرنسا مثلا نجد انه لا يوجد طفل باريسى لم يزر كل معالم عاصمة النور.. بل لا يوجد طفل لا يعرف تاريخ بلاده عن ظهر قلب مما يكسب هذا الشعب شعورا جماعيا بالانتماء والوحدة الوجدانية والانسجام الجماعى وهى أحاسيس لا تأتى بترديد الشعارات والعبارات الرنانة والاغانى الحماسية. وتعد المدرسة الوعاء الصاهر الذى يتعلم فيه تلاميذ الدول الغربية هوية بلادهم والخواص المميزة لمجتمعاتهم.

وعندما انتقلت إلى باريس فى عام ١٩٨٠ عملت بمنظمة اليونسكو وهى كلمة تتكون من الحروف الاولى لاسم منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة باللغة الانجليزية. وعملت فى بداية التحاقى بالمنظمة الدولية محررا للغة الفرنسية بمجلة « رسالة اليونسكو » التى تصدر شهريا بعدة لغات. واذكر ان اول عدد من المجلة شاركت فى اعداده كان عددا خاصا عن ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) بمناسبة مرور الف عام على ميلاده.

وكان كافة الزملاء بالمجلة وكلهم من غير العرب ومعظمهم من اوروبا الغربية يمطرونى بالاسئلة يوميا وكأننى حجة فى فلسفة ابن سينا ومطلعا على انجازاته العلمية فى مجالات الطب والفلسفة ومتعمقا فى ثقافة عصره . وقد سارعت إلى قراءة عدة كتب وموضوعات عن الفيلسوف والعالم العظيم لأكون قادرا على الرد على اسئلة الزملاء واخراج العدد الخاص عن ابن سينا فى ثوب لائق.

كان زملائى يعتبرون من الطبيعى ان أكون ملما الماما تاما بكل ما فعله ابن سينا وبالمحاور الاساسية لفكره وفلسفته. وشعرت وقتها كم كنت مقصرا فى معرفة ثقافتنا العربية الاسلامية. ولاننى حصلت على الثانوية العامة ثم على ليسانس الآداب فى جامعة القاهرة ودرست عاما كاملا للحصول على الماجستير

قبل العدول عن ذلك فانني اعتبر من فئة المتعلمين فى مصر. وبالتالى فانني لست نموذجا فريدا أو شاذا فى عدم الالمام الكافى بالثقافة والحضارة التى أنجبتها بلادى.. لكنى أجد فى نفسى شجاعة الاعتراف بهذا التقصير الذى أعزيه اساسا لنظام التعليم ومناهجه البدائية ولكافة وسائل الاعلام التى لا تعطى تاريخنا حقه ولا تستثمر ثقافتنا العظيمة لتنوير عقول الشباب.

وقد ادى هذا القصور إلى شيوع ثقافة عامة لا تهتم بالتاريخ برغم افتخار كل المصريين بحضارة سبعة آلاف عام. لكن الغالبية تكتفى بهذا الشعار البراق ولا تحاول ان تتعمق فى معرفة هذه الحضارة وتطورها عبر عصور التاريخ واسهامها الحاسم فى الحضارة الانسانية واضاءة طريق التقدم امام كافة البشر.

واعترف ان فترة اقامتى فى باريس كانت بالنسبة لى مناسبة لاعادة اكتشاف الثقافة العربية التى فهمتها من الخارج بعد ان كنت انظر اليها نظرة سطحية وقاصرة من الداخل كما كانت فرصة لالقاء نظرة متعمقة إلى مصر وادراك العناصر المحركة للمجتمع المصرى. فكانت المفارقة هى اننى فهمت بلادى اكثر وانا بعيد عنها وادركت اسهامها الحضارى بعمق وانا اعيش خارجها.

الفصل الأول

العقل والحضارة

مصر فى مرآة الخارج

من يرقب مصر من الخارج يتضح له انها دولة عريقة تحظى باحترام كبير فى كل مكان خاصة بفضل تاريخها العظيم الذى لا زال يبهر شعوب العالم. ولا يوجد انسان فى اى مكان بالعالم لديه اقل قدر من الوعى يجهل بوجود الاهرام وابو الهول وبان مكان تواجدهم هو مصر. ولن انسى يوما من ايام عام ١٩٩٦ ذهبت فيه لمشاهدة بطولة رياضية باكبر استاد مغلق فى باريس كان المنتخب المصرى احد اطرافها. وكان هناك مذيع داخلى للاستاد يعلق على مجرى المباريات.

وعندما ظهر الفريق المصرى قال الرجل فى الميكروفون: « الفريق المصرى يستحق التصفيق. فكل انسان على وجه الارض مدين بالكثير لمصر بسبب حضارتها العظيمة ». وعلى الفور ارتجت القاعة الضخمة بالتصفيق الحاد بصورة لم اكن اتخيلها. وشعرت لحظتها بالزهو يملأ قلبى وان رقبتى تطاول عنان السماء. وكان الرجل يقصد بطبيعة الحال مصر القديمة التى يعتبرها العالم أم الحضارات الانسانية والمنبع الملهم لتطور الفكر الانسانى .

اما مصر الحديثة فعلينا ان نعترف بانها لا تحظى بنفس القدر من التبجيل. صحيح انها اهم دولة عربية وتعد من ابرز دول الشرق الاوسط الا ان العالم العربى نفسه لا يتمتع بما يستحقه من سمعة. ومن المؤكد ان الدعاية المنحازة لاسرائيل تشكل جانبا من تفسير هذه الحقيقة. لكنه لا ينبغى ان نكتفى بالقاء اللوم على الآخرين كالعادة وقصر الموضوع على انه رغبة من الاعداء أو الحاقدين فى التقليل من شأن العالم العربى والحط من قدره لصالح قوى اخرى.

فالجانب الاخر من الحقيقة هو قصور من العالم العربى على اصعدة عديدة بالاضافة إلى تصرفات لا تتفق دائما مع المعايير الدولية بل واحيانا مع ابسط

قواعد التصرف السليم كما حدث على سبيل المثال لا الحصر مؤخرا عندما داهمت القوات العراقية دولة الكويت فى ٢ اغسطس ١٩٩٠ فأعطت اعظم فرصة للولايات المتحدة كى تظهر على انها منقذة المظلوم وناصرة الحق وتبسط سيطرتها بصورة لم تحدث من قبل على منطقة الشرق الاوسط.

لكن الصورة من الخارج تبدو مختلفة إلى حد كبير. فمن يعش خارج الوطن يشعر بقلق مستمر عليه وتبدو مشكلات الوطن مضخمة فى نظره ويميل إلى التهويل فى حين ان من يعش بالداخل يميل على العكس إلى التهوين. وربما يمكن تفسير هذه الظاهرة بتركيز وسائل الاعلام فى الخارج وفى الغرب خاصة على المشكلات والاحداث المثيرة فى مصر وتحديداً على الاحداث الارهابية فى السنوات الاخيرة.

وهناك على النقيض وسائل الاعلام بالداخل التى تسعى عادة إلى التخفيف من وطأة الاحداث والمشاكل وبالتأكيد على ان كل شىء على افضل ما يرام وبالابتعاد عن المشكلات ذات الحساسية الخاصة. لكنه من المؤكد ايضا ان هناك نزعة طبيعية تدفع كل انسان إلى القلق على من يحب عندما يكون بعيدا فما بالك بالوطن الغالى.

وكم من المرات رأيت الابتسامة تظهر على شفاه زائر قادم من القاهرة عندما يواجه بسيل من أسئلة اصدقائه القلقين فى الغربة فيجيبهم بانهم منزعجون دون داع وانهم يرون مشكلات البلد بعدسة مكبرة فالبلد بخير ولا يفكر الناس فى القضايا المطروحة عليهم بهذه الحدة التى يتخيلها الاجانب ومن يتابع وسائل اعلامهم. النظر إلى الوطن من الخارج إذن يختلف كثيرا عن النظر من الداخل. ومع ذلك فلا يمكن الانكار بان النظر من الخارج يعطى بعدا عقلانيا وموضوعيا يغيب فى احيان كثيرة عمن يعش بالداخل.

وربما لم يكتشف رجل مثل رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) بلاده وحضارته فى العمق الا عندما سافر إلى باريس وقضى بها خمس سنوات كتب بعدها احد اهم الكتب التى فتحت الطريق إلى عصر التنوير فى العالم العربى وهو: « تخليص الابريز فى تلخيص باريز» الذى استخلص فيه رحيق الحضارة الاوروبية والقى على مصر نظرة جديدة فأعاد اكتشافها ولمس مواطن القوة

والضعف بها ووضع يده على المشكلات الحقيقية التى كانت تعانى منها فى ذلك الزمن وبعضها لا زالت تعانى منه إلى يومنا هذا.

وكان لهذا الازهرى العبقرى فضل ضخم على الحركة الفكرية والادبية والتنويرية التى اضاءت القرن التاسع عشر وجزءا من القرن العشرين. وهو برغم انبهاره بما رآه من حضارة ومدنية فى فرنسا لم يلغ عقله ولا فكره ولم يخرج بالنتيجة التى خرج بها الكثيرون من بعده ولازال يدافع عنها البعض إلى يومنا هذا وهى ان الحل الوحيد للتقدم هو ان نقلد الغرب فى كل شىء وان امل الخلاص بالنسبة للانسان المصرى هو ان تصبح بلاده اوروبا جديدة وان نطبق كل اساليب الحياة المتبعة فيها.

وقد نسى هؤلاء أو تناسوا ان الغرب لم يتوصل إلى رؤيته الحالية للحياة وإلى العادات والتقاليد التى تسود مجتمعاته اليوم الا من خلال تطور سياسى وثقافى وعلمي مختلف عنا ومن منطلق ديني يختلف ايضا عنا. وبالتالي فمن يرد أن ينقل عن الغرب فإن عليه أن يضع كل هذه المعطيات فى حسبانه والا يحاول زرع افكار أو معتقدات تتناقض مع موروثنا الثقافى والديني والتاريخى فيكون كزرع عضو خارجي يرفضه الجسد ويلفظه بتلقائية لان الغلبة دائما لطبيعة الامور وليست للمفروض منها بالقوة.

ولرفاعة فضل فى ثبات رؤيته ورجاحة رأيه اكبر بكثير ممن جاءوا بعده. فعندما خرج من الاسكندرية قاصدا ميناء مارسيليا الفرنسى يوم الجمعة ٨ شعبان عام ١٢٤١ هجريا الموافق عام ١٨٢٦ ميلاديا فى اول بعثة يرسلها الوالى محمد على (١٧٦٩ - ١٨٤٩) مؤسس مصر الحديثة لم يكن هناك سينما ولا تليفزيون وكان التصوير فى بداية ارهاصاته الاولى فى اوروبا على ايدى الفرنسيين نيببس وداجير ومن المؤكد انه لم يكن معروفا فى مصر. وكل هذه الوسائل الحديثة تتيح لانسان اليوم ان يرى طريقة الحياة فى الدول المتقدمة ويشاهد الشوارع والابنية الرائعة لاكبر مدن العالم فى صور ملونة تبهر العيون.

وانطلاقا من هذه الصور الثابتة أو المتحركة فان المسافر لاول مرة إلى اوروبا أو امريكا فى هذه الايام لديه فكرة مسبقة واضحة عنها ويقتصر الجديد بالنسبة له على اسلوب الحياة والتعامل بين الناس والنظام والنظافة العامة واختلاف

درجات الحرارة ودرجات الرطوبة وشدة احترام القوانين وغيرها من الامور التى تتميز بها الدول المتقدمة.

اما رفاعة فقد كانت باريس بالنسبة له صدمة بصرية وحسية وحضارية كاملة بكل المقاييس ربما لم يتخيل مداها فى اروع احلامه. ورغم ان باريس فى نهاية العشرينيات من القرن التاسع عشر كانت تختلف كثيرا عن عاصمة النور التى نعرفها اليوم حيث لم يكن برج ايفل يشمخ على ضفاف نهر السين ولا المسلة المصرية الباهرة تتوسط ساحة الكونكورد الا ان عاصمة فرنسا كانت تخلب العقول وبها مظاهر للمدنية لم تكن تعرفها مصر على الرغم من رقيها النسبى آنذاك.

ومع غياب كل الظروف الملطفة للصدمة فقد تمالك رفاعة اعصابه ولم يفقد رزانته. بل انه لم يكتف برصد مآثر الحياة فى فرنسا وبريق الحضارة بها ولكن عينيه المجردتين من الخبرة وقعتا على العيوب وعلى ما يتعارض مع تقاليدنا ودينننا وعاداتنا وقيمنا.

وكالغالبية الساحقة من المصريين الذين يعيشون خارج الوطن لم ينس رفاعة بلاده خلال وجوده فى فرنسا. وقد ظهر ذلك جليا فى اكثر من موضع بكتابه العبقرى «تخليص الابريز.» وفى الفصل الثانى يقول بالحرف: « فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها ادوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا كما هو شائع على لسان الناس من قولهم: مصر ام الدنيا». ثم يتلو ذلك بقصيدة نظمها وهو فى باريس مطلعها : « ناح الحمام على غصون البان..» ويقول فيها متحدثا عمن تركهم فى مصر من اصدقائه:

مع اننى والله مذ فارقتهم   ما طاب لى عيشى وصفو زمانى

ولا ينسى رفاعة ان يكيل المديح لولى النعم محمد على كما كان يطلق عليه فيقول فى نهاية قصيدته:

يهنيك يا مصر لقد حزت البها   بمحمد باشا علىّ الشان

واذا كانت النظرة من الخارج تختلف حسب شخصية الناظر وخلفيته الثقافية والتعليمية فانها تختلف كذلك كثيرا تبعا للموقع الذى ينظر منه المغترب. فالنظرة

من دولة عربية خليجية مثلا تختلف كثيرا عمن ينظر إلى مصر من دولة عربية مغاربية وتختلف اكثر ان كان المغترب فى واشنطن أو باريس كما تختلف النظرة من طوكيو أو الهند مثلا. فالانسان يتأثر بالتأكيد بالمناخ الذى يعيش فيه وبرؤية اهل البلد الذى يقيم به واهتماماتهم الاساسية. والانسان يرى وطنه ليس « من خلال » ولكن « فى » عيون الاجانب الذين يعيش وسطهم. وعادة ما تكون هذه الرؤية اثراء لصورة البلاد. فهى بمثابة النظر فى المرآة بل هى اكثر عمقا لان المرآة تعطى صورة مماثلة اما النظرة من خلال الاخر فهى ترى ما لا يراه صاحب الشأن.

ربما كانت هذه النظرة تضخم بعض العيوب وتصغر من بعض المحاسن ولكنها تجعل الانسان يرى ما كان عاجزا عن ان يراه من الداخل. والناظر من باريس لابد ان يتأثر بوجهة نظر الفرنسيين الذين يركزون فى رؤيتهم لمصر على الجانب الحضارى والثقافى والبعد التاريخى الذى يضرب بجذوره فى اصل الحضارة الانسانية ومنابع المدنية. ولعل محاولة الاستفادة من هذه الرؤية والنظر إلى مصر من مرصد باريس هى الهدف الاساسى من هذا الكتاب.

الفردية والمصلحة الجماعية

ليس هذا الكتاب دراسة علمية مقارنة بين الشرق والغرب وهناك عدة اعمال هامة متخصصة فى هذا الموضوع. لكن النظرة إلى مصر من الخارج تفرض تدوين بعض الملاحظات العامة التى قد لا يتنبه لها الكثيرون من الداخل مع انها تمثل اهمية كبرى من اجل فهم وجدان وعقلية العالمين الشرقى والغربى وبالتالى الفوارق الاساسية بينهما.

ومن اهم الفروق فى العقلية بين المجتمعات الغربية ومجتمعات الدول النامية هو إعلاء مكانة الفرد عندهم التى نترجمها بشىء من التبسيط بالفردية. لكن هذه الفردية برغم كل عيوبها فتحت الباب للتقدم الكبير الذى شهدته هذه المجتمعات خلال القرون الماضية وخاصة منذ عصر الثورة الصناعية.

والفرد عندهم يدرك معنى المصلحة العامة ويدرك بعقله ان مصلحة مجتمعه هى جزء من مصلحته الخاصة. فمشروعه الفردى مرتبط بمشروع المجتمع الذى يعيش فيه. اما العقلية العربية عموما فهى تعتبر الفرد جزءا من المجتمع ينبغى ان ينصهر فيه وان يكبت نزعاته الفردية ورغباته الخاصة لمصلحة الخلية الاكبر سواء الاسرة أو ابناء الحى أو الوطن.

والفرد فى المجتمعات العربية منذ نشأتها ينخرط فى المجتمع ويتبع المجموع فى العادات والمثل والقيم وحتى فى المشاعر والاحاسيس كما يدل قول الشاعر القديم المنتمى إلى قبيلة غزية:

وما أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

والغريب انه على الرغم من ذلك فان الفرد فى المجتمعات العربية لا يقيم وزنا كبيرا لمصلحة المجموع فى تصرفاته اليومية ولا يتصرف الا بما يتفق مع مصلحته

الخاصة متصورا ان هناك انفصاما بين المصلحتين الفردية والجماعية. ويعد هذا التناقض بين الانسحاق امام المجتمع والانانية فى السلوك الخاص من اهم اسباب محنة المجتمعات العربية الآن.

وعلى نقيض المجتمعات الغربية نجد ان الفردية بالمفهوم الماركسى هى آفة من اخطر الآفات التى تتعرض لها المجتمعات. ويقول احد اهم المنظرين للماركسية الفيلسوف جورج بوليتزر فى كتابه الشهير: « المبادىء الاساسية للفلسفة » : بماذا نسمى من يعش وكأنه وحده فى العالم؟ انه الانسان الفردى. وهو يعيش منكفئا على نفسه ولا وجود للعالم الخارجى بالنسبة له. والفردى انسان انانى يرى ان حدود العالم لا تتعدى شخصه. تلك هى النظرة الماركسية إلى الفردية التى اصبحت بالنسبة للحضارة الغربية بمثابة دين تدين به ومحور اساسى لفلسفتها فى الحياة وربما كان هذا التناقض بين النظرية الماركسية والنزعة الفردية من الاسباب الاساسية التى حالت دون انتشار الماركسية فى غرب اوروبا والولايات المتحدة حيث اصطدمت النظرة الشيوعية بنزعة الفردية الراسخة فى وجدان ابناء المجتمعات الغربية.

فمن المؤكد ان تطبيق النظرة الفردية كانت من الاسس التى قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة بعد ان كان الانسان فى المفهوم المسيحى التقليدى يعيش على الارض للتكفير عن الخطيئة الاصلية وعليه بالتالى ان يدفع ثمن رضاء الخالق وغفرانه من خلال حياة صارمة خالية من كل مظاهر الترف والاستمتاع بمباهج الدنيا.

لكن الفردية وحدها لا يمكن ان تفسر التقدم الضخم الذى احرزه الغرب فى القرون الماضية لولا اقترانها بمفهوم للمصلحة العامة يختلف كثيرا عن المفهوم السائد فى غالبية بلدان العالم الثالث. ولعل الفارق الأساسى بين التفكير الغربى والتفكير الشرقى هو ان حضارة الغرب قد وضعت العقل فى قلب النظام الفكرى والحياتى للانسان واصبح العقل هو السائد سيادة كاملة بلا منازع.

ومما لا شك فيه ان لهذه القاعدة الاساسية عيوبها الكثيرة ولكنها حتى اشعار آخر الصيغة التى اتاحت للغرب التقدم منذ عصر النهضة. فالعالم الغربى قد عاش حقبة القرون الوسطى فى حالة من التخلف الشديد. وكان المفهوم السائد

هو تفسير قاصر للديانة المسيحية مؤداه ان الانسان موجود على الارض للتكفير عن الخطيئة الاصلية التى ارتكبها سيدنا آدم عندما اكل من الفاكهة المحرمة. وكانت حياة الناس فى القرون الوسطى الاوروبية تدور حول هذا المحور فلم يسع احد إلى التقدم والتطور والاكتشاف والاستمتاع بالحياة حيث ان الهدف من وجود البشر على الارض هو التكفير عن ذنوب ابيهم آدم من اجل تحاشى نار جهنم وضمان مكان فى الجنة.

وجاء عصر النهضة ليطيح بهذا المفهوم ويطرح مفاهيم جديدة تقوم على اساس ان الانسان هو مركز الكون ومركز الاهتمام الاساسى الذى ينبغى ان تخضع له كل العناصر الاخرى المكونة للحياة فانطلق الغرب فى طريق التقدم الذى اوصله إلى ما هو فيه اليوم وتحرر من الغشاوة التى ظلت تخفى عنه حقائق الحياة وتمنعه من التقدم والازدهار.

وربما يكمن سر التقدم الكبير الذى احرزه الغرب منذ بضعة قرون فى انه قد وجد الانسجام المتناغم بين الفردية والعقل. فمشروع المجتمع الغربى يقوم على مصلحة الفرد الذى يعد الخلية المركزية للمجتمع. لكن مصلحة الفرد وحدها تؤدى إلى فوضى وانهيار كامل للمجموع لو لم يكن هناك ضابط العقل الذى يضبط حركة المجتمع وينظمها ولا يجعل اشباع المصلحة الفردية على حساب مصلحة المجموع.

واذا اخذنا مثالا بسيطا جدا لشخص يقود سيارته فى شارع مزدحم فإن الرغبة الغريزية قد تدفعه إلى ان يسابق السيارات الاخرى ويسير فوق الرصيف ولا يحترم قواعد المرور حتى يخرج من الزحام ويسبق السيارات المجاورة فينطلق إلى الطريق الخالى من الازدحام. لكنه اذا فعل ذلك وفعله آخرون فان المرور سيتوقف تماما وتشل حركة السيارات بما فيها سيارة الرجل الذى اتخذناه مثالا لهذا النوع من التصرف. اما اذا امتثل سائقنا لقواعد المرور فانه يسهم بذلك فى تخفيف ضغط الازدحام وبالتالى خروج سيارته من عنق الزجاجة.

ومع ذلك فالانسان فى كثير من بلدان العالم الثالث يقدم دون وعى على تصرف مماثل لسائق السيارة الاحمق الذى يتصور انه من الممكن له ان يفلت وحده من الزحام ويترك الآخرين يعانون منه. اما الانسان فى الحضارة الغربية

فيدرك ان من مصلحته الخاصة ان يحترم القواعد العامة التى وضعها المجتمع كضوابط لعدم طغيان المصلحة الفردية على المصلحة العامة مما يعرض المجتمع للفوضى فيدفع ثمنها الجميع فى النهاية. وقد عبر المفكر الفرنسى الكبير مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) فى كتابه «روح القوانين» الذى وضع فيه لاول مرة أسس التوازن بين السلطات فى نظام الحكم ذلك الفهم العميق للمصلحة الجماعية حيث يقول: «لو كنت اعلم ان هناك شيئا مفيدا لى وضارا لاسرتى لاستبعدته من ذهنى ولو كنت اعلم ان هناك شيئا مفيدا لاسرتى وضارا لوطنى لاستبعدته عن خاطرى ولو كان هناك شىء مفيد لوطنى ويعود بالضرر على اوروبا أو مفيد لاوروبا وضار للجنس البشرى لاعتبرته بمثابة الجريمة».

وقد ادرك الفيلسوف العبقرى ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) قبل مونتسكيو بمئات السنين الاهمية العظمى للمصلحة الجماعية وانعكاسها على المجتمع ككل عندما قال: «المصلحة العامة هى مقياس الافعال من حيث الخير والشر».

لكننا للاسف لم نعد نقيم وزنا لما قاله رموز حضارتنا التى نتباهى بها بالكلمات دون ان نسعى إلى التعمق فيها وتطبيق اساليب التفكير التى جعلت منها فنارا هاديا للبشرية لعدة قرون من الزمان.

وهناك عشرات من الامثلة التى تدل على ادراك الانسان فى الغرب للمصلحة العامة من خلال العقل واعمال التفكير وادراك اهمية التوصل إلى اتفاق عام بين ابناء المجتمع الواحد على مجموعة من المبادىء يحترمها الجميع وتعد القواعد الاساسية التى يقوم عليها المجتمع.

فرجال الاعمال فى الغرب الذين يطلق عليهم تعبير أصحاب العمل أو ارباب العمل قد ادركوا بسرعة وخاصة بعد ظهور الافكار الاشتراكية وانتشارها ان الهوة الشاسعة بين الاغنياء والفقراء لا بد ان تؤدى إلى توترات مزمنة فى المجتمع وقد تؤدى إلى صدام قد يتخذ اشكالا عنيفة ان لم تدفع بالطبقات السفلى إلى الثورة. وعلى هذا الاساس فان من مصلحتهم محاولة علاج قضية الفقر والتخلى عن الانانية والاثرة التى تقوم على فكرة ان الفقير يعانى من الفقر بسبب جهله وكسله وغبائه.

وظهر اتفاق عام بين اصحاب العمل فى كافة الدول الغربية على اعطاء العاملين كل حقوقهم وبعض الامتيازات التى لم يكن يحلم بها الكادحون حتى بداية هذا القرن. ولم يكن ذلك حبا فيهم أو رغبة فى صنع الخير ولكن لإدراك اصحاب العمل ان ذلك هو السبيل الوحيد لقيام السلام الاجتماعى وهو خير ضمان لاستقرار المجتمع.

اما غالبية رجال الاعمال عندنا فلا زالوا يعتبرون ان مصلحتهم هى الخروج باكبر منافع ممكنة فى اسرع وقت ممكن بغض النظر عن خطورة هذه النظرة حتى من زاوية مصلحتهم الخاصة. ونجد هنا ايضا ان نظرة اصحاب العمل فى الغرب تقوم على مفهوم للمصلحة مبنى على العقل والتحليل الموضوعى للواقع على عكس معظم رجال الاعمال المصريين الذين لا يربطون حتى الآن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة.

وهناك امثلة اخرى عديدة تبدو بسيطة لكن لها دلالة عميقة على المفاهيم المؤسسة للحضارة الغربية الحالية بما لها وما عليها. فاحترام النظام والنظافة العامة هما دليل ملموس على الوعى بالعلاقة العضوية بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة. فالغربى لا يبصق ولا يلقى القمامة فى الشارع لانه يدرك ان نظافة مدينته ستعود عليه بالفائدة المباشرة وان قذارتها ستعود عليه وعلى جميع سكانها بالضرر المباشر. فالقذارة تؤدى إلى تفشى الامراض والاوبئة والروائح الكريهة وتنفر الزائرين من السائحين أو العابرين.

ومن المجالات التى يتضح فيها ترجيح العقل عند الغربيين الموقف من الموت. ففى حضارتنا الشرقية نجزع من سيرة الموت ونرفض حتى ذكره تشاؤما من سيرته بينما يذكر الغربيون بهدوء شديد احتمالات موتهم ويعدون العدة لهذا اليوم ويتحدثون عنه على انه يوم قادم لا محالة. بل انهم يقررون مكان دفنهم ويكتبون وصيتهم ويضعون بانفسهم ادق تفاصيل جنازتهم. والمقارنة بين جنازة فى مصر واخرى فى فرنسا مثلا تعطى فكرة واضحة عن الفارق فى المفاهيم. ففى مصر ينطلق الصياح والعويل ونرى فى الكثير من الاحيان اللطم على الخدود والتمرغ فى التراب.

- **اما** فى فرنسا وفى الغرب عامة فالحزن يتخذ مظاهر اكثر هدوءا ويكتفى اهل الميت بالبكاء فى صمت ويقدم المعزون العزاء فى هدوء ولا تكاد تسمع صوتا فى جنازاتهم. وكنت فى البداية اعزى هذا الهدوء إلى ضعف مشاعرهم فى حين كنت ارى الصراخ والعويل عندنا دليلا على احساسنا الفياض ومشاعرنا الدفاقة. لكنى اعتقد اليوم ان اختلاف ردود الافعال هو نتيجة لاختلاف مفهوم الموت الذى يعده الغربيون بعقولهم امرا لا مفر منه وانه يجب التعامل معه على انه جزء من الحياة ذاتها.

والغريب ان ثقافتنا تتضمن فلسفة تجاه الموت كان من المفترض ان تجعل علاقتنا معه مختلفة عما هى عليه. فهناك عشرات بل ربما مئات من ابيات الشعر تنبىء عن حس بحتمية الموت وبأن لحظة الاحتضار هى لحظة سيواجهها كل انسان على وجه الارض. فهناك مثلا بيت ابو فراس الحمدانى الشهير فى قصيدته الرائعة التى غنت جزءا منها سيدة الغناء العربى ام كلثوم (١٨٩٨ - ١٩٧٥) ومطلعها: «اراك عصى الدمع شيمتك الصبر» وهو:

وإن مت فالانسان لا بد ميت وان طالت الايام وانفسح العمر

وهناك مطلع رائعة المتنبى فى رثاء أم سيف الدولة:

نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال

ونرتبط السوابق مقربات وما ينجين من خبب الليالى

اى اننا نستعد بالسلاح لكن الموت يقتلنا دون قتال ونضع الخيول على مقربة منا للهرب فى الوقت المناسب لكن ذلك لا ينجينا من الموت المتربص بنا.

كما ان هناك بيت احمد شوقى فى رثاء مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨):

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوانى

وليرجع القارىء إلى معلقة الشاعر الفذ طرفة بن العبد (نحو ٥٣٤-٥٦٩) التى بها نظرة فلسفية للموت تستحق التأمل. ومع كل الوعى بقضية الموت فى تراثنا الشعرى والثقافى لا زلنا نتصرف وكأن الموت شر لا يصيب الا الاخرين ونؤثر ان نخفى رؤوسنا فى الرمال وعدم ذكر الموت تشاؤما ودفعا لوقوعه.

ومن الامور التى صدمتنى فى بداية اقامتى بفرنسا ما حدث عندما توفى احد اهم رجال السياسة الذين كنت اعرفهم بالاسم واتابع اخبارهم من القاهرة. وجلست اتابع نشرة الاخبار وتعليقات رجال السياسة الفرنسيين على الحدث. ولم اصدق اذنى عندما سمعت احد المتحدثين يقول انه يأسف لوفاة الراحل على الصعيد الانسانى ثم بدأ يشن حملة على المتوفى ويقول انه لم يكن يتفق معه سياسيا وان اسهام الفقيد كان سلبيا فى الحياة السياسية الفرنسية وان الراحل كثيرا ما اخطأ فى تقديراته السياسية.

وسرعان ما قارنت بين هذا التصريح وما يحدث عندنا عند وفاة احدى الشخصيات العامة فيكيل الجميع المديح للفقيد ولا يتعرض احد له بالنقد أو التجريح على اساس الحديث الشريف «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم» (رواه الترمذى عن ابن عمر). وقد قدم المنتقد الفرنسى تبريرا منطقيا ولا اقول مقبولا لموقفه. فقد اكد انه لو اقتصر تأبين الراحل على المديح لتصور الجميع وخاصة الشباب ان مواقف المتوفى كانت كلها صائبة وأخذوا كل ما فعله أو قاله كمسلمات لا تناقش. وفهمت ان قدسية الموت التى توارثناها اجيالا بعد اجيال فى مصر والشرق لديها عندهم مفهوم مختلف.

وتعد تربية الاطفال من المجالات التى تتضح فيها الفروق بيننا وبينهم فى ترجيح العقل. فغالبية الآباء والامهات فى مصر وخاصة فى الطبقات الميسرة الحال تعتبر من واجبها تجاه ابنائها ان تعطيهم كل شىء وتضع تحت تصرفهم كافة تسهيلات الحياة ويزيد هذا المنطق بين الاغنياء الجدد الذين لا يريدون لاولادهم ان يعانوا مما عانوه فى طفولتهم. والنتيجة ان الاطفال يتعودون على عدم بذل اى مجهود لان كل شىء يصل اليهم دون اقل عناء ولمجرد انهم طلبوه. كذلك يكون معدل النضج لهؤلاء الاطفال والشباب بطيئا للغاية مقارنة بالاطفال الذين ينشأون على مواجهة مصاعب الحياة.

اما المنطق السائد فى الغرب فقد لخصه رائد علم النفس سيجموند فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩) عندما قال: «اذا كنت تحب اولادك دعهم يعانون من قسوة الحياة». فمن يعانى من قسوة الحياة فى طفولته وشبابه يدرك صعوبتها ويكون قادرا على مواجهة مصاعب الدنيا وتحدياتها وتصقله مواجهة المسئولية فيصبح انسانا ناضجا ومتوازنا.

وكما تنبه ابن رشد لاهمية المصلحة الجماعية ادرك العديد من المفكرين والمصلحين فى التاريخ العربى والاسلامى الاهمية المحورية للعقل. وفى كتاب المرشد الامين للبنات والبنين يقول رفاعة الطهطاوى: «العقل هو الوسيلة الوحيدة فى التصور والتصديق وتمييز الحقائق على وجه دقيق نميق».

لكن البعض عندنا لا يحلو لهم الا ابراز افكار دعاة التحجر والانغلاق فى تاريخ العالم العربى الاسلامى ويتجاهلون دعاة التنوير وانفتاح العقل أو يشنون عليهم هجوما لاذعا فيبدو الامر كأن تراثنا لا يحتوى سوى على الافكار الرجعية العقيمة.

وقد عشت تجربة شخصية ادركت منها الفارق فى التصرفات الناتج عن اختلاف فى الثقافة العامة والتربية مبعثه فى رأيى التزامهم بالعقل وانسياقنا وراء العاطفة بغض النظر عن اية مفاضلة بين الموقفين. فكانت احدى سيدات الاسرة المسنات تقوم بزيارة لنا فى باريس وفوجئنا بها تستيقظ فجر احد الايام وهى تصيح من ألم عنيف فى صدرها ثم فوجئت بها تنطق بالشهادتين وهى تصرخ بانها تحتضر. امسكت بسماعة التليفون بيد مرتجفة وطلبت رقم الاسعاف ووجدت نفسى اصيح بانفعال بان هناك سيدة تحتضر بمنزلى واطلب سيارة اسعاف لنقلها على الفور إلى المستشفى. ووجدت صوت امرأة تجيبنى ببرود شديد قائلة: ارجوك ان تلتزم الهدوء.. ثم اضافت: صف لى الاعراض التى تشكو منها المريضة؟

ولم اتمالك من الصياح بأعلى صوتى: الا تفهمين؟ اقول لك انها تحتضر وانت تريدين تضييع الوقت فى وصف الاعراض؟ وجاءنى الصوت هادئا مرة اخرى: ياسيدى قلت لك ان الصراخ لن يفيد.. انا اسأل عن الاعراض حتى ارسل لك السيارة المجهزة لمواجهة الحالة بالضبط.. فلو كانت مشكلة تتعلق بالقلب أو بالمخ والاعصاب أو بشىء آخر. فالدقيقة التى ستضيع فى وصف الاعراض قد تنقذ حياتها. اما ان ارسل لك سيارة اسعاف غير مجهزة بالتجهيز الملائم لحالتها فقد يؤدى ذلك إلى كارثة.

وادركت على الفور كم ان هذه السيدة على حق وكم اننى على خطأ. وبرغم ان هذه السيدة ممرضة أو سكرتيرة لم تلق حظا من التعليم كالذى حظيت به الا انها حكمت العقل فى الوقت الذى انسقت فيه وراء غرائزى.

الفضيلة: وسط بين رذيلتين

وهناك عشرات الامثلة على اختلاف التصرفات بين المصرى والفرنسى وبصفة أعم بين العربى والاوروبى تدل كلها على ترجيحهم للعقل وميلنا نحن إلى المشاعر والعواطف. وكثيرا ما تكون ردود افعالنا تلقائية وفطرية فى الوقت الذى يغلب على تصرفاتهم طابع العقلانية المجردة من الانفعال. فعندما تقع حادثة فى الطريق بفرنسا فان الناس يتصلون فورا بالاسعاف لكنهم لا يلمسون الجرحى لان اى حركة فى غير موضعها قد تؤدى إلى اصابتهم بعاهات مستديمة أو ربما تودى بحياتهم. مع ان رد الفعل التلقائى هو محاولة حمل الجرحى بعيدا عن مسرح الحادث لكن العقل يقول ان مصلحة المصاب هى الا يمسه الا طبيب أو معالج متخصص.

ومن المجالات التى يتضح فيها اختلاف المفاهيم بين العقلية الغربية والشرقية موضوع الاحسان. فالشرقى يعتبر ان الاحسان يتلخص فى تقديم مساعدة مباشرة للفقير سواء أكان شحاذا يلقاه فى الشارع أو شخصا يحتك به فى حياته اليومية ويعلم عن فقره وحاجته. اما الغربى فيعتبر ان هذا النوع من الاحسان مفسد للمجتمع وانه يساعد على الكسل والبطالة والتراخى لان الفقير سيركن إلى الاحسان الهابط اليه من السماء ولن يبذل بالتالى مجهودا للعمل.

وكنت اتصور ان الفرنسيين مجردون من أية شفقة عندما اراهم يرفضون الاحسان للفقراء ويعرضون بغضب عن السائلين فى شوارع باريس وهى ظاهرة جديدة لم تكن موجودة من قبل وزادت فى الآونة الاخيرة بسبب تزايد المهاجرين من اوروبا الشرقية. ثم ادركت مع الوقت ان قلوبهم ليست متحجرة كما تصورت فى البداية لكن الفارق هو ان لديهم مفهوما مختلفا عن الشفقة يقوم كذلك على استخدام العقل وكبت العواطف الاولية.

فحل مشكلة الفقر بالنسبة لهم ليست قضية فردية وانما هى قضية المجتمع ككل. وفى نظرهم ان منح الفقير احسانا فرديا مباشرا لن يؤدى إلى خروجه من دائرة الفقر بل ربما على العكس قد يجعله يستمرىء حاله ولا يطالب المجتمع بحقه فى العمل والكسب المشروع لقوت يومه.

ولم تفت هذه الظاهرة على العبقرى الطهطاوي حيث كتب باسلوبه التلقائى فى تخليص الابريز بعد عرض سريع لفعل الخير في باريس: «ومن هذا كله يتبين ان فعل الخير بمدينة باريس اكثر منه فى غيرها بالنسبة للجملة أو للملكة لا لكل واحد على حدته ثم يضيف: وربما تراهم ينهرون السائل ويردونه خائبا زاعمين انه لا ينبغى السؤال ابدا لانه إذا كان السائل قادرا على الشغل فلا حاجة له إلى السؤال وان كان عاجزا عنه فعليه بالمارستانات وغيرها» (يقصد المستشفيات).

وتماما كما ينفر الفرنسيون والغربيون عامة من الحسنة الشخصية المباشرة فانهم ينفرون من فكرة الخدمات الخاصة التى يتسابق اهل الشرق على تقديمها للاصدقاء أو الاقرباء أو حتى خدمات لوجه الله لمن لا يعرفونهم. وفى نظرنا ان الخدمة الخاصة هى معاونة انسانية مبعثها التراحم وكثيرا ما نزن الناس بقدر الخدمات الشخصية التى قدموها للآخرين.

لكن الخدمة بهذا الاسلوب هى فى نظر الغربى سلب لحقوق الغير. فاذا حصلت مثلا على استثناء لدخول احد التلاميذ مدرسة من المدارس فان ذلك يعد افتئاتا على حق الغير لانه يحرم تلاميذ آخرين من الحصول على حقوقهم. واذا اعفيت احدا من الوقوف فى الصف فهو اجحاف لكل الآخرين الذين يعانون من الوقوف فى الصف للحصول على حاجتهم وانتزاع حقوقهم.

واذا تدخل شخص ذو حيثية لادخال مريض باحدى المستشفيات للعلاج المجانى فهو كذلك فى نظرهم هضم لحقوق آلاف المرضى الذين يعانون من الالام وينتظرون دخول المستشفى ويقفون فى طابور الانتظار قبل الشخص المستثنى الذى كان له حظ معرفة المسئول الذى عاونه على تجاوز قائمة الانتظار. واذا قام ضابط شرطة برفع مخالفات السيارة عن احد اصدقائه مثلا خدمة له فان ذلك يتم على حساب المجتمع على اساس ان اموال المخالفات تصرف للمصلحة العامة كما ان عدم رفع المخالفات عن باقى المواطنين يعد ظلما لهم... وهكذا.

وأصل هذه المواقف فى المجتمعات الغربية هو مبدأ تكافؤ الفرص الذى يعتبر من المبادىء الاساسية التى تقوم عليها هذه المجتمعات. فمن المفترض ان كل انسان فى المجتمع يحصل على نفس الفرصة التى يحصل عليها الآخر ثم تتدخل عوامل متعددة لتحديد ما يحصل عليه كل فرد بعد ذلك. انما واجب المجتمع تجاه المواطنين هو ان يضع الجميع على قدم المساواة فى بداية الطريق.

اما الضابط الثانى للمجتمعات الغربية فهو القوانين التى من المفترض ان تحمى الضعفاء أو اصحاب الظروف الخاصة. ومن منطلق ان القانون يحمى الضعفاء فالمسنين مثلا لهم اولوية فى الجلوس بالمواصلات العامة وفى المصالح الحكومية وكذلك فان المعاقين لهم اماكن خاصة لركن سياراتهم ولهم مراحيض خاصة بهم وبالتإلى فان كل هؤلاء ليسوا فى حاجة إلى خدمة خاصة من احد. بل انهم قد يعتبرون ان منحهم اكثر مما يعطيهم القانون هو نوع من الشفقة التى يرفضونها بشدة ويعتبرونها اهانة لهم.

وكان المفكر الفرنسى الكبير جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) هو اول من ارسى قاعدة تقوم عليها كل القوانين الحديثة عندما ذكر فى كتابه الشهير «حديث حول اصول عدم المساواة» ان عدم المساواة الفعلية بين الناس لا يمكن ان يتأسس عليها عدم مساواة فى الحقوق.

إذن فمفهوم الخدمة التى تعتبرها الغالبية الساحقة عندنا قمة الرحمة والشفقة الفردية هى بالنسبة لهم طامة كبرى على المجتمع من المنظور العقلانى العام وليس من المنظور العاطفى الخاص. انها وجهة نظر. وربما يكون من الصعب علينا تقبل الموقف الغربى القائم على العقل وحده واعتقد ان موقفنا ليس خاطئا تماما لان العالم الذى يتحكم فيه العقل وحده هو عالم بلا روح تنعدم فيه المشاعر الانسانية التى تجعل من الانسان اعظم الكائنات الحية على ظهر الارض. لكن المهم هو ايجاد التوازن السليم بين العقل المجرد والمشاعر الانسانية.

وقد احتجت إلى سنوات طويلة كى ادرك ان الشعب الفرنسى بالرغم من البخل الذى يبديه على الصعيد الفردى يتميز بسخاء غير متوقع عندما يستدعى الامر ذلك. فعندما تحدث كارثة فى اى مكان فى العالم - واذكر بصفة خاصة عندما اذاع التليفزيون الفرنسى صورا بشعة عن المجاعة فى بعض الدول

الافريقية – يقوم التليفزيون بمناشدة المشاهدين بالتبرع ويعطى رقم حساب خاص لذلك باحد البنوك.

وافاجأ بعد ذلك بايام قليلة بالمذيع يظهر على الشاشة ويتوجه بالشكر للمشاهدين ويذكر ارقاما فلكية تصل إلى عشرات الملايين من الفرنكات الفرنسية وهى حصيلة تبرعات المواطنين الذين تأثروا بما رأوا ويريدون المشاركة فى تخفيف محنة ضحايا المجاعات أو الكوارث فى بلاد افريقية لا علاقة لها بفرنسا وتعد بعيدة كل البعد جغرافيا وثقافيا عن بلادهم. ولا يذكر بطبيعة الحال اسم أى من المتبرعين.

وهناك برنامج سنوى يحمل اسم تليثون. والجزء الاول من الكلمة مشتق من كلمة تليفزيون، والثانى من الماراثون وهو سباق المسافات الطويلة الذى استمد اسمه من قصة محارب يونانى قديم قطع مسافة ٤٢ كيلو مترا جريا على الاقدام لابلاغ قائده بالنصر فى معركة حربية. وفكرة البرنامج هو البث المباشر بصفة متواصلة لمدة تصل إلى ثلاثة ايام متتالية من اجل جمع اكبر مبلغ ممكن من المال لعلاج احد الامراض ويتغير المرض الذى تذهب لصالحه التبرعات فى كل عام فيكون السرطان فى عام من الاعوام ثم الايدز فى العام التالى وهكذا. ويظل المذيع يحث المشاهدين على التبرع ويذكر كل فترة الرقم الذى وصل اليه حجم التبرعات لتشجيع الناس.

وقد يصل اجمالى التبرعات التى تجمع فى العام الواحد إلى عدة مئات الملايين.. نعم مئات الملايين.. من الفرنكات الفرنسية فى كل عام. والغريب هو أن الشخص الذى يشيح وجهه عن الشحاذ فى الطريق العام هو نفسه الذى يتبرع بجزء من ماله من اجل تقدم البحث العلمى لعلاج الامراض.

ملاحظة اخيرة على الكرم والبخل تخص الدعوات فى المنازل. فالشرقى يعتبر ان قمة الكرم هو اقامة وليمة يزيد حجم الطعام المقدم فيها على حاجة الضيوف اضعاف المرات. اما الفرنسى أو الغربى بصفة عامة فيقدم الطعام الذى يكفى الضيوف بالكاد ولا يكاد يبقى شىء بعد انتهاء الغداء أو العشاء. ونحن نعتبر ما يفعلونه بخلا وهم يعتبرون ما نصنعه سفها. فهم يفكرون بعقولهم انه لا داعى

اطلاقا لان تدعو عشرة اشخاص فتقدم طعاما يكفى لثلاثين ثم يلقى بالطعام الزائد فى نهاية السهرة ونحن نرى ان ذلك دليل على الكرم والسخاء.

لكنه كما قال الفلاسفة القدامى فان الفضيلة هى وسط بين رذيلتين. فالشجاعة وسط بين رذيلتين هما الجبن والتهور والصبر هو وسط بين العصبية وبلادة الحس والكرم وسط بين البخل والتبذير والطيبة وسط بين القسوة والبلاهة والتواضع بين الغرور وانعدام الثقة بالنفس وهكذا.

الخطيئة أصل المرض

الامر الذى يصدم الناظر إلى مصر من الخارج فى هذه الايام هو تنامى افكار جديدة لم تعرفها بهذه الصورة فى تاريخها الحديث. وتتستر هذه الآراء والافكار فى ثوب الدين وتتمسح فى رحابه وتتخذ من الاسلام غطاء لبث معتقدات غريبة وباسلوب لا يقبل النقاش ولا احتمالات الاخذ والرد.. ويشهر مروجو هذه الافكار القرآن الكريم فى وجه كل من يحاول تحكيم عقله فيضطر هذا الاخير إلى الانخراط فى موجة التيار الغالب خوفا من اتهامه بالكفر وهو اسهل اتهام يظهر على السنة دعاة هذه الافكار الجديدة.

وقد استشرت افكار التطرف الدينى تحت دعاوى وحجج مختلفة تصب كلها فى خدمة رؤية للعالم تقوم على الغاء العقل والاستسلام الكامل لآراء حفنة من دعاة التطرف فى ظاهرة يمكن ان نسميها «نهاية التفكير».

واصبح كل صاحب رأى فى العالم الاسلامى فى حالة دائمة من الدفاع عن النفس ضد تهمة الكفر والالحاد ومضطر إلى تبرير كل ما يقوله حتى لا يؤوله دعاة نهاية التفكير على انه تهجم على الدين الاسلامى.

وقادة الرأى الجدد من انصار نهاية التفكير يطلبون من الناس التوقف عن التفكير لان هدف حياة الانسان هو اتباع ما جاء بالقرآن الكريم والسنة وليس من حق اى انسان محاولة تفسير القرآن الكريم والسنة لان التفسير الوحيد الصالح يمتلكه دعاة نهاية التفكير ولا احد غيرهم.

وهذا الكتاب هو دعوة لكل مثقفى مصر والعالم العربى لمواجهة التيار المدمر الذى يواجهه عالمنا الاسلامى والذى يستغل الدين ويرتدى عباءته الطاهرة لمحاولة التسلط السياسى وفرض قيم ومفاهيم بعيدة كل البعد عن الدين الاسلامى

السمح والذى يدعو إلى سواء السبيل بالخير والموعظة الحسنة وليس بسفك دماء الابرياء وترويع الآمنين وارهاب كل صاحب رأى مستنير. وتعد الافكار التى يفرزها هذا التيار هى البذرة المنبتة للارهاب والعنف المسلح والتربة الصالحة التى تمهد له.

هل يعلم هؤلاء الذين يدعون الدفاع عن الدين عن طريق العنف ان اغلبية الشعب المصرى ظلت مسيحية حتى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى اى بعد ثلاثة قرون كاملة من الفتح الاسلامى ؟ بل ان بعض المؤرخين الغربيين يؤكدون ان المسيحيين لم يصبحوا اقلية الا فى القرن الثانى عشر الميلادى اى بعد خمسة قرون كاملة من الفتح العربى الاسلامى وهو ما يجزم به كتاب «العرب من الرسالة إلى التاريخ» الذى وضعه البروفيسور دومينيك شوفالييه والمستشرق الفرنسى الشهير اندريه ميكيل.

ولو كان عمرو بن العاص (تاريخ ميلاده مجهول -٦٦٣) أو من تتابعوا على حكم مصر من بعده ارادوا ان يبطشوا بالشعب المصرى لاجباره على اعتناق الاسلام ألم يكن فى وسعهم ان يفعلوا ذلك بسهولة ؟ وألم يكن ذلك يتناسب مع روح ذلك العصر الذى كان يشهد فى كل مكان ابشع الوان القمع والقتل الجماعى؟ ما كان اسهل على حكام مصر آنذاك ان يضيقوا الخناق على غير المسلمين وان يصدروا الاحكام الجائرة وان يرهبوا ابناء الشعب ليدخلوا فى دين الله رغم انوفهم.

وهناك عشرات ان لم يكن مئات من الامثلة على مثل هذه التصرفات فى تاريخ الانسان لعل اشهرها ما حدث فى الاندلس عندما سقطت آخر معاقلها غرناطة فى ايدى ايزابيل وفرديناند فى نهاية القرن الخامس عشر وكانت هذه المنطقة تقع تحت الحكم الاسلامى منذ القرن الثامن الميلادى. فقد قرر السادة الجدد «تنظيف» البلاد من الاسلام وايضا من اليهودية فاقاموا محاكم التفتيش التى كانت موجهة بصفة اساسية ضد اهل البلاد الراغبين فى التمسك بالدين الاسلامى. وبعد سنوات قليلة اصبحت اسبانيا خالية من المسلمين ومن اليهود وصار كل سكانها مسيحيين.

اما حكام مصر فأبوا ان يفعلوا مثل ذلك على الرغم من ان الذين تعاقبوا على حكمها فى تلك الحقبة كانوا مختلفين فى كل شىء. فبعد ان كانوا تابعين للخلافة فى المدينة فى زمن الخلفاء الراشدين صاروا تابعين للخلافة الاموية فى دمشق ثم تبعوا الدولة العباسية فى بغداد مع فاصل قصير فى سامرا حتى استقل أحمد بن طولون (٨٣٥ ـ ٨٨٤) بمصر عن الدولة العباسية المتهالكة عام ٨٦٨ وجاءت الدولة الاخشيدية بعد الطولونية ثم جاءت الدولة الفاطمية.

اختلفت سياسة كل هؤلاء وتنوعت اساليب حكمهم للبلاد لكنهم كانوا جميعا حريصين على عدم نشر الاسلام بحد السيف وعدم اكراه ابناء الشعب على اعتناق الدين الاسلامى والدليل على ذلك ان الاغلبية فى مصر لم تصبح مسلمة الا بعد مئات السنين من فتحها على يد عمرو بن العاص عام ٦٤١ واعلان الاسلام دينا للدولة. ولا اعرف شخصيا مثالا مشابها لهذا التسامح فى التاريخ القديم. فهل يعقل ان يتحلى اسلافنا بروح التسامح والترفع ونفتقد نحن هذه القيم والمثل العليا فى تعاملاتنا اليومية ؟

وفى القرون الاولى للدولة الاسلامية ازدهرت الفنون فى ربوع العالم الاسلامى وذهب الشعراء إلى ابعد الحدود فتغزلوا فى الخمر وتساءلوا عن اصل الانسان وصيرورته بينما هاجت الدنيا فى نهاية القرن العشرين على اغنية الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب (١٩٠٢ ـ ١٩٩١) التى كان عنوانها: «من غير ليه» والتى تطرح اسئلة تدور فى ذهن اى انسان عاقل وطرحها الشعراء من قبل فى العصور الاولى للدولة الاسلامية.

لقد تغنى ابو نواس (نحو ٧٥٧–٨١٠) وغيره بالخمر وسعى الشعراء إلى سبر اغوار النفس البشرية فى اعماقها واطلق الفلاسفة من ناحيتهم العنان لتفكيرهم من اجل محاولة فهم اسرار الكون وماهية الحياة فطوروا ما جاءت به الفلسفة اليونانية القديمة من آراء ونظريات وكانوا الوقود الذى أشعل عقول رواد عصر النهضة الاوروبية.

ولو اخذنا بالمقاييس التى يحاول البعض ان يفرضها علينا اليوم فان كل هؤلاء الشعراء والفلاسفة كفرة مارقون ولا يستحقون سوى ان تقام عليهم

الحدود. ولو طبقنا ما يسعى البعض إلى فرضه علينا اليوم لما ظهر إلى الوجود كل رموز العقل والتطور والرقى فى تاريخنا المجيد بدءا بالفارابى (٨٧٠ ـ ٩٥٠) وانتهاء بطه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) وتوفيق الحكيم (١٨٩٨ ـ ١٩٨٧) ولانضبنا مجتمعاتنا من كل ملكات الخلق والابداع وحكمنا على انفسنا بالتحجر والتيبس.

لكن الحقيقة ان حضارة الاسلام التى نتفاخر بها اليوم والتى كانت بالفعل منارة اضاءت الانسانية كلها لقرون طويلة وقامت على اكتافها النهضة الاوروبية لم تكن لتقوم لولا هؤلاء العباقرة من المتنبى إلى ابو العلاء المعرى (٩٧٣ ـ ١٠٥٧) ومن ابن سينا إلى ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦).

وقد ازدهرت تحت راية الاسلام مباحث الفارابى وابن رشد دون ان تصدر احكام بتكفيرهم أو فتاوى توجه اليهم اتهامات الردة والشرك بالله الا فى حالات استثنائية نادرة. لكنه يبدو ان دعاة الاسلام السياسى اليوم يسمحون للانسان باستخدام أية عضلة فى جسده باستثناء العقل.

فاليوم ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة يريد البعض ان يجرم الفكر ويسعى لتقييد عقل الانسان بقيود حديدية فى الوقت الذى قطعت فيه الحضارة الغربية شوطا بعيدا بفضل حرية الفكر والابداع جعلها تسيطر على مقدرات العالم اجمع بما فى ذلك العالم الاسلامى نفسه للاسف الشديد وتتحكم فينا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كثيرا ما تكون مهينة لنا.

ويكمن سر تقدم الغرب فيما يسمى بالفكر النقدى الذى يرفض المسلمات ويناقش كل صغيرة وكبيرة للتوصل إلى الحقيقة.

والمفارقة هى ان العكس تماما كان يحدث فى الماضى.. ففى الوقت الذى كان فيه ابو بكر الرازى (٨٥٠ ـ ٩٢٥) وابن سينا وغيرهما يمارسون ارقى انواع الطب ويضعون ركائز الفكر الذى اضاء الانسانية جمعاء كان الغرب غارقا فى الجهل والتخلف ويلجأ للشعوذة والاساطير والخرافات لتفسير ظواهر الحياة. وكان اهل اوروبا يتصورون ان المرض ليس سوى عمل من اعمال الشيطان وان العلاج هو تقييد المريض فى احد الاشجار وضربه بالسياط حتى يخرج الشيطان من جسده.

فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية فى روما تؤمن آنذاك رسميا بالمبدأ الذى استنه القديس جان كريزوستوم واسمه بالعربية يوحنا فم الذهب وهو المبدأ الذى يقضى بان «الخطيئة هى أصل المرض». هذا فى نفس الوقت الذى كان فيه الرازى وابن سينا وجابر بن حيان (نحو ٧٢٠-نحو٨١٣) يضعون اسس الطب والعلم من اجل تخفيف آلام البشر وخير الانسان وسعادته على الارض.

وفى نفس الوقت الذى كان فيه العرب يبدعون اروع قصائد الشعر فى تاريخ الادب العالمى على ايدى المتنبى والبحترى (٨٢٠ ـ ٨٩٧) وابن الرومى (تاريخ ميلاده مجهول-٨٩٦) وابو العلاء وبشار بن برد (٧١٤ ـ ٧٨٤) كان سكان اوروبا عاجزين عن كتابة جملة واحدة ترقى إلى مستوى الادب. وكان اول عمل يمكن ان يطلق عليه عملا ابداعيا هى «أغنية رولان» التى تحكى بطولات احد قادتهم ويدعى رولان فى حربه ضد العرب وكان هذا العمل تنفيسا عن عقدة سكان اوروبا آنذاك من تقدم العرب وتفتح عقولهم وتفوقهم على الاوروبيين.

ومن الانصاف ان يقول انه على الرغم من كل الظروف فان شعلة الابداع لا زالت متوقدة فى مصر والعالم العربى والدليل على ذلك ظهور اجيال متعاقبة من الكتاب والفنانين فى كافة مجالات الابداع. واللافت للنظر أن الفكر والابداع فى مصر لايقومان على نقل ما يأتى من الغرب كما هو الحال فى العديد من بلدان العالم الثالث، إنما يستوحى الكتاب فكرهم وابداعاتهم من القضايا المصرية الصميمة التى تحرك ضمير المجتمع المصرى.

فالمشكلة ليست اطلاقا ان مصر قد نضبت لكن المشكلة ان هناك من يريد ان يخنق الابداع ويشل العقل ويغتال التفكير متذرعا بالدين الاسلامى وهو الدين الوحيد الذى حض ابناء البشرية على العلم والمعرفة واخراج افضل ما بداخلهم من اجل حياة افضل لابناء البشرية.

العرب آباء الفكر العلمى

يجمع المؤرخون الجادون فى اوروبا على ارجاع اسباب النهضة الاوروبية التى ظهرت بوادرها فى القرن الخامس عشر الميلادى إلى حدثين رئيسيين بالاضافة إلى المسببات الثقافية والعلمية المعروفة. واول الحدثين فى نظر هؤلاء المؤرخين كان سقوط القسطنطينية فى ايدى العثمانيين بقيادة محمد الفاتح فى عام ١٤٥٢ والثانى هو اختراع المطبعة على ايدى الالمانى جوتنبرج نحو عام ١٤٥٤.

واذا كان تأثير الحدث الثانى واضحا حيث ان المطبعة اتاحت للكتاب الانتشار فى اوروبا وجعلت العلم والمعرفة فى متناول شرائح واسعة من المجتمع بعد ان كانت قاصرة على صفوة محدودة فان الحدث الاول فى حاجة إلى تفسير خاصة وان المؤرخين الاوروبيين يعتبرونه لا يقل ان لم يزد فى اهمية تأثيره على عصر النهضة عن اختراع المطبعة.

ولكى ندرك اهمية سقوط القسطنطينية على النهضة الاوروبية علينا ان نعرف ان اول حضارة اضاءت القارة الاوروبية ظهرت فى اليونان خلال القرون التى سبقت ميلاد المسيح عليه السلام ووصلت إلى ذروتها فى عصر بيريكليس فى القرن الرابع قبل الميلاد وعلى يد الفلاسفة العظام من امثال سقراط وافلاطون وارسطو.

وقد امتدت شعلة هذه الحضارة لبضعة قرون فى الدولة الرومانية على الرغم من انها كانت صورة شاحبة للنضوج الفكرى اليونانى.

وعندما انطفأت جذوة هذه الحضارة العظيمة دخلت اوروبا إلى عصر ظلام دامس بعد ان وقعت فريسة لقبائل عديدة جاءت من وسط وشرق القارة. وظل ابناء

اوروبا يعيشون فى غياهب جهل مطبق حتى بدأت فى القرن الخامس عشر الميلادى ارهاصات التنوير ممن يبحثون عن جذورهم الحضارية التى حملت شعلتها اليونان القديمة. وكانت اسرار الحضارة اليونانية واهم افكارها قد تجمعت فى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية التى افلتت من هجوم القبائل الكاسح فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين. وكان العرب قد حفظوا اسرار الحضارة اليونانية القديمة واحتفظوا باهم الافكار التى خلفها عباقرة الفلسفة والمعرفة اليونانيين.

ولا ننسى رواية عملاق الفكر العربى والاسلامى ابن سينا الذى حكى كيف قرأ كتاب: «ما بعد الطبيعة» لارسطو اربعين مرة فلم يفهمه وبرغم انه كان يحفظه عن ظهر قلب فقد ظل عاجزا عن ان ينفذ إلى معانيه. ويروى ابن سينا ان احد الباعة ألح عليه بحى الوراقين فى مدينة بخارى لشراء احد الكتب فاشتراه مشفقا وفوجىء بانه كتاب للفارابى يفسر فيه كتاب ارسطو الذى كان عاجزا عن فهمه فتفتحت امامه معانى كتاب الفيلسوف اليونانى الرائد وكانت بداية فهمه لعلم الفلسفة. وهذه الرواية تدلنا على مدى تأثر فطاحل الفكر العربى والاسلامى بحضارة اليونان وحفظهم لها. كذلك فقد كان الاوروبيون يطلقون على ابن رشد لقب «الشارح الاكبر» على اساس انه كان يشرح ويفسر نظريات عمالقة الفلسفة اليونانية وخاصة ارسطو.

وظلت القسطنطينية بؤرة حفظ الثقافة العربية والاسلامية والتى استلهمت الكثير من الافكار والفلسفات اليونانية القديمة.لكن عمالقة الفكر من العرب والمسلمين لم يكتفوا بدور الحافظ للتراث اليونانى القديم أو الناقل لعلوم حكماء اثينا لكنهم قاموا بتطوير وتحديث الفكر اليونانى واضافوا اليه اسهامات حاسمة.

وعندما سقطت القسطنطينية بين ايدى محمد الفاتح تم تهريب المخطوطات العربية إلى أوروبا فكان لهذا الفكر دور حاسم فى إنضاج وبلورة النهضة الأوروبية.

ويعترف كبار المفكرين والعلماء المنصفين فى الغرب اليوم بان العرب هم آباء الفكر العلمى بمعناه الحديث حيث كانوا اول من بحث فى الطبيعة دون مسلمات مسبقة وبتجرد كامل من أية معلومات سابقة عليهم فوضعوا اسس الفكر العلمى المنهجى الذى شيد عليه الغرب حضارته. وكان ما حافظ عليه العرب وما اضافوه

إلى الثقافة اليونانية هو القاعدة التى إرتكز عليها بناة عصر النهضة الاوروبية الذى تأسست عليه كل الحضارة الغربية التى نراها حاليا تسيطر على مقدرات العالم وتتحكم فى حياة الشعوب.

ويتساءل الكثيرون اليوم عن اكثر تجارة رابحة فى العالم فيؤكد البعض انها المخدرات بينما يرى البعض الآخر انها تجارة السلاح.. لكن الواقع ان اكثر تجارة رابحة فى الدنيا اليوم هى الاتجار بالدين. ولا يقتصر هذا الوضع الشاذ على عالمنا الاسلامى فحسب وانما يتعداه إلى العالم المسيحى وإلى داخل اسرائيل والعديد من الدول الغربية بالنسبة للديانة اليهودية. وللاسف ان الاتجار بالدين عندنا يتم على مسمع ومرأى من الجميع ولا احد يرفع صوته لوقف هذا الخروج على كل ما دعا اليه ديننا السمح منذ ان اوحى به فى الجزيرة العربية على سيدنا محمد ﷺ.

وكان الرسول عليه السلام لا يقبل الخرافات ولم يأت بأية معجزات من التى ينبهر بها العامة فهو لم يحول عصاه إلى ثعبان ولم يحى ميتا أو يحول أكمها إلى مبصر مع كل الاحترام والتبجيل للاديان الاخرى.

وفى ظنى ان ذلك لم يكن مصادفة وان الدين الاسلامى قصد له ان يكون دينا للعقل وان يقتنع به الناس عن طريق التفكير والموعظة الحسنة. وليس من قبيل الصدفة ان الشرارة الاولى التى آذنت بنزول الاسلام على ارض البشر هى كلمة: اقرأ.

وعندما اشاهد فى هذه الايام بعض المعتقدات الغربية عن المجتمع المصرى تحضرنى الآية الكريمة التى نزلت عندما تحدى بعض الكفار الرسول الكريم ان يتنبأ بالغيب ليثبت نبوته والتى تقول: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ (الاعراف - ١٨٨).

فان كان النبى الكريم لايعلم الغيب فبأى عقل نصدق أولئك الذين يدعون التنبؤ بالغد وبما تخبئه الاقدار ؟ كيف يلغى البعض عقله بوعى أو بغير وعى ويقع بسذاجة غريبة فى حبائل بعض المدعين بامتلاك قدرات لم تمنح لرسول الله وخاتم النبيين؟ كيف يتصور انسان عاقل ان الله تعالى يضن على رسوله الكريم بهبة

كمعرفة المستقبل ثم يمنح هذه الملكة لاشخاص لا يميزهم اى شيء عن غيرهم من البشر؟

وهناك فى المجتمع المصرى اليوم نوع من النفاق الغريب. فنسبة كبيرة من النساء والفتيات محجبات ويراهم الجميع فى الشوارع والجامعات وكافة الاماكن العامة. لكن التليفزيون الذى من المفترض ان يكون صورة امينة للمجتمع لا توجد به مذيعة واحدة محجبة. وتظهر كل المذيعات سواء مقدمات البرامج أو مذيعات الربط وشعورهن مسدلة وكأنهن من عصر مختلف أو كأنهن ينتمين إلى بلد آخر لاعلاقة له بمصر. نفس الظاهرة نلمسها فى السينما المصرية حيث تدور احداث الفيلم بين نساء لا ترتدى واحدة منهن الحجاب وكأن المجتمع فى واد وكل هؤلاء فى واد آخر.

وفى التليفزيون الفرنسى شعرت ادارات القنوات المختلفة ان هناك خللا فى تمثيل المذيعات للمجتمع عندما زادت نسبة السود وخاصة سكان مايسمى باراضى ما وراء البحار وهى التابعة لفرنسا والتى ترفض تسميتها بالمستعمرات كما تزايد عدد الجاليات العربية وخاصة القادمين من شمال افريقيا. وكانت كل مذيعات القنوات الفرنسية والمذيعين من البيض والشقراوات فى حين لم تكن للجاليات الاخرى اى تمثيل على شاشة التليفزيون الفرنسى. وقد اسرعت القنوات إلى سد هذا الخلل وبدأت تظهر مذيعات من اصل عربى ومن اراضى ما وراء البحار من ذوات البشرة السوداء. وكانت الفكرة هى ان التليفزيون لا بد ان يكون مرآة صادقة للمجتمع. اما التليفزيون فى مصر اليوم فلا يعكس واقع المجتمع من ناحية الشكل. اما من ناحية المضمون فهذه قضية اخرى ليس هنا مجال الحديث عنها وتحليلها.

ولا ينبغى ان يفسر هذا الكلام على انه دعوة لتحجب المذيعات لان ارتداء الحجاب فى رأيى هو حرية شخصية ويجب ان ينبع من قناعة كاملة وانما ملاحظاتى هى رصد للواقع وتقرير لحقيقة يشاهدها الجميع لكن لا يريد ان يراها احد.

لكن موضوع الحجاب وان كان بالقطع فى رأيى مسألة حرية شخصية الا انه ليس موضوعا حياديا مجردا من كل مغزى. فقد روى لى انه عندما بدأ عبود

الزمر احد اقطاب الجماعات المتطرفة يستجيب داخل سجنه فى الثمانينيات للضغوط التى تمارس عليه من اجل التنازل عن تطرفه وبدا مستعدا للتفاهم تصادف نقله فى هذا التوقيت من مكان احتجازه إلى مكان آخر. ومرت السيارة التى تنقله فى شوارع القاهرة ونظر الزمر من وراء السياج ففوجىء بالزيادة الملحوظة فى السيدات المرتديات للحجاب.

وكانت قراءته الفورية لهذه الظاهرة هى ان لحظة الانتصار قد اقتربت وان أوان الدولة الاسلامية التى يدعو لها قد آن. فكانت النتيجة انه عاد إلى مواقفه المتطرفة الجامدة متصورا ان وقت التنازل قد انتهى وان الشعب المصرى اصبح جاهزا لتقبل حكم الدولة الدينية ما دام الحجاب قد سيطر على الشارع المصرى بهذه الصورة الواضحة. وقد اثر موقف الزمر فى مواقف كل قيادات الجماعات الاصولية فى مصر وربما فى اماكن اخرى من العالم.

هل حقا من أجل مصر ؟

هذا الانفصام بين الواقع وبين ما يسعى البعض لإظهاره وهو ما تحدثنا عنه فى الفصل السابق يعتبر ظاهرة جديرة بالبحث والدراسة. وفى بعض الاحيان يكون ما يظهر أهم كثيرا مما يحدث فى الواقع ويستبدل الواقع بالظاهر كما جاء بالقرآن الكريم عن الشعراء ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الشعراء - ٢٢٦). وهذه الفجوة بين الحقيقة و ما يظهر منها يؤدى إلى نوع من انفصام الشخصية يعانى منه جزء من مجتمعنا اليوم.

ومن ظواهر هذا الانفصام ايضا موضة طالت الفئات المؤثرة فى المجتمع والتى اعتاد بعض منها ترديد عبارات مثل: «انا لا اعمل الا من اجل مصر» .. «انا لا ابحث عن اى مجد شخصى لكن كله علشان مصر» .. «انا اصلى باحب مصر اكثر من اى شىء فى الوجود».

وانا عن نفسى بصراحة يساورنى شك كبير فى كل من يبادرنى بهذا الحديث البراق. فمعظم الذين تدمع عيونهم تأثرا وهم يرددون هذه الشعارات هم اقل من يعمل من اجل خير البلاد بل لا يسعون الا لامتصاص اكبر منافع شخصية ممكنة بدعوى النفع العام وحب الوطن.

والواقع ان هذه الشعارات فارغة من اساسها فى رأيى. فالمصلحة العامة تبدأ بالمصلحة الشخصية وترتبط بها برباط وثيق. والانسان يعمل اولا من اجل نفسه واسرته والمقربين منه ويخدم من خلال ذلك المجتمع الذى يعيش فيه وينتمى اليه. فهو ينطلق عادة من المصلحة الخاصة إلى المصلحة العامة وليس العكس. لكنه اذا ظهر تناقض بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة فان الانسان السوى

يختار عادة الانحياز إلى المصلحة العامة وهو موقف يحفظ المجتمعات من اخطار التفجر من الداخل.

وقد اثبتت التجربة الشيوعية التى قامت فلسفتها فى الاتحاد السوفيتى السابق والدول التى كانت تابعة له على فكرة خدمة المجتمع وسحق الذات من اجل الجماعة خطأ نظرية تجرد الفرد من اجل المجتمع. فالواقع اثبت ان الانسان لا يمكن ان يعمل من اجل كيان نظرى أو هلامى لا يلمسه وانه فى حاجة دائما إلى مرجعية محسوسة تتمثل عادة فى شخصه والدائرة الصغيرة المحيطة به.

فهو ينطلق من مصلحته الخاصة اولا. وليس هذا نوع من انواع الانانية أو الأثرة وحب الذات وخيانة المجتمع ولكنه ما يتناسب مع الطبيعة البشرية وفقا لما كشفته التجربة العملية وخاصة خلال النصف الثانى من القرن العشرين.

كذلك فقد اثبتت التجربة ان حب الوطن والانتماء اليه ليست مشاعر مجردة تنمو بالشعارات وتتثبت بالايحاء الذاتى. فمثل هذه المشاعر لاتترسخ الا من خلال تفاعل مستمر بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة. فالمواطن الامريكى مثلا يعشق بلاده ومستعد للتضحية من اجلها ليس فقط لانه تشرب هذه المشاعر فى المدرسة ومن وسائل الاعلام وانما لان الدولة تكفل له حياة كريمة وتحفظ حقوقه وتحترم آدميته وتفتح له مجالات الحياة والاستمتاع بكل يوم فيها وتضمن لاولاده مستقبلا مستقرا بقدر ما يبذلونه من مجهود.

ولو استمع هذا الامريكى ليل نهار إلى شعارات عن حب الوطن ثم وجد وطنه لا يكفل له الحياة الكريمة والاحترام داخل حدوده وخارجها لما امتلأ قلبه حبا لبلاده. ومن الممكن ان نفتح باب المناقشة حول الاحتياجات النفسية والروحية وغياب العلاقات الاسرية والاجتماعية فى العالم الغربى وكلها مشكلات حقيقية لكن هذه قضية اخرى لا تؤثر فى الشعور بالانتماء كالعناصر التى تحدثنا عنها والتى تجعل مواطن الدول الغربية الغنية يرتبط بوطنه ارتباطا وثيقا ولا يبخل بالتضحية من اجله لان هذه التضحية هى تضحية من اجل اسرته ومجتمعه الصغير كما ان المجتمع قد دفع له مقدما مقابل هذه التضحية وثمنها.

وقضية الانتماء صارت من اعقد قضايا نهاية القرن العشرين خاصة بالنسبة لابناء العالم الثالث. فالانتماء فى الماضى كان مرتبطا بالوطنية بل ربما مرادفا

لها. وكان حب الوطن جزءا من الشرف والكرامة الذاتية. وأنتمى لجيل كانت الهجرة فيه ترقى إلى مستوى الخيانة. وكنا عندما نسمع عن مصرى حصل على جنسية اجنبية كان هذا الشخص يسقط من نظرنا ونعتبره خارجا خائنا للامانة.

اما اليوم فقد تغيرت هذه المفاهيم تماما واصبحت الهجرة حلما يداعب خيال غالبية الشباب وصار هناك نحو خمسة ملايين مصرى يعيشون فى الخارج سواء فى هجرة مؤقتة أو دائمة ولا احد يفكر فى وصفهم بالخائنين أو حتى بانهم قصروا فى حق وطنهم بالحياة خارجه. اما من يحصل على جنسية اجنبية وخاصة جنسية احدى الدول الغربية فانه يتباهى بذلك ويخرج جواز سفره الاجنبى بفخر امام اهله واصدقائه وكثيرا ما ينظر اليه باحترام وتقدير.

ولا انسى يوم قام الرئيس الراحل انور السادات بتعيين مصرى يحمل الجنسية الامريكية فى منصب هام فى السبعينيات كم اصبت ومعى الكثيرون بصدمة بسبب ما تربينا عليه من ان من يحصل على جنسية اجنبية يفقد على الفور اى شعور بالانتماء لمصر. وكان ابناء جيلى ينظرون إلى الشعوب التى اعتادت الهجرة بشىء من الريبة وعدم التقدير. وكنا نتندر باهل لبنان الذين اختاروا الهجرة وبرز منهم بعض كبار الشعراء فى المهجر مثل ايليا ابو ماضى. ولم نكن ندرك ان الهجرة ستكون سمة اساسية من سمات الحياة فى نهاية القرن العشرين وانها ستمثل ظاهرة من اهم الظواهر التى تحكم العلاقات بين الشمال والجنوب. فقد اصبح الشمال بفضل الرخاء الذى وصل اليه والمزايا الاجتماعية الضخمة التى يمنحها للمقيمين به دون تمييز وفرص العمل النسبية وهبوط معدلات الانجاب لنسائه منطقة جذب مثالية قادرة على «شفط» جزء من ابناء دول الجنوب. اما الجنوب فقد اصبح يمثل قوة طاردة وخاصة للشباب بسب الفقر ونقص فرص العمل وانسداد آفاق الحياة الكريمة.

وكان من الصعب ان تتطور ظاهرة الهجرة من الجنوب إلى الشمال لولا التغيير الذى طرأ فى مفهوم الانتماء بين ابناء الجنوب فاصبح الانتماء إلى مكان العمل وأكل العيش يغلب على منطق الالتصاق بالوطن تحت كل الظروف. وليس معنى هذا ان من يهاجر ينسى وطنه الأم ويكون ولاؤه للبلد الذى منحه فرصة الكسب والعمل لكن فكرة الاولوية للوطن ورفض مغادرته لاى سبب من الاسباب

هى فكرة قد تعداها الزمن. ومفهوم الانتماء له منذ سنوات طويلة مدلول مختلف فى الدول الغربية. فالانتماء لا يرتبط بمفهوم الوطنية كما كنا نفهمه فى الستينيات وحب الوطن ليس معناه رفض ابناء البلاد الاخرى وليس معناه ان باقى الدول اعداء أو خصوم. فتطور المواصلات والمعلومات والاتصالات جعل هناك تقاربا بين الدول وبين ابناء الشعوب التى كانت فى السابق تنظر إلى بعضها بعين الشك والريبة.

فمن كان يتصور فى الستينات ان يعيش فى اوروبا الغربية وحدها اكثر من عشرين مليون مسلم؟ واذكر اننى فى المرة الاولى التى زرت فيها فرنسا فى صيف عام ١٩٦٦ كنت اقطع شارع الشانزليزية اهم شوارع باريس طولا وعرضا على امل ان اجد مارة يتحدثون العربية فلم اسمع وقتها كلمة عربية واحدة فى هذا الشارع الكبير. اما اليوم فلا يمكنك ان تسير اكثر من عشرة امتار فى نفس هذا الشارع دون ان تلتقط اذنك كلمات عربية.

ولا شك ان هذه التغيرات فى القيم والمفاهيم التى كانت سائدة فى الستينيات تساعد على تهيئة ابناء مصر والعالم العربى لدخول القرن الواحد والعشرين دون تصادم مع واقع العالم الجديد الذى نعيش فيه ومع التطورات التى طرأت على الساحة الدولية ومفاهيم العولمة التى اصبحت تسيطر على العالم. والانتماء للوطن لم يعد متناقضا مع الانتماء لهوية اشمل واوسع بل ان الهوية الاشمل قد تساعد فى دعم وترسيخ الشعور بالانتماء للوطن.

الفصل الثانى

نهاية التفكير

الناس موتى وأهل العلم أحياء

خرج علينا الكاتب الامريكى اليابانى الاصل فرانسيس فوكوياما فى اعقاب حرب الخليج بكتاب يحمل عنوانا غريبا هو: «نهاية التاريخ». وقد لاقى هذا الكتاب رواجا ضخما فى العالم على الرغم من ضحالة الفكرة الاساسية التى يرتكز عليها وهى انه بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى فان العالم يدخل مرحلة يختفى فيها الصراع وتسيطر على مقدرات البشرية النظم الديمقراطية الرأسمالية الليبرالية. ولان التاريخ يقوم على الصراع بين القوى المختلفة والمتناقضة فان تحطيم حائط برلين ونهاية المواجهة الايديولوجية بين الشرق والغرب تعنى فى نظر فوكوياما انتهاء التاريخ.

ولا اريد هنا مناقشة هذا الرأى السطحى الذى يتجاهل معنى التاريخ وتطور البشرية منذ فجر الخليقة الا ان مثل هذا المنطق الغريب يذكر ببعض الذين يحلمون عندنا بالغاء العقل والدخول فى عصر «نهاية التفكير». والغريب ان هؤلاء يتذرعون بالدين لفرض آرائهم وتفسيرهم القاصر للاسلام ويطالبون المؤمنين بعدم تحكيم العقل والاكتفاء بالالتزام بما انزل الله تعالى فى كتابه الكريم وبسنة النبى عليه الصلاة والسلام. وهذه كلمة حق يراد بها باطل. فالالتزام بكلام الله وبسنة الرسول بالنسبة لهم هى فرض رؤية مغرضة للاسلام واستخدام الدين لمآرب واهداف سياسية. وقد نجحوا فى خلق مناخ يحمل البعض على تجميد عقولهم تماما والالتزام الحديدى بما كان يفعله المسلمون فى عهد الرسول الكريم أو فى عهد الخلفاء الراشدين على احسن الفروض. اما ما خرج عن ذلك فهو حرام وبدعة وضلال ومن يسعى إلى الجدل أو المناقشة فهو خارج عن اصول الدين.

ولا احب تكرار ما لاكته الالسن من ان الدين الاسلامى يحض على العلم والمعرفة والابتكار من اجل خدمة الانسان وخير المجتمع. فكثرة ترديد هذا الكلام

يعطى انطباعا بالتشكيك فى هذه الحقائق الثابتة التى لا تقبل الجدل ,كأن ايماننا بها مهزوز. ومع ذلك فلا املك ان امسك نفسى عن ذكر بعض ابيات لعلى بن ابى طالب كرم الله وجهه (نحو٥٩٩-٦٦١) اوردها الامام ابو حامد الغزالى (١٠٥٨ - ١١١١) فى كتابه الشهير «احياء علوم الدين» حيث يقول:

ما الفخـــر الا لأهل العلم انهم   على الهدى لمن استهـدى أدلاء

وقدر كل امـرئ مـا كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلـم أعـداء

ففز بعلـم تعـش حيا به أبدا   الناس موتـى وأهل العلم احياء

والمقصود بكلمة العلم هنا ليس علوم الدين والشريعة فقط كما قد يتبادر إلى ذهن البعض أو كما قد يحاول البعض ان يوهمنا وانما علم المعرفة المفيدة لحياة الانسان على الارض. والمعنى واضح فى الابيات كما ان الدليل على اهتمام الرسول عليه السلام بالعلوم الدنيوية المفيدة للانسان ذلك الحديث الشريف الذى يقول: «اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم» (رواه ابن عبد البر). فهل كان فى الصين فى عصر الرسول الكريم شريعة أو كان احد يعلم بالقرآن بعد هناك ؟

ولا يدرك هؤلاء ان نهاية التفكير وحظر استخدام العقل هى نهاية الانسان ذاته. فما هو الفرق بين الانسان الاول الذى كان يعيش فى الكهوف أو فوق الاشجار ويرتدى جلود الحيوانات بعد تجفيفها وانسان نهاية القرن العشرين الذى يركب السيارة والطائرة ويستخدم التليفون المحمول ويعيش فى ناطحات السحاب ؟ الفرق ليس فى الحياة المادية فحسب ولكنه فارق فى رقى الاحاسيس والتذوق والتفاهم مع اخيه الانسان. والفارق الاساسى ناتج عن تراكم المعرفة من خلال توارثها جيلا بعد جيل. فسلسلة نقل المعارف لم تتوقف فى جيل واحد منذ بدء الخليقة مما اتاح للانسان التفوق على كافة الكائنات والهيمنة على الارض ثم الوصول إلى القمر وتسخير الطبيعة لمصلحته.

ولعل هذا الفرق اى توارث المعرفة هو الفرق الاساسى بين الانسان والحيوان اكثر من المقدرة على الكلام التى يعدها البعض الخط الفاصل بين الانسان والحيوان وتجسدت فى مقولة ان الانسان حيوان ناطق. فالانسان يورث الخبرة

والمعرفة لمن بعده فيبدأ الجيل التالى من حيث انتهى الجيل السابق ويبنى فوق مابناه حتى يرتفع بناء المعرفة والعلم مع كل ما يحمله من تطور مادى ومعنوى.

اما فى عالم الحيوان فان الكل يبدأ من الصفر. فالقط الوليد لايرث أية معرفة من امه ويظل يتعلم طوال حياته ما تعلمه من انجبوه ثم يصل فى نهاية حياته إلى حيث وصلوا من التجربة ثم يأتى من بعده ليبدأ من جديد وهكذا. وقد يكون العجز عن الكلام اوالكتابة هو السر وراء عدم نقل المعرفة عند الحيوانات.

اما عند الانسان فقد كان نقل المعرفة يتم فى العصور الاولى لظهور البشرية على الارض من خلال الكلام حتى تطور ليكون عن طريق الكتابة. وتعبير «ما قبل التاريخ» يطلق علميا على العصور التى لم تعرف فيها الكتابة. فالحد الفاصل بين التاريخ وما قبل التاريخ هو اختراع الكتابة منذ نحو ستة آلاف عام على ايدى المصريين القدماء وان كان العلماء يختلفون على اول حضارة عرفت الكتابة حيث ان بعضهم يؤكد انها الحضارة السومارية.

فالانسان إذن يتميز عن كل الكائنات الحية الاخرى بانه يمتلك اكبر نعمة انعم بها الله سبحانه وتعالى عليه وهى العقل.. ذلك العقل الذى يريد البعض ان يحرمنا من استخدامه. وقد عبر احد الفلاسفة عن توارث المعرفة ودورها الذى لاغنى عنه فى تطور الفكر البشرى بأسلوب بليغ عندما قال ان الفيلسوف الاول نظر امامه وحاول ان يتوصل إلى الحقيقة ثم جاء فيلسوف آخر بعده فوقف على اكتاف الاول فرأى ابعد منه ثم جاء ثالث ووقف على كتف الثانى فرأى ابعد منه وهكذا ويقول انه يرى بعيدا لانه يقف على اكتاف كل الفلاسفة الذين جاءوا من قبله.

ويخطىء من يتصور ان العقل هو نقيض الايمان وان العلم نفى لوجود الله. أليس مؤسس نظرية العقلانية فى الغرب والمرجع الاساسى لكل من يؤمن بضرورة استخدام العقل هو الفيلسوف رينيه ديكارت الذى عاش ما بين ١٥٩٦ و١٦٥٠ ؟ ان ديكارت هذا كان حسبما يتضح من كتاباته من اشد المؤمنين. وقد أعدت مؤخرا قراءة كتابه الشهير «حديث المنهج» (وقد ترجمه البعض بمقال فى المنهجية) الذى وضع فيه اسس نظريته الفلسفية انطلاقا من مقولته التى يعرفها الجميع: «انا أفكر إذن انا موجود».

واعترف اننى خلال قراءتى الاولى لهذا الكتاب منذ سنوات طويلة لم التفت إلى المكانة التى يعطيها ديكارت للايمان بالله. فلا تكاد صفحة واحدة من هذا الكتاب تخلو من كلمة الله أو الرب حيث كان ديكارت مسيحيا. والفرضية الاولى لنظرية ديكارت العقلانية تقوم على وجود الله. وهو يقول فى الفصل الثالث من كتابه انه اهتدى طوال حياته ببعض المبادىء اولها: «الانصياع لقوانين وعادات بلادى والالتزام منذ طفولتى بالدين الذى وهبنى الله حظ تعلمه منذ طفولتى».

والثابت ان الانسان يحتاج بالفطرة إلى الايمان ويتطلع تلقائيا إلى خالق الكون للخشوع والتعبد وان هذا حال البشر منذ بدء الخليقة حتى الآن. وتحضرنى لتأكيد هذا المعنى رواية قرأتها فى نهاية الخمسينات لكاتب فرنسى لا يعتبر من اهم الكتاب ولكنه معروف على الصعيد الفرنسى ويدعى فيركور وهو اسم مستعار استوحاه من منطقة جبلية كانت من معاقل المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى فى بداية الاربعينيات. ويروى الكتاب الذى صدر فى بداية الخمسينات قصة مقاول فرنسى اشترى قطعة ارض كبيرة بعيدة عن المدينة ليقيم عليها مشروعا.

وكانت المشكلة التى تواجهه هى ارتفاع تكلفة العمالة اللازمة لبناء المشروع. وقد فوجىء الرجل بوجود مخلوقات تشبه القردة تعيش فى الارض التى اشتراها. وازدادت المفاجأة عندما ادرك بالتجربة من خلال مساعديه ان هذه المخلوقات قادرة على العمل اليدوى البدائى وانها مطيعة تماما للانسان.

ولم يتردد المقاول فى تسخير هذه المخلوقات للعمل فى مشروعه على ان يكتفى بتوفير الطعام والشراب اللازم لها. وبعد ان انجز الرجل جزءا من المشروع استدعته المحكمة لتعلنه بدعوى رفعها بعض سكان المنطقة المجاورة لمشروعه واتهموه فيها بممارسة السخرة واستغلال عمال دون دفع اجر مقابل عملهم. وتحتل المحاكمة الجزء الاساسى من الكتاب حيث تدور مساجلات فى غاية التشويق بين محاميى الطرفين.

وتقوم مرافعات محاميى المقاول على اثبات ان هذه المخلوقات ليست مخلوقات آدمية وانما تنتمى إلى عالم الحيوان وبالتالى فانه يحق استخدامها دون مقابل مالى. فهل يعطى صاحب السيرك مثلاً اجرا للفيل والاسد مقابل ما يقدموه

من عروض يتربح منها بفضل هذه الحيوانات؟ اما محامو الطرف الثانى فيسوقون الادلة على ان هذه المخلوقات تنتمى إلى جنس الانسان وان كانت غير قادرة على الكلام بصورة مفهومة ويؤكدون ان بعض القبائل البشرية تتحدث باصوات لايمكن ان يفهمها اى عالم لغة. ويرتفع النقاش إلى درجة عالية من الرقى للتوصل إلى الخيط الرفيع الفاصل بين الانسان والحيوان هل هو الكلام ام استخدام الآلة ام شىء آخر.

وفى احد الايام يأتى احد محامى الشاكين بدليل دامغ تنتهى به المحاكمة والكتاب. فقد لاحظ ان هذه المخلوقات تجتمع بعد العمل وتلتف حول بعض البخور التى يحرقونها ويصدرون اصواتا اشبه بالابتهالات والدعاء وينظرون إلى اعلى بشىء من الرهبة والخشوع. واستخلص المحامى من ذلك ان هذه المخلوقات تؤمن بقوة عليا وبإله قادر على العقاب و الثواب وهم يطلبون رحمته بالبخور والابتهال باصدار اصوات غير مفهومة. وخلص المحامى من ذلك بان الانسان وحده هو القادر على ادراك ان هناك قوة اكبر منه فى الكون اما الحيوان فيقتصر شعوره على العالم الحسى والملموس الذى يحيط به ويعجز عن تصور ما وراء ما يشاهده ويلمسه. ولان هذا هو الفرق الجوهرى بين الانسان والحيوان فان هذه المخلوقات تنتمى إلى الجنس البشرى وبالتالى فانه لا يجوز استخدامها فى العمل دون تقديم الاجر المناسب لها. وتنتهى الرواية باقتناع المحكمة بهذه الحجة الدامغة التى تفرق بين الانسان والحيوان باسلوب متميز وتحكم على صاحب العمل بضرورة اعطاء اجر لهذه المخلوقات مقابل عملها.

وقد كتب احد عمالقة الفكر والادب فى القرن العشرين هو الفرنسى اندريه مالرو (١٩٠١ - ١٩٧٦) ان القرن الحادى والعشرين سيكون روحيا أو لن يكون. ومن الواضح ان مالرو كان يتوقع بهذه الكلمات وقوع رد فعل للمادية التى تسيطر على عالمنا اليوم والذى اصبح منكبا تماما على الماديات وينبذ الروحانيات بصورة مقلقة للغاية توحى بانه لا يمكن استمرار الوضع على ما هو عليه طويلا وانه ستكون هناك عودة إلى الروحانيات خلال الحقبة المقبلة وهو ما يوحى اليه مالرو بجملته الشهيرة.

لكن عودة الروحانيات لا تعنى على الاطلاق الانسياق وراء الخرافات والخزعبلات والغاء العقل ونهاية التفكير.

ومع ذلك فهى تدور

من المفيد ان نتعرف على بعض ما كتبه فيلسوف العقل ديكارت لنتبين مفهومه المتعمق للايمان اذ يقول فى نفس كتابه «حديث المنهج» : «نظرا لان الله قد وهب كل واحد منا بعض الضوء ليتبين الحقيقة من الضلالة فلا اعتقد انه علىّ ان اكتفى بآراء غيرى لحظة واحدة اذا لم اعمل على استخدام عقلى لبحثها والتأكد من صحتها».

فديكارت لا يأخذ كل ما يقال من آراء يطلقها غيره على انها مسلمات منقولة عن السلف الصالح بل يسعى بعقله إلى ان يحلل ويدرس ويفكر حتى يهتدى إلى الحقيقة. فهو ليس على استعداد لان يوكل إلى غيره حق التفكير نيابة عنه ويكون هو مجرد متلق للحقائق المفروضة عليه. وللاسف فان الانسان فى العالم العربى وفى العالم الثالث بصفة عامة قد اعتاد على تسليم ارادته للغير وعادة لرئيسه أو لمن يؤمن بأنه اعقل منه واقدر منه على فهم الحقيقة. وكثيرا ما يكتفى الانسان فى العالم العربى بدور المتفرج أو المنفذ السلبى لارادة الغير وكثيرا ما يكون غير مستعد ان يتحمل مصيره أو مصير اسرته بنفسه ويعتقد دائما ان هناك شخصا آخر اكثر قدرة منه على ذلك.

فمفهوم المسئولية لا زال مفهوما قاصرا لدى غالبية ابناء الشعوب العربية ويتضح ذلك فى وسائل التربية التى تجعل الطفل دائما يعتمد على غيره ويلجأ إلى الحفظ والنقل بدلا من محاولة التفكير والابداع وتشغيل العقل. فالمدرس فى الفصل هو صوت الحقيقة المطلقة وعلى التلميذ ان يستوعب ما يقوله ويعتبره مسلمات لا تقبل الجدل ولا حتى التفكير فى احتمالات الخطأ والصواب أو الحذف والاضافة.

وهذه التربية التى تمتد فى المنزل بنفس المنطق والاسلوب تجعل الطفل ينشأ على تقبل كل ما يقال له ممن يعتبرهم اهل العلم والمعرفة دون محاولة التفكير والتحليل ناهيك عن محاولة النقد أو التفنيد. وهذه التربية تسهم فى ان ينشأ رجال ونساء مسلوبى العقل والارداة . فهناك دائما ارادة خارجية هى التى تقرر للانسان وتوجهه وتحدد مصيره ومسار حياته وحياة اسرته.

وكم من المآسى وقعت لابناء وبنات الاسر المصرية بسبب رفض اولياء الامور اتخاذ قرارات بانفسهم واصرارهم على استشارة بعض من يرون انهم اصلح منهم على القرار السليم فافتى هؤلاء دون معرفة بالموضوع وبملابساته مما ادى إلى قرارات خاطئة واوضاع محزنة. وكم من الآباء وقعوا تحت تأثير ارادة خارجية لتحديد حياة بناتهم وامور زواجهن أو غير ذلك فكانت الآراء التى افتى بها بعض المدعين على الدين سببا فى شقاء حياة الفتيات وتحويلها إلى جحيم دون أية مبررات أو سند من العقل أو الدين الصحيح.

وفكرة رفض استخدام العقل قديمة قدم التاريخ حيث كان الكهنة فى الدولة المصرية القديمة هم حماة الدين والمعرفة والاخلاق بالصورة التى يفرضونها ولايحق لاحد مناقشتها. وكان من يجترىء على مخالفة الكهنة وما يفرضونه من حقائق مطلقة مصيره الموت لانه يفتح الباب لغيره كى يفكر ويبحث ويكتشف وبالتالى يختلف مع كهنة فرعون.

وظل هذا المفهوم سائدا فى غالبية دول العالم ومسيطرا على العلاقة بين الحاكم والمحكوم باستثناء العصور التى ازدهرت فيها الحضارات الكبيرة فسمحت بالفكر واعمال العقل كما كان الحال فى العصور الزاهية للدولة الاسلامية. وقد نجحت الحضارة الاوروبية فى القرون الاخيرة فى ايجاد صيغة ملائمة لازدهار الفكر والفن والمعرفة من خلال حق الانسان فى التعبير عن نفسه ومن خلال حرية الرأى وحرية الكلمة.

وفى القرن العشرين عاشت الانسانية تجربتين هامتين مع الاختلاف الكبير بينهما من حيث الهدف والمضمون وهما النازية والشيوعية. ومن غير الجائز مقارنة الشيوعية بالنازية لان الاولى تستهدف المساواة بين ابناء الانسانية وان كانت قد فشلت فى ذلك اما النازية فهى مؤسسة على عدم المساواة بين الناس.

لكن كلتا التجربتين تشتركان فى محاولة فرض القيم والمبادىء والمثل واسلوب الحياة على الانسان دون ترك حرية الاختيار لاى فرد من افراد المجتمع. وكان الشعار الذى يردده يوميا ابناء المدارس الابتدائية فى ايطاليا الفاشية هو: «الطاعة والايمان والكفاح».

وتحتل الطاعة المقام الاول قبل الايمان لان الطاعة العمياء هى الاساس الذى تقوم عليه النظرية الفاشية مثلها مثل نظيرتها النازية. حتى الشيوعية التى من المفترض انها كانت تسعى إلى سعادة الانسان وتقوم على اهداف اخلاقية نبيلة حيث ترفض ظلم الانسان لاخيه الانسان كانت تسعى إلى هذه الغاية المحمودة عن طريق الفرض والاجبار. وكان ذلك من الاسباب الرئيسية التى ادت إلى فشل التجربة الشيوعية فى العالم كله.

ومن يحاول ان يستخدم عقله ويجرؤ على مناقشة الاوامر يعتبر بالنسبة لاصحاب هذه النظريات خارجا على المجتمع وخطرا جسيما على النظام. وتلخص مقولة شهيرة تنسب إلى جورنج الذى كان الرجل الثانى فى النظام النازى بعد زعيمه الشهير هتلر فكرة الخوف من التفكير والنفور من استخدام العقل. فيقال ان جورنج كان يردد: «عندما اسمع كلمة ثقافة اخرج مسدسى».

وينسب البعض هذه الكلمة إلى جوبلز وزير الدعاية الشهير الذى اشرف فى اكبر ميادين برلين على احراق الكتب التى كان يعتبرها تتعارض مع الفكر النازى. والبعض ينسب نفس الجملة إلى زعماء آخرين فى المانيا النازية. لكن ايا كان قائلها فانها تعبر عن وجهة نظر واضحة تنبذ التفكير والابداع على اساس انهما آفة مدمرة تتعارض مع النظام المفروض على كافة افراد المجتمع بالقوة الجبرية.

وفى كل العصور وفى كافة الحضارات وجد من يحاول تجريم استخدام العقل ومن يعتبر أن كل خروج عن الموروث جريمة تستحق اشد العقوبة. وكان اعداء العلم والمعرفة دائما بالمرصاد لكل جديد. ولعل الاسطورة اليونانية القديمة قد تنبهت إلى هذه الحقيقة الثابتة فى تاريخ الانسان. فعندما سرق بروميثيوس النار من فوق جبل الاوليمب الذى تسكنه الآلهة وفقا للاساطير اليونانية القدمية واعطى سر النار للانسان عاقبته الآلهة بان ربط فى شجرة وترك للنسور والطيور البرية تأكل كبده واحشاءه. وكانت جريمته الوحيدة هى نقل المعرفة للانسان.

وقد انتشر اضطهاد العلماء فى العصور الوسطى فى كل مكان باوروبا واشتد الصراع بين قوى الاظلام وقوى العلم والتطور. وراح ضحية محاكم التفتيش والاجواء المحمومة التى صاحبتها عشرات الآلاف من الابرياء اعدموا حرقا أو شنقا أو بوسائل فى غاية الوحشية لمجرد انهم حاولوا استخدام عقولهم ورفضوا منطق نهاية التفكير على الطريقة الاوروبية.

لكن وحشية اصحاب الفكر المتحجر لم تنجح فى وقف افكار النهضة الاوروبية التى اكتسحت القارة ووضعت حدا لسطوة رجال الكنيسة ومؤيديها من اصحاب السلطة الذين كانوا يستفيدون من منطق نهاية التفكير ويجدون فيه افضل حماية لعروشهم وسلطانهم. وكان اعدام العالم الايطالى جوردانو برونو حرقا من احلك فصول هذا الصراع بين قوى الظلام وقوى التحرر الفكرى التى صنعت النهضة الاوروبية.

واشهر من تعرض للاضطهاد بسبب المعرفة كان العالم الايطالى العظيم جاليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) الذى اتهمته الكنيسة الكاثوليكية بالهرتقة لانه قال بدوران الارض حول الشمس واكد نظرية كوبرنيك بان الشمس هى مركز الكون المعروف آنذاك.

وكانت نظرية الكنيسة تقوم فى ذلك الوقت على مركزية الارض للكون وان الشمس وكافة الكواكب والنجوم هى التى تدور حولها. ولان الكنيسة افتت بذلك فليس من حق انسان على وجه الارض ان يبحث فى هذا الامر حتى وان كان من العلماء وحتى وان وجد الادلة والبراهين العلمية التى تؤكد عكس ذلك. فرأى الكنيسة هو الحق وما خالفه هو الباطل. وقد اضطر جاليليو ان ينكر نظريته علانية فى عام ١٦٣٣ اتقاء للموت المحتم لو اصر على وجهة نظره واجبر الرجل على استجداء الغفران من المحكمة الكنسية بطريقة مسرحية وكأنه تلميذ بالمدرسة يعاقبه الاستاذ كما ورد بكتب التاريخ.

وامرت الكنيسة باحراق كل نسخ كتابه: «حوار حول اهم نظامين فى العالم» الذى عرض فيه نظرياته حول الكون. لكنه بعد ان نفى بأعلى صوته امام قضاة الكنيسة ان الارض تدور حول الشمس خرج حسب الرواية الشائعة يهز رأسه قائلا: «ومع ذلك فهى تدور». وكأنه يقول لقضاته: يمكنكم ان ترهبونى وان

تجعلونى اقول كل ما تشاءون خوفا من الموت لكن هيلمانكم وتسلطكم واى كلام يمكن ان اقوله لن يغيروا من الحقيقة شيئا.. فالارض ستظل تدور حول الشمس مهما اصدرتم من فرامانات ومنعتم الناس من التفكير. وكما قال احد كبار فلاسفة القرن العشرين فان الحقائق عنيدة اى انه مهما حاول الانسان طمسها وتشويهها فانه قد يستطيع ذلك لفترة قد تطول أو تقصر لكنها تعود للظهور مرة جديدة ويضطر الجميع إلى الاعتراف بصحتها.

الماضى بيننا وبينهم

من يتأمل تاريخ العالم العربى الاسلامى يتضح له ان انصار نهاية التفكير كانوا دائما متواجدين على الساحة لمحاولة فرض مفهوم جامد ومتشدد للدين وكانوا دائما فى صراع مع انصار التجديد والتطور. لكنهم كانوا فى حالة كمون عندما كانت الامة العربية الاسلامية فى حالة ازدهار وانتعاش وكانوا فى موقف القوة والسيطرة عند عصور الانحطاط.

والمفارقة التى لا بد من التركيز عليها هى ان اضطهاد كل فكر جديد وملاحقة اهل العلم والمعرفة لم يكونا فى يوم من الايام تقليدا عربيا أو اسلاميا على الاقل خلال فترة ازدهار الدولة العربية الاسلامية. بل استطيع ان اقول ان العكس هو الصحيح وان غالبية الخلفاء شجعوا العلماء ولم يبخلوا على اهل الفكر والادب. ومن يطالع كتاب الاغانى لابى فرج الاصفهانى يتضح له كيف كان الخلفاء والحكام يعاملون الشعراء واهل الفكر ويقدمونهم على بعض الوزراء واهل الجاه. وقصة المتنبى مع كافور مثلا وكيف بذل له حاكم مصر الهدايا والمح له فيما يبدو بامكانية تعيينه فى منصب هام تدل على نظرة اهل الحكم إلى الشعراء والمبدعين وكيف كانوا يضعونهم فى منزلة عالية.

وتروى لنا كتب التراث ان يوم وفاة الشاعر الكبير العباس بن الاحنف كان يوم وفاة المطرب والموسيقى ابراهيم الموصلى والنحوى الكسائى وهشيمة بن الخمارة. وقد امر الخليفة العباسى هارون الرشيد(٧٦٤ ـ ٨٠٩) ابنه المأمون (٧٨٦ ـ ٨٣٣) ان يصلى عليهم. وأمر المأمون بتقديم العباس بن الاحنف على كل الآخرين ليصلى عليه اولا. ولما سئل عن سبب ذلك انشد قائلا:

وسـعى بهـا الناس فقـالوا انهـا
لـهى التـى تشـقى بهـا وتكابد
فـجـحـدتهم ليكون غـيـرك ظنهم
انى لـيـعـجـبنى المحب الجـاحـد

ثم قال المأمون: أليس من قال هذا الشعر اولى بالتقدمة؟

ولا ننسى ان المأمون هذا هو الذى انشأ بيت الحكمة وكان انعكاسا لاهتمامه الشخصى واهتمام العصر بالعلم والمعرفة فى اسمى صورهما. واذا كان بعض اهل الفكر قد لاقوا اضطهادا فقد كان ذلك يرجع عادة لخلفيات سياسية تتعلق بالصراع على الحكم اكثر مما تتعلق بالفكر أو بالدين.

حتى الحلاج (٨٥٨ - ٩٢٢) أشهر من لاقى الاضطهاد فى تاريخ الدولة الاسلامية وعاش محنة كانت مصدرا لوحى العديد من الادباء ومادة خصبة للباحثين العرب والاجانب فقد كانت وراء اعدامه اسباب سياسية كما يثبت من كتاب الراحل الكبير احمد امين «ظهر الاسلام» (الجزء الثانى).

ويقول احمد امين بعد وصف الاسلوب الوحشى لمقتل الحلاج بضربه بالسياط ثم قطع يديه ورجليه وضرب رأسه وحرق جثته: «ويظهر ان اكبر تهمة وجهت اليه وسببت قتله هى تهمة القرمطية فقد ثبت من انه كان وكيلا للامام وغير ذلك انه قرمطى. والقرمطية قوم كانوا من شيعة اهل البيت يريدون ان ينحوا الخلفاء العباسيين ومن اليهم ويوسعوا دائرة خلافة اهل البيت».

ثم يشرح بعد ذلك افكار القرامطة فيقول: «ان مذهبهم الاقتصادى اشتراكية متطرفة بل شيوعية». ويخلص الراحل الكبير بالنتيجة التالية: «فنعتقد ان هذا هو سر قتله لا غير ذلك. فدعوة كهذه تقض مضجع خلفاء بنى العباس ووزرائهم. فلا يبعد ان يكون الخليفة العباسى ووزيره حامد قد رتبا هذه المؤامرة ضده وزورا الشهود واستحثا القضاة على قتله والا فما بالهم قد تركوا الصوفية الآخرين كالجنيد وابى يزيد البسطامى وذى النون المصرى من غير قتل. فهى مسألة سياسية بحتة اتخذت شكلا دينيا لعلمهم ان الدين أفعل فى الشعوب من السياسة».

كذلك كتب المستشرق الفرنسى الكبير ماسينيون كتابا عن الحلاج اوضح فيه الاسباب السياسية وراء مقتله.

وهناك مئات ان لم يكن آلاف الامثلة على الباس القرارات السياسية ثوب الدين لعل من اشهرها فى تاريخ اوروبا والعالم ما حدث للفتاة الريفية الفرنسية جان دارك (١٤١٢ - ١٤٣١) التى تعد فى نظر الفرنسيين اهم امرأة فى تاريخهم على الاطلاق. وقد نشأت هذه الفتاة فى القرن الخامس عشر الميلادى عندما كانت فرنسا تعانى من احتلال جزء كبير من اراضيها على يد الانجليز فى اطار ما عرف باسم حرب المائة عام. وادعت جان دارك انها سمعت اصواتا تناديها من السماء وتوكل اليها مهمة تحرير فرنسا من ربقة الاحتلال الانجليزى.

وعندما افضت بذلك إلى من حولها اتهموها بالجنون وكانت مثار سخرية الجميع. فكيف تنجح فلاحة ساذجة لا حول لها ولا قوة فيما عجز عنه اشد فرسان فرنسا بأسا وأهم قادة جيشها الكبير؟ لكن الفتاة استطاعت بعزم وصلابة ان تصل إلى ولى عهد فرنسا الذى لم يكن قد اصبح ملكا بصفة رسمية بعد نظرا لاحتلال الانجليز لمدينة رينس التى كان يتوج فيها ملوك فرنسا.

وقادت الفتاة الريفية جيوش فرنسا التى كانت قد اعتادت الهزيمة امام الانجليز ونجحت فى حث الهمم واشعال الحماسة فى قلوب الجنود حتى انتصر الفرنسيون على الانجليز ودخلوا مدينة رينس وتم تتويج الملك بعد ان ظلت فرنسا لعدة سنوات بغير حاكم رسمى.

وتوالت الانتصارات بعد الهزائم بفضل عدوى الحماسة والايمان التى انتقلت إلى الجنود والقادة من خلال جان دارك التى كانت تؤكد دائما ان الرب هو الذى يلهمها ويوحى لها بكل ما تقوم به.

وعندما وقعت جان دارك فى قبضة احد الامراء المنشقين على ملك فرنسا لم يسترح الانجليز برغم تأكدهم من ان هذا الامير لن يتركها تحاربهم فكان لا بد ان تكون جان دارك عبرة لغيرها من الفرنسيين الذين وقفوا فى وجههم. وقد هرع مراسيل الانجليز إلى الامير المعادى لملك فرنسا و«اشتروا» منه جان دارك بثمن ضخم اختلف عليه المؤرخون.

وعندما قدموها للمحاكمة لم يوجهوا اليها تهمة سياسية أو تهمة التآمر على انجلترا أو قتل جنودهم لكنهم وجهوا لها تهمة دينية فاصدروا قرار اتهام يدينها بالسحر والشعوذة والخروج عن طريق الكنيسة القويم و احرقوها فى ٣٠ مايو ١٤٣١ .

وقد رفضت الفتاة بشجاعة حسب كتب التاريخ ان تقبل التراجع عن موقفها وان الرب امرها بمحاربتهم فاحرقت رسميا بتهمة السحر والشعوذة وليس بتهمة محاربة الانجليز ورفض احتلال بلادها وهو بالطبع السبب الحقيقى لاعدامها والتخلص منها. ولو انها كانت مجرد مشعوذة أو ساحرة عادية لعاشت حياة طويلة دون ان تستثير عداء الانجليز كما عاش آلاف المشعوذين والدجالين فى القرون الوسطى الاوروبية.

لكنه اذا عقدنا مقارنة بين نظرة حكام العالم الاسلامى فى عصور الازدهار ونظرة الاوروبيين خلال العصور الوسطى يتضح لنا الفارق الجوهرى بين النظرتين. فالعلم بالنسبة لحكام العالم الاسلامى كان وسيلة للتقدم والازدهار وأداة لبسط قوة الدولة ودعم مركزها فى العالم ووسيلة لفهم الظواهر الطبيعية واستئناس الطبيعة المتمردة وكذلك وسيلة للاستمتاع بالحياة. اما بالنسبة لحكام اوروبا فقد كان العلم خطرا داهما يهدد سلطانهم وكانوا يعدونه مكروها لا داعى لتنميته وتشجيعه.

وقد بدأت الآية تنعكس بدءا من القرن الخامس عشر الميلادى مع عصر النهضة الاوروبية الذى شهد محاولة جماعية لفهم حقائق الحياة والتخلص من اسار الفكر المفروض الذى لا يقبل الجدل والنقاش فظهر الشعراء والكتاب والعلماء الذين قلبوا موازين الحياة فى اوروبا وفى العالم وفتحوا الباب للتطور المذهل الذى وصلت اليه الانسانية اليوم ولا زالت قادرة على المزيد.

وبالتوازى مع ذلك العصر سيطر على العالم الاسلامى المنطق العثمانى الصارم عندما امتد نفوذ الدولة العثمانية إلى اغلبية الاقطار الاسلامية وإلى كافة الدول العربية باستثناء المغرب وبعض اجزاء من جنوب وشرق الجزيرة العربية. ولاسباب متعددة لا تخضع بالضرورة للمنطق التقليدى تراجعت الحضارة العربية الاسلامية المضيئة واختطفت اوروبا شعلة التقدم.

لكن المؤكد ان اوروبا لم تضع اقدامها على طريق التقدم الا عندما نفضت عن كاهلها قوى نهاية التفكير التى سيطرت عليها فى ماضيها والتى كانت تجرم اى فكر جديد يجارى تطور الحياة. ويتفق كل المؤرخين الاوروبيين على ان الكنيسة الكاثوليكية كانت خلال العصور الوسطى مركز القوى المحافظة وظلت لحقبة طويلة تسيطر على مقدرات اوروبا وتفرض على شعوبها منطق نهاية التفكير.

وعلى الرغم من ان الاسلام ليس به كنيسة ويرفض اساسا فكرة الوسيط بين الرب وعباده الا ان البعض يريد اليوم ان ينصب نفسه وصيا على كافة المسلمين وعلى عقولهم ويريد فرض منطق نهاية التفكير وان يساق الشعب باسم الدين لتحقيق اغراض حفنة من الذين يحلمون بالسلطة ويتسترون بعباءة الاسلام للاستيلاء عليها.

ومن يراجع التاريخ ويعقد مقارنة سريعة بيننا وبينهم امس واليوم يتضح له ان المجتمعات الغربية نجحت فى ان تتخطى الجوانب السلبية لماضيها وان تستثمر الافكار والاتجاهات المضيئة به. اما نحن فلا زلنا اسرى لماضينا بل اسرى للاتجاهات المتشددة والمتطرفة التى سممت تاريخ الدولة الاسلامية وسعت دائما إلى الغاء العقل ومقاومة كل فكر مجدد.

فريضة التفكير

إذا كانت النظرة الموضوعية إلى تطور حياة الانسان والمجتمعات تملى علينا حقيقة تؤكدها كل الشواهد وهى ان الحياة عبارة عن مجهود متواصل من اجل المعرفة والبحث والتفكير فان البعض يريد ان يقنعنا اليوم بانه علينا ان نلغى عقولنا ونكف عن التفكير ونكتفى بتقليد السلف الصالح. فلو تأملنا قليلا تطور تاريخ البشرية ونظرنا إلى الجهود التى بذلها العلماء على مر العصور لادركنا ان الله سبحانه وتعالى يحض الانسان على التفكير وان التفكير فريضة ضمنية تستخلص من الرسالة المحمدية.

وقد بذل العلماء حياتهم وضحوا بعمرهم منذ فجر التاريخ من اجل التوصل إلى اكتشاف أو اختراع يفيد البشرية ويخفف من آلام الانسان. فقد كان العلماء يقضون شهورا وسنوات لفهم وتحليل ظواهر الحياة ومحاولة فك رموز الامراض من خلال الكيمياء أو علم الاحياء أو غيرها من العلوم. وكانوا يرصدون الظاهرة ثم يلتفون من حولها ويحاولون ايجاد العلاج لها بشتى الطرق دون كلل أو ملل حتى يتوصلوا إلى دواء أو مصل للامراض. كذلك بذلوا الجهود من اجل رصد وفهم الظواهر الطبيعية بهدف تسخيرها لخدمة الانسان.

ولو ان الله سبحانه وتعالى اراد ان يخلق الانسان عالما بحقائق الحياة المادية وكيف يشفى الامراض وكيف يزرع الارض وكيف يصنع ما يفيده وينتج لنفسه مايأكل ويشرب ويتنقل ويعيش لكان ذلك هينا على خالق السموات والارض. ولو ان الله اراد ان يكفى الانسان هم الجهد والعرق والتفكير لخلق الوجود وبه كل وسائل الراحة للانسان. لكن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان جاهلا بحقائق الحياة المادية وبالتالى كان على بنى آدم ان يراقبوا ما حولهم ويحاولوا ان يفهموا الكون ليستطيعوا ان يعيشوا ويواجهوا ظروف حياتهم الصعبة.

فالانسان الاول راقب الشمس والارض وتعاقب الفصول وادرك انه اذا زرع الغرس بطريقة معينة وفي وقت محسوب فانه يطرح في وقت معين. ثم تطورت المعارف حتى توصل الانسان إلى الاكتشافات المذهلة التى نراها اليوم والتى لاتمثل شيئا بالنسبة لقدرات الانسان وما سيصل اليه من اختراعات خلال الاجيال القادمة.

وهناك آيات حركت خيالي منذ زمن طويل وفهمتها منذ البداية على نفس الوجه الذى افهمه الآن وهو ان القرآن يحض على التفكير ولا يحبذ ان يقبل الانسان كل ما يقال له على انه حقائق مسلم بها حتى لو كان القائل هو شخص اكبر منه سنا واوسع منه تجربة. الآيات تشرح لنا كيف رفض ابراهيم ان يتخذ اهله اصناما يعبدونها ويعتبرونها آلهة فيقول تعالى عن ابراهيم عليه السلام:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

إذن فان الله يحض الانسان على التفكير والاجتهاد حتى يفهم ما يحيط به بعقله ويعيش سعيدا على الارض.

ومن يتفكر قليلا يتضح له ان التفكير هو فريضة منزلة من عند الله سبحانه وتعالى دون ان تكون مذكورة فى القرآن والسنة على هذا النحو. لكنها رسالة معظمة من الله إلى الانسان من بين الرسائل السامية التى تضمنها كتاب الله وسنة رسوله الكريم. وكأن الله تعالى يقول للانسان: لو كنت اريد لجعلت كل شيء ميسرا بين يديك وجعلتك لا تحتاج إلى الجهد والتفكير والعرق والكفاح. لكنى لم افعل لانه كتب عليك ان تفكر وتجتهد وتعمل عقلك حتى تصل إلى جزء صغير من حقائق الكون. وبقدر ما تجتهد وتقدح زناد فكرك بقدر ما ترتاح فى الحياة وتتوفر لديك وسائل العيش الكريم وسبل الاستمتاع بالدنيا وبقدر ما تبذل الجهد وتستخدم عقلك بقدر ما تتفتح امامك حقائق الحياة واسرار الكون.

فى اعتقادى ان هذا الرمز هو الذى اراد الله سبحانه ان يدركه الانسان حتى يرتقى ويكون جديرا بشكر الله وعبادته. ولعل هذا المعنى موجود بصورة مبطنة

فى عديد من الآيات والأحاديث. واقرب حديث شريف يحضرنى حول هذا المعنى هو قصة الرجل الذى كان يراه الرسول جالسا يتعبد كلما دخل المسجد فتساءل الرسول الكريم عن مصدر رزق هذا الرجل وكيف يعيش ان كان يقضى كل وقته بالمسجد ويكرس كل جهوده للعبادة. وعندما سأل: من يعوله ؟ وقيل له: اخوه قال صلى الله عليه وسلم: اخوه افضل منه.

فالله سبحانه وتعالى خلق الانسان ليبذل الجهد ويطلق العنان لتفكيره ليفهم الدنيا وحقائق الحياة بقدر معين. لكن ما ادرانا ما هذا القدر. فهل كان الانسان الاول الذى كان منتهى مناه ان ينجح فى صيد الحيوانات ليأكل ويحتمى بفروها من برد الشتاء يتخيل ما وصل اليه انسان اليوم من تقدم علمى ومادى وتكنولوجى يجعله يطير فى السماء ويستحضر الغائبين من خلال الصور أو النقل التليفزيونى المباشر ويتحدث مع اقرانه الذين يبعدون عنه بآلاف الكيلومترات. فتقدم العلم إذن وان كانت له حدود الا انه لا يوجد انسان على وجه الارض يستطيع ان يعلم هذه الحدود التى لن نتوصل اليها الا بالممارسة.

بل ان ما كان يبدو خيالا فى الماضى اصبح حقيقة واقعة فى عالم اليوم وربما ما نعتبره اليوم خيالا نضحك عندما نراه فى افلام السينما سيصبح فى يوم من الايام واقعا يعيشه احفادنا. فروايات الاساطير التى كانت تتناقلها الاجيال ولازالت كانت تحكى عن بساط الريح الذى يطير بالانسان فى السماء ويطوى الارض والجبال والبحار وهو تماما ما تفعله الطائرة اليوم. كما كانت الاساطير تتحدث عن اتصالات بين اثنين تفصلهما آلاف الاميال وهو ما يحدث الآن ملايين المرات فى كل اليوم حيث يربط التليفون بين الناس فى كل مكان.

ولا اود هنا ان اسوق الادلة القرآنية على حث الدين الاسلامى على التفكير لان الراحل الكبير عباس محمود العقاد قد خصص لذلك كتابا اسماه : «التفكير فريضة اسلامية» حاول فيه ان يثبت بالآيات القرآنية والسنة النبوية ان الاسلام يفرض على بنى آدم ان يستخدم عقله وان يتفكر فى حياته اليومية ومن المؤكد اننى لن انجح فى ان اضيف إلى ما كتبه الاستاذ الكبير فى هذا الموضوع.

لكن انصار نهاية التفكير يرون انه بنزول الوحى واتمام الرسالة على سيدنا محمد فان حلقة المعرفة قد اكتملت ويؤكدون ان من يقرأ القرآن الكريم ويحفظه لم

يعد فى حاجة إلى اى كتاب آخر من الكتب التى يكتبها الانسان لان كل شيء موجود بالقرآن الكريم.

فالمعرفة بالنسبة لانصار نهاية التفكير ما هى الا حلقة مغلقة بدأت ببداية الدعوة وانتهت بنهايتها أو فى افضل الاحوال بآخر الخلفاء الراشدين.

وفى رأيى المتواضع فان ذلك يتعارض مع جوهر الدين الاسلامى حيث لايوجد بكتاب الله ما يوحى بهذه الفكرة الشاذة بل يوجد على العكس ما يحض على التفكير والجهد كما ان تعاليم الرسول الكريم تؤكد ان التفكير جزء من الحياة بل انه ضرورة من ضروراتها الملحة. والرسالة المحمدية نفسها جاءت متممة للرسالات السابقة عليها اى انها لم تبدأ من فراغ ولا يمكن ان نعتبر ان التفكير قد انتهى بموت آخر الخلفاء الراشدين ولا يمكن ان يقبل أى عاقل ان مهمة الانسان فى الحياة هى تقليد كل ما كان يحدث فى عصر الرسول الكريم دون تفكير ومحاولة فهم طبيعة الحياة فى ذلك العصر.

لقد نزلت الرسالة فى لحظة تاريخية معينة لكن هذا لا يعنى انها كانت أفضل لحظة فى تاريخ البشرية المديد انما كانت اللحظة التى اختارها الله سبحانه لحكمة لا نعلمها كافضل لحظة مناسبة لنزول الوحى وربما لان الانسانية كانت جاهزة فى هذا التوقيت لاستقباله وهو ما حدث بالفعل آنذاك.

ومن الصعب القبول بان المرجعية الوحيدة للانسان هى الحقبة التى نزلت فيها الرسالة فنحاول ان نحل أية مشكلة تواجهنا اليوم قياسا على ما كان متبعا آنذاك. فمن البديهى ان المشكلات التى نواجهها اليوم تختلف اختلافا جذريا عن المشكلات التى كان يواجهها الناس فى الجزيرة العربية فى عصر الرسول وفى عصر الخلفاء الراشدين. والمشكلات الجديدة تتطلب حلولا جديدة. والحلول الجديدة تستلزم اعمال الفكر وبذل الجهد كما تتطلب فوق كل ذلك دعم وتنمية وسيلة المجتمعات الانسانية لنقل المعرفة ومضاعفتها واقصد بذلك التعليم.

وقد شعر الطغاة دائما بخطورة التعليم وبما يمثله من سلاح قوى لصالح الحرية والتحرر ورفض الظلم وعدم المساواة. وكان معظم الطغاة فى التاريخ يستنكفون ان يتعلم الشعب حتى لا يطالب بحقوقه. وعندما تطورت الانسانية

بحيث لم يعد من الممكن منع التعليم عكفت النظم الدكتاتورية على توجيه التعليم فى اتجاه معين يخدم اهدافهم أو ايديولوجياتهم كما حدث فى المانيا النازية أو فى الدول الشيوعية خلال القرن العشرين. وكان التعليم فى ظل هذه النظم اقرب إلى التلقين والتجنيد الفكرى لخدمة ايديولوجية معينة وليس بهدف تطور المجتمع وفتح آفاق المعرفة.

ويروى انه لما سيطر الاتراك على الخلافة فى بغداد كانوا يرفضون ان يتعمق اولاد الخلفاء فى التعليم وكانوا يحيطوهم بمن يحضهم على اللهو والفساد حتى لا يكونوا على قدر كبير من العلم والمعرفة عندما يبلغون الخلافة. والهدف بطبيعة الحال هو ان يظلوا اداة طيعة بين ايدى الاتراك يسيرونهم كما يريدون لانهم غير مسلحين بالعلم والمعرفة.

ويروى لنا احمد امين فى «ظهر الاسلام» ان العالم الصولى كان قد بذل جهدا كبيرا فى تعليم اولاد الخليفة لانه رأى فيهما استعدادا طيبا للتعليم. ولما طلب مكافأة على ذلك قيل له على لسان اهل القصر من الاتراك : ما نريد ان يكون اولادنا ادباء ولا علماء. هذا ابوهما قد راينا فيه كل ما نحب وليس بعالم. فحكى ذلك الصولى إلى نصر الحاجب فبكى وقال: كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم !

مثال آخر من مكان وزمان مختلفين وهى الولايات المتحدة قبل ان ينجح الزعيم الكبير ابراهام لينكولن (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) فى تحرير العبيد فى الستينيات من القرن الماضى. فقد كان القانون الامريكى آنذاك يحرم على العبيد السود تعلم الكتابة والقراءة تحريما قاطعا وكان عقاب من يضبط من العبيد وهو يحاول تعلم الكتابة هو قطع سبابته حتى لا يعود إلى ذلك. ولم يسمح للسود بالتعليم الا بعد الحرب الاهلية وظلوا يعانون من التفرقة العنصرية حتى منتصف القرن العشرين ولم ينجحوا فى الحصول على حقوقهم الكاملة اليوم الا بفضل التعليم والتثقف والكفاح.

وقد روى لى احد كبار المسئولين مؤخرا قصة تثلج الدماء فى العروق لمن يريد ان يفهم ولا يخفى رأسه فى الرمال. فقد لاحظ القائمون على الجامعة ان العديد من طلبة دار العلوم وهى الكلية التى يتخرج فيها مدرسو المستقبل قد حصلوا فى الثانوية العامة على مجاميع مرتفعة للغاية تؤهلهم لدخول اكبر الكليات مثل الطب

والهندسة لكنهم وضعوا على رأس قائمة اختياراتهم كلية دار العلوم. ونظرا لان هناك حربا على القبول بالكليات ذات المجاميع العليا فقد استرعت هذه الظاهرة الغريبة نظر المسئولين عن التعليم. واتضح ان هؤلاء الطلبة من اصحاب الاتجاهات الدينية المتطرفة وهدفهم هو العمل فى مجال التدريس من اجل تشكيل وجدان التلاميذ والاجيال الصاعدة.

هذه القصة تدل على ان اصحاب نظرية نهاية التفكير لا يعملون من فراغ بل ان لديهم وعيا خطيرا بأهمية التعليم كما انهم ليسوا مجرد مدافعين عن مبادىء الدين بلا اغراض خفية كما يدعون. انما الواقع انهم يخططون للمستقبل البعيد ويضعون بذور اجيال قادمة تؤمن بنهاية التفكير وبتسليم عقولهم لبعض الذين يستغلون الدين لاهداف سياسية وبغرض الوثوب إلى السلطة والتحكم فى شعب مصر وفى كافة الشعوب العربية والاسلامية.

الإنسان: الأصل والمصير

اختلف علماء العالم طويلا حول أصل الانسان وهل يمكن.ارجاع الاجناس المختلفة إلى اصل واحد اى هل يمكن ان ينتمى الابيض والاسود والاصفر إلى اب واحد مشترك ام ان كل جنس من الاجناس له اصل مختلف وظهروا جميعا على الارض فى عصور متقاربة ؟

وكان الاتجاه الغالب فى السابق هو ان للاجناس اصولا مختلفة لا علاقة لبعضها البعض وان اللغات التى استخدمها الانسان فى العصور الاولى لظهوره على الارض لا علاقة لها هى الاخرى ببعضها البعض وهو دليل على ان الاجناس ظهرت فى اماكن متفرقة بخصائص متباينة تمام التباين وان الشعوب الحالية هى سلالات تلك الاجناس المختلفة.

لكن كبار علماء الغرب بدأوا يراجعون نظرياتهم فى هذه الايام وبدأ هناك اتجاه علمى جاد يؤكد ان اصل الانسان واحد. بل ان عالم لغات امريكى كبير يدعى ميريت روهلين أصدر فى عام ١٩٩٤ كتابا هاما بعنوان «أصل اللغات والبحث عن اللغة الام» يثبت فيه بالادلة العلمية ان هناك لغة «أم» تفرعت منها كل اللغات التى عرفها الانسان والتى اختفى كثير منها وبقى الان نحو ثلاثة آلاف لغة يتداولها ابناء البشرية فى اركان العالم الاربعة بالاضافة إلى آلاف اللهجات.

والجدل حول اصل الانسان ليس مجرد مناقشات علمية عقيمة لا اثر لها على حياتنا اليومية وانما هى قضية قد تغير من نظرة الانسان إلى العلاقات بين الناس والمجتمعات بصورة جذرية. فمن يثبت ان لكل البشر أصلا واحدا ينسف فى ذات الوقت كل النظريات العنصرية وكل الافكار الراسخة حول تفوق بعض الاجناس على الاخرى أو طبقية الاجناس.

وما يمكن ان نستخلصه من نظرية الاصل الواحد هو ان تطور الحياة البشرية عملية مستمرة بصورة مطردة طالما ان هناك حياة على وجه الارض وهذا على عكس ما يتصوره البعض من ان هناك شعوبا محكوم عليها بالتخلف واخرى انعم الله عليها بالذكاء الفطرى وتطور الحس. كذلك فان هذا التطور هو نتيجة لمجهود جماعى لكافة البشر الذين ينتمون إلى اصل واحد والذين يسيرون فيما يبدو فى طريق مصير واحد. فكل حضارة ظهرت على وجه الارض استفادت ممن جاءوا قبلها ومن اكتشافاتهم العلمية ورؤيتهم للحياة.

وكانت الحضارات المتعاقبة بمثابة حلقات متصلة ومتصاعدة تصل بالانسان إلى درجات رقى اعلى. وكانت الحضارة الاسلامية من اهم حلقات التطور البشرى فى مجال العلوم والابحاث والمعرفة المادية. وهى لا زالت إلى الآن مصدر وحى روحى يضىء حياة اكثر من مليار مسلم على وجه الارض.

لكن دعاة نهاية التفكير يرون ان حياة الانسان هى حلقة مغلقة تبدأ دائما من حيث بدأ الاسلاف وتنتهى إلى حيث انتهوا. ويقتصر مفهومهم على ان حياة الانسان تستهدف تأدية واجبات مفروضة لا ينبغى ان يتعداها البشر وان هذه الواجبات لا تتغير من جيل إلى آخر ومن بداية الخليقة حتى نهاية العالم.. وبالتالى فانه لا ينبغى على الانسان ان يفكر فى تطوير اسلوب حياته وتغيير مفاهيمه وفقا لتطور الزمن والنمو الطبيعى للمجتمعات. فالسلف الصالح قد توصل إلى الحقيقة المطلقة وعلينا ان نعيش بنفس الطريقة ونفس الاساليب التى عاش بها المجتمع الاسلامى الاول.

وكما علمنا القرآن الكريم من انه ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (سورة البقرة -٢١٣) فان اصل الانسان واحد والارجح انه ظهر فى افريقيا منذ بضعة ملايين من السنين ثم انتشر فى بقاع العالم كما تؤكد آخر الاكتشافات العلمية. وكما ان اصل البشرية واحد فان مصير الانسان واحد ايضا والبعض يتوقع ان يكون المصير الفناء عن طريق انفجار نووى أو كارثة طبيعية على اساس ان كل انواع الكائنات الحية التى ظهرت على الارض من قبل قد فنيت ولم يدم اكثرها تعميرا اكثر من خمسة أو ستة ملايين عام مثل الديناصورات على سبيل المثال.

ومثلما ان هناك نظريتين لاصل الانسان تقوم الاولى على الايمان بوحدة ابناء البشرية على اساس ان اصلهم واحد والثانية تصر على ان هناك اختلافات جذرية بين الناس وبين الاجناس فان هناك رؤيتين متناقضتين للمجتمعات الانسانية من الناحية الفلسفية والسياسية يمكن ان نطلق عليهما المفهوم الرأسى والمفهوم الافقى للانسانية.

ومنذ بداية عملية التنظير للعلوم السياسية ساد المفهوم الرأسى للعلاقات بين المجتمعات وكان تعبيرا عن المفاهيم المسيطرة بالفعل منذ الازل على العلاقات بين الكيانات الاجتماعية أو السياسية المختلفة. ويقوم هذا المفهوم على ان كل مجتمع هو وحدة قائمة بذاتها متنافرة مع باقى المجتمعات بل ان المجتمعات الاخرى تمثل خطرا عليه وعلى وجوده وان الصراع والتنافس هما اساس العلاقات بين الكيانات السياسية. ومن سمات هذا المفهوم انه يقوم على قناعة راسخة من قبل اتباعه بان القيم والمثل والتقاليد التى يدين بها مجتمعهم هى الافضل على الاطلاق وان قيم المجتمعات الاخرى تمثل الشر والرذيلة مع اختلاف التبريرات القائمة على حجج تبدو منطقية لتفسير تلك النظرة المانوية اى التى لا ترى سوى الابيض والاسود أو الخير والشر نسبة إلى الديانة المانوية القديمة.

وقد اخترت اطلاق تسمية المفهوم الرأسى لان هذا المفهوم يقسم المجتمعات رأسيا إلى كيانات منفصلة ومتناقضة. وقد تجسد هذا المفهوم لدى المجتمعات العربية فى قيم القبلية والعصبية القبلية الشهيرة التى لا تقبل الا القيم الموروثة والمقبولة لدى القبيلة ذاتها وهى رؤية يلخصها شعار عرب الجاهلية «انصر اخاك ظالما أو مظلوما». فليس المهم الحق أو العدل وانما المهم هو الانتماء العرقى.

وقد ظل هذا الفكر سائدا بين الدول والمجتمعات فى الشرق والغرب والشمال والجنوب على حد سواء حتى بدء ظهور علم السياسة الذى تحددت معالمه فى الغرب على يد مفكرين من عصر النهضة الاوروبية أو بعده بقليل مثل ماكيافيللى وجان بودان اللذين كانا من اهم واضعى الاسس النظرية للمفهوم الرأسى من خلال الفلسفة القومية. وكان هذا الفكر الذى يرى العالم كمجتمعات منفصلة لايقبل بصفة عامة مبدأ تبادل الحوار ووجهات النظر لان كل طرف مقتنع بانه صاحب الحق المطلق وان الآخر هو العدو الذى لا ينبغى مهادنته أو التنازل له عن

اى شىء. وكان اقصى ما وصل اليه هذا الفكر هو اقامة تحالفات تكتيكية مع دول أو كيانات اخرى من اجل تقوية موقفهم ودعمه فى مواجهة عدو مشترك.

وبدأ فكر مختلف تماما يتبلور تدريجيا خلال عصر التنوير الغربى على ايدى كبار المفكرين فى القرن الثامن عشر امثال فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) وروسو ومن اطلق عليهم اسم الانسيكلوبيديون وعلى رأسهم ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤).

وقد وجد هذا الفكر الذى نطلق عليه هنا تعبير «المفهوم الافقى للانسانية» متنفسا عمليا فى مبادىء الثورة الفرنسية التى اندلعت عام ١٧٨٩ ورفعت شعارات الحرية والاخاء والمساواة. وكانت هذه المفاهيم جديدة تماما فى ذلك العصر وتنبىء بعهد مصالحة عالمية بين المجتمعات. فالمصلحة لم تعد فى التصادم مع الآخرين وانما فى التفاهم والتعاون معهم من اجل خير البشرية جمعاء لان مصالح الجميع اصبحت متشابكة ومترابطة. ومع تطور العلاقات السياسية الدولية نما هذا الفكر وظهر ادباء ومفكرون يدافعون عنه ربما كان ألمعهم فى هذا القرن برتراند راسل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) وجان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠). ولم تكن هذه المفاهيم غائبة عن العالم العربى اذ بدأت تتبلور خلال عصر التنوير العربى على ايدى عمالقة الفكر مثل الطهطاوى والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) ثم طه حسين وتوفيق الحكيم.

بل ان المفهوم الافقى كان موجودا بالفعل عند بعض كبار الفلاسفة والمفكرين عبر التاريخ لكنه لم يكن تيارا فكريا سائدا أو حتى متضح المعالم. فقد كان سقراط ابو الفلسفة عندما يسأله احد: من اى بلد انت ؟ يجيب: انا من العالم. لم يكن يجيب: انا من اثينا.. مع ان اثينا كانت فى ذلك العصر اقوى واهم مركز سياسى وحضارى على وجه الارض وكان اهلها يتشرفون بالانتماء اليها. لكن سقراط كان يدرك ان انتماءه اكبر كثيرا من اثينا واليونان وانه مواطن عالمى وانسان ينتمى إلى العالم اجمع قبل ان ينتمى إلى اثينا. وقد اخترت اطلاق تسمية المفهوم الافقى على اساس ان هذا المفهوم يرى ان هناك انسجاما افقيا بين المجتمعات البشرية.

وبعد ان بدأ المفهوم الافقى يسيطر على العالم الغربى فى اعقاب الحرب العالمية الثانية كرد فعل لفظائع الحربين العالميتين وظهرت المنظمات الدولية لتكرس

الرؤية الجديدة لم يستسلم اصحاب الفكر الرأسى وعاد فكرهم يجد تطبيقات دموية فى عدة اماكن بالعالم ومن خلال احزاب التطرف اليمينية فى العديد من الدول الاوروبية وفى الولايات المتحدة. ويكفى ان نلقى نظرة على عمليات التطهير العرقى التى وقعت فى البوسنة وعمليات ابادة الجنس فى رواندا وصحوة القوميات والنزعات العنصرية فى الشمال وشطحات التطرف الدينى والعرقى فى الجنوب ثم نتوجه بانظارنا إلى البعض فى العالم الاسلامى الذين يفسرون ديننا الحنيف على انه دين تكفير ورفض للاخرين حتى نتبين ان المفاهيم الرأسية عادت تكسب ارضا جديدة كل يوم فى شتى انحاء العالم.

وبطبيعة الحال فان انصار المفهوم الرأسى لا يرون كلهم بالضرورة قتل ومحاربة كل من يخالفهم فى الدين أو الهوية أو الرأى كما ان اتباع المفهوم الافقى لا يرون بسذاجة ان كل القيم والمفاهيم والمبادىء تتساوى مع بعضها البعض لكن اصحاب الاتجاه الاول مقتنعون بان «الآخر» هو الخصم وان كل ما يأتى منه باطل فى حين ان اتباع الاتجاه الثانى يرون ان هناك سمات مشتركة بين الناس جميعا وان الحضارة الانسانية هى وعاء واحد متجدد. فالحضارة اليونانية القديمة نهلت من حضارة مصر الفرعونية العظيمة والحضارة العربية الاسلامية استفادت من حكماء اليونان كما ان الحضارة الغربية المسيطرة على العالم فى عصرنا الحالى لم تكن لتقوم بهذه الصورة لولا حضارة العرب والمسلمين. ويستخلص اتباع المفهوم الافقى من ذلك ضرورة الانفتاح على الغير والحوار البناء واكتساب الخبرة من المجتمعات المتقدمة دون ان يفقد المجتمع الذى يقدم على ذلك هويته واصالة ثقافته وعبقرية حضارته.

والمشكلة فى العالم الاسلامى هى ان مروجى الفكر الدينى المتطرف يرفضون دون تمييز كل من يختلف معهم رغم ان بعضهم يؤكد رفضه للارهاب واستنكاره لقتل كل من يخالفهم فى الرأى. لكن من يغرس بذور الفكر المتطرف يغرس معه منطق نهاية التفكير ويفتح الباب على مصراعيه للارهاب والتعصب وسفك الدماء وتكفير الآخرين.

ومن الخطر الجسيم اعتبار من هم خارج عالمنا مجرد كفارا أو ذميين. فمن الخطأ معاداة اليهود لانهم يهود ولكن لانهم أو بعضهم اغتصبوا ارض فلسطين

ويرفضون الانسحاب من الارض التى احتلوها ويرفضون الانصياع إلى قرارات مجلس الامن التى تدعوهم إلى الانسحاب واحترام حقوق الشعب الفلسطينى. واذا كنا نأخذ شيئا على المسيحيين فى الغرب فليس لانهم يختلفون عنا فى الدين فـ....لكم دينكم ولى دين (سورة الكافرون-٦). انما نحن نأخذ عليهم انهم قد نهبوا ثروات العالم الثالث وينتهجون حاليا سياسة انانية لا تأخذ فى الاعتبار سوى مصالحهم الخاصة وذلك على حساب دول العالم الثالث.

واذا كان من المطلوب ان نتمسك بعاداتنا وتراثنا وديننا ونلتزم بدعائم حضارتنا العريقة فان هذا لا يعنى رفض من لا يفكر مثلنا ونبذ من يختلف عنا ناهيك عن قتله وتصفيته. واذا كنا نثق بالفعل فى حضارتنا وتراثنا فانه يتعين علينا ان نتعامل مع الاخرين بهدوء وثقة بالنفس وان نأخذ منهم ما تفوقوا علينا فيه دون ان نفقد هويتنا وجذورنا الاصيلة. نأخذ من الآخرين ويأخذوا منا لاننا كبشر اصلنا واحد ومصيرنا فى النهاية واحد.

تجار الأحلام

نجحت الحضارة الغربية منذ بضعة قرون فى ان تجد تدريجيا الصيغة الملائمة للتقدم المادى مع توفير التوازن النفسى للمجتمعات التى تبنت هذه الصيغة على مر الاجيال الماضية.

ومن المفروغ منه ان هناك مآخذ عديدة يمكن ان نأخذها على العالم الغربى واسلوب الحياة فيه وان العيش فى بلادنا كثيرا ما يكون اكثر رحمة وانسانية من الحياة فى الغرب. ومن المفروغ منه ان حضارة الغرب قابلة للأفول مثلها مثل الحضارات التى سبقتها حيث ان كل حضارة كما قال فرويد تحمل فى طياتها بذور هلاكها. ومن المفروغ منه كذلك ان الحل بالنسبة لنا ليس نقل كل أو حتى جزء مما يفعله الغرب من اجل الوصول إلى ما بلغه من تقدم وازدهار لان كل حضارة لها مسيرتها الخاصة ومسلكها المتميز على طريق التقدم. لكن حالة الرقى التى وصل اليها العالم الغربى تخرق العين بحيث انه لا يمكن المكابرة والقول بان حضارتهم لا تقوم الا على الماديات وبالتالى فانها ليست حضارة بالمعنى الحقيقى للكلمة وبناء على هذا التحليل فاننا اكثر تقدما منهم على الرغم من تقدمهم المادى.

والذين يكيلون الهجوم للمجتمعات الغربية بلا تمييز على اساس انها مجتمعات حيوانية لا توفر غير المادة لابنائها وان ابناء الشعوب الغربية اشبه بالحيوانات السائمة لانها لاتفكر الا فى الحياة المادية كما سمعت على لسان احد الدعاة انما يخطئون فى تقديرهم.

صحيح ان ازمة الحضارة الغربية هى غياب الروحانية وسيطرة النزعة الفردية وضعف التضامن على صعيد خلايا المجتمع واولها الاسرة الا ان هذه

المجتمعات نجحت إلى حد كبير فى ان تسد هذه الثغرات الخطيرة من خلال قوانين صارمة تضع الضوابط من اجل محاصرة انانية الفرد واخضاع التضامن لمجموعة من القوانين المحكمة التى تهدف إلى كفالة الامن الاجتماعى.

فالفقير فى مصر مثلا يرعاه اهله وجيرانه ولا يتركونه يموت جوعا مهما كلفهم ذلك من التضحيات. اما فى فرنسا أو فى المانيا فلو اعتمد احد على انسانية اهله أو اسرته أو جيرانه فاغلب الظن انه لن يتأخر كثيرا عن الرقاد فى المقبرة. لذلك فان الدولة هناك تكفل للفرد ما لا يكفله التضامن الانسانى التلقائى الموجود فى مجتمعات العالم الثالث وتقوم الدولة بالتالى مقام التضامن الاسرى أو العشائرى فى حضارات اخرى.

ولا زالت تلك الصيغة التى تبلورت خلال القرون الماضية فى اوروبا هى الوقود الذى يحرك الحضارة الغربية حاليا ويجعلها لا تزال تسيطر على مقدرات العالم مع كل اوجه القصور التى تعانى منها. فالغرب قد وضع لنفسه مجموعة من القيم التى تدور حولها حياة مجتمعاته مع اختلاف ظروفها وامزجتها. وهناك قيم حقوق الانسان والديمقراطية والمساواة وتكافؤ الفرص مهما كانت هناك تحفظات حول مدى التطبيق الفعلى لها بالعالم الغربى ذاته وخاصة فى علاقته مع العالم الثالث.

وقد نجحت الدول الغربية فى مجملها فى تطبيق هذه المبادىء التى تبلورت خلال المائة سنة الماضية. لكن المبدأ الاساسى غير المعلن هو تحقيق استمتاع الانسان بحياته على الارض. ولعل كل ما انجزه الغرب فى الآونة الاخيرة من الممكن تفسيره بهذا الهدف الذى يمكن اعتباره محورا اساسيا تلتف حوله المجتمعات الغربية ويرضى به كل ابناء هذه المجتمعات كغاية ملموسة. واستمتاع الانسان كثيرا ما يتخذ عندهم اشكالا لا يمكن ان تتقبلها المجتمعات الشرقية لكن لكل مجتمع خصائصه وتصوره لاسلوب تمتعه بالحياة الدنيا.

صحيح ان الافراط فى جهود الوصول إلى الغايات المادية يؤثر احيانا على البعد الروحانى والانسانى لهذه المجتمعات الغربية لكن الصيغة التى توصلت اليها هذا المجتمعات نجحت إلى الآن فى انقاذ الغرب من السقوط فى هاوية التخلف وجعلته يسيطر على مقدرات العالم منذ اكثر من اربعة قرون مع تغير الظروف ومع تطور الكثير من القيم والمبادىء التى تقوم عليها المجتمعات الغربية.

وظلت الفكرة الاساسية التى قامت عليها النهضة الاوروبية وهى ان الانسان محور الكون، هى الخيط المتصل الذى يربط المجتمعات الغربية منذ القرن السادس عشر فى اوروبا وحتى الآن فى القارة القديمة وفى الولايات المتحدة الامريكية.

والغريب ان الديانة المسيحية التى تشكل الاساس الروحى للحضارة الغربية تقوم على فكرة الخطيئة الاصلية وترى ضرورة ان يكفر الانسان على الارض عن الخطأ الذى ارتكبه سيدنا آدم عليه السلام بعصيان اوامر الخالق. وكان هذا الاساس الاولى للديانة المسيحية وراء كل مظاهر الزهد فى الحياة والبعد عن مباهجها وافراحها التى تميزت بها القرون الوسطى فى اوروبا. بل ان غالبية المؤمنين فى اوروبا فى حقبة القرون الوسطى كانوا يكرهون الاستحمام على اساس انه اقبال على الحياة الدنيا لا يجوز مع فكرة واجب التطهر من الذنوب الانسانية وعلى رأسها الخطيئة الاصلية.

اما الدين الاسلامى فلم يعرف هذه النظرة التى تجرم الاستمتاع بالحياة بل على العكس تماما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس للتمتع بمتع الدنيا وهناك عشرات الآيات الكريمة والاحاديث التى تؤكد هذه الحقيقة. كما تؤكد كل كتب التراث ان الطبقات الحاكمة والعليا فى عز ازدهار الدولة الاسلامية وسيطرتها على مقدرات العالم كانت تنعم بالحياة وتستمتع بالشعر والفن والموسيقى ورقص القانيات جنبا إلى جنب مع حبها للعلم والمعرفة.

والمفارقة هى ان سلالة هؤلاء الذين آمنوا بضرورة حرمان انفسهم من متع الدنيا هم الذين يسرفون اليوم فى الملذات ويضعون كهدف اساسى نصب اعينهم الاستمتاع بمباهج الحياة فى الوقت الذى يدعو فيه البعض فى العالم الاسلامى إلى كره الاستمتاع بالدنيا وضرورة العزوف عن حب الحياة على اساس ان حب الدنيا هو رأس كل خطيئة كما يقول بعض خطباء المساجد.

والمفارقة داخل المفارقة هى ان هؤلاء الذين يستمتعون بوقتهم ويتذوقون مباهج الحياة هم الذين يعملون بجدية فائقة ويأخذون عملهم مأخذ الجد فى حين ان الذين يديرون ظهورهم عمدا لما يسمونه مفاتن الحياة يتقاعسون عن اداء

واجباتهم سواء الوظيفية أو غيرها من الواجبات التى تقع مسئوليتها على عاتق كل انسان من واقع مكانه فى المجتمع.

ويكفى ان نلقى نظرة على الانتاجية فى الدول المتقدمة وفى الدول النامية التى تنتمى اليها كل الدول الاسلامية ونسبة ساعات العمل فى كل من الجانبين لنتبين هذه الحقائق المؤلمة التى تدل على ان الاستمتاع بالحياة هو حافز على العمل والتقدم والرقى وان رفض متع الدنيا يؤدى عادة إلى العزوف عن العمل المنتج والابداع والتحضر وينعكس سلبا على مستوى معيشة الشعوب.

والناس فى الدول الغربية على كل المستويات تعد العدة للاجازة فتختار المكان والزمان المناسبين لتوفير اكبر قدر من المتعة والراحة فى ذات الوقت ولا يتنازل احد عن يوم واحد من اجازته سواء فى الصيف أو الشتاء حتى يعود إلى عمله فيكون انتاجه على اكمل وجه ممكن. بل ان القوانين فى غالبية الدول الغربية تجبر الموظف على ان يقوم باجازته السنوية فى موعدها ويسقط حقه فيها اذا حاول تأجيلها.

اما فى مصر والعالم العربى فعادة ما يتفاخر الناس بانهم لم يحصلوا على اجازة منذ سنوات وانهم لا يذهبون إلى المسرح أو إلى السينما أو لحفلات فنية. وقد قرأت فى يوم تصريحا لاحد رؤساء الوزراء السابقين يتباهى فيه وهو فى السلطة بأنه لم يذهب إلى المسرح منذ اكثر من عشرين عاما. وكان مغزى التصريح انه لا يجد الوقت الكافى للذهاب إلى المسرح على اساس ان ذلك دليل على كثرة مشاغله وانكبابه على العمل. ولو ادلى مسئول فرنسى أو اوروبى بتصريح مماثل لكان مثار انتقاد بل وسخرية من الجميع. فكبار المسئولين هناك يتفاخرون بمتابعة الحركة الفنية وبمعرفة الكتاب والفنانين وآخر الاعمال الابداعية فى المسرح والسينما وغيرهما.

والجدير بالذكر هو ان رئيس وزراء مصر الاسبق رجل يحظى بالاحترام لكن تصريحه يعكس مفهوما خاصا منتشرا فى مصر والعالم العربى بصفة عامة وهو ان المسئولية تتناقض مع الاستمتاع بالحياة وان الجدية ضد الاستمتاع بالوقت وبمظاهر الدنيا.

لكن الاستمتاع بالحياة ليس صفة لصيقة بالإنسان الغربى كما قلنا بل أن هاجس الجحيم سيطر على عقول الأغنياء والفقراء على حد سواء خلال العصور الوسطى الأوروبية.

وكانت الكنيسة تبيع ما يسمى بصكوك الغفران. وكان اغنياء اوروبا من الامراء وسادة الاقطاع يدفعون للكنيسة فى الفاتيكان اموالا طائلة وعطايا من الذهب والنفائس وتمنحهم الكنيسة فى المقابل صكوكا مكتوبة وممهورة بخاتمها. وكانت هذه الصكوك هى بمثابة عقد تمليك لمكان فى الجنة إلى كل من دفع الثمن نقدا أو عينا. وكان السادة والامراء من السذاجة بحيث يصدقون انهم قد حجزوا اماكنهم فى الجنة مهما كانت افعالهم ومساوئهم على الارض.. وكأن بابا الفاتيكان قادر على تحديد من يذهب إلى الجنة ومن يذهب إلى النار و كأنما رب الكنيسة يتقاضى اجرا ماديا لادخال العباد فى الجنة.

ولا اجد للقائمين على الكنيسة فى هذه العصور المظلمة افضل من وصف «تجار الاحلام». فقد كانوا يبيعون الوهم لبعض من ألغوا عقولهم وقرروا تصديق ما لا يمكن ان يصدقه انسان لو اجهد عقله فى التفكير لثوان معدودة .

وفى عصر بداية تفكك الدولة الاسلامية ظهر رجل يدعى الحسن الصباح كان زعيما شيعيا معروفا وكان حسب الروايات الشائعة يعطى اتباعه المخدرات ثم يدخلهم وسط حدائق غناءة ويوهمهم بانه ادخلهم الجنة. وبعد ان يفيقوا كانوا جميعا على استعداد لاطاعته طاعة عمياء. ويروى انه اراد فى يوم اقناع احد زواره بمدى نفوذه على مريديه فاشار لاثنين من رجاله بالقفز من فوق قمة الجبل الذى كانوا فوقه فتوجه الرجلان دون لحظة تردد وقفزا فى الفضاء معتقدين انهما ذاهبان إلى الجنة.

وفى عصرنا الحالى وتحديدا فى الثمانينيات كان رجال الدين فى ايران يعطون اطفال بلادهم مفاتيح يعلقونها فى رقابهم قبل ان يدفع بهم للقيام بعمليات انتحارية خلال حرب الخليج الاولى بين العراق وايران وكانوا يوهمون الاطفال واهاليهم بان هذه المفاتيح هى مفاتيح الجنة التى سيدخلها الاطفال فى حالة استشهادهم.

أليس كل هؤلاء تجار احلام يجمعهم على مر العصور استغلال الدين لمآرب خاصة وبيع الاوهام للشعوب ؟

ومن يتابع احداث التاريخ يتضح له ان تجار الاحلام كانوا موجودين دائما وفى كل العصور بصورة أو بأخرى واتخذت تجارتهم اشكالا شتى لكنها كانت تقوم دائما على ايهام الناس واستغلال عذابهم أو آمالهم وطموحاتهم.

واعتقد ان تجار الاحلام الحاليين فى مصر وفى غالبية الدول الاسلامية هم استمرار لتقاليد قديمة وراسخة فى معظم المجتمعات البشرية فهم يلوحون بالدين لكل الذين اصابهم الاحباط أو اليأس أو الذين حصلوا على مكاسب مفاجئة لم يكونوا يحلمون بها وصاروا لا ينامون الليل خوفا من فقد ما كسبوا.

ويلعب انصار نهاية التفكير على الاوتار الحساسة للشباب وغير الشباب ويزينون لهم الاوهام على انها الحقيقة. ومن المؤكد انهم قاموا بعملية تحليل لشاكل المجتمع ونقائصه وحالة المعاناة التى يعيشها الكثيرون. لكنهم بدلا من محاولة تقديم الحلول الملموسة لتخفيف وطأة المشكلات على المواطنين وبدلا من الاسهام فى تقديم الحلول لقضايا المجتمع يؤثرون بيع الاوهام وتزيين الاحلام.

وانصار نهاية التفكير يستشعرون احاسيس غالبية افراد الشعب المصرى والعربى ويستثمرونها للسيطرة على العقول والنفوس ولدفع الناس إلى ادارة ظهورهم للواقع الصعب ولنسج صورة خيالية وردية تخرج الناس من حالة اليأس والاحباط.

وينقض انصار نهاية التفكير على ضحاياهم فى لحظات الضعف فيتواجدون على سبيل المثال فى المآتم حيث يكون اهل المتوفى فى حالة من فقدان الوعى بسبب فداحة الحدث الذى يواجهونه بموت اب أو أم أو احب الناس اليهم. وفى هذه اللحظات يظهر البعض ليبثوا فى عقول اهل الفقيد افكارهم الشاذة عن الاسلام وتكون الضحية فى حالة من الاستسلام النفسى ومن فقدان الحصانة العقلية تجعلها على استعداد لتقبل ما لا يمكن تصديقه فى ظروف طبيعية.

ويقع الشباب وغير الشباب فى حبائل تجار الاحلام الذين يستغلون الدين الاسلامى اسوأ استغلال وهو الدين الذى قام منذ اليوم الاول على الواقع والحقائق ونبذ الخيال والغيبيات. مع ان التاريخ يدل دائما على ان الشعوب التى افلتت من براثن التخلف قد نجحت فى تحقيق ذلك عن طريق فهم الواقع والسعى إلى تغييره من خلال العلم والاجتهاد واعمال الفكر والانفتاح على الغير.

الفصل الثالث

نظرات إلى مصر

احذروا أتباع نظرية كويه

نظرية كويه لها فى مصر أتباع كثيرون. والأرجح أنهم لم يسمعوا عن المحلل النفسى والصيدلى الفرنسى اميل كويه (١٨٥٧ - ١٩٢٦) ولا عن نظريته التى وضعها فى بداية هذا القرن. وتقوم هذه النظرية، وهى اقرب إلى الطريقة منها إلى النظرية، على تقوية الشعور بالثقة فى النفس من خلال الايحاء الذاتى. فإذا اوحى شخص لنفسه بأنه اقوى من الاخرين وبانه اكفأ منهم وقادر على التغلب على كافة العقبات فإن ترديد ذلك لنفسه باستمرار سيعطيه فى النهاية قوة حقيقية تعينه على مواجهة المشكلات.

والبعض فى مصر يطبقون هذه الطريقة دون أن يدركوا ذلك عندما يكررون كل يوم أن فلانا أشاد بمصر وأشاد بسياستها فى المنطقة. ولا يكف اتباع نظرية كويه عن ترديد أن مصر هى أكبر دولة فى المنطقة وهى الدولة الرائدة وهى محور أى تحرك بها .

وفى الواقع أن مصر ليست فى حاجة إلى ترديد هذه الحقائق لسبب بسيط جدا.. وهو أنها كذلك بالفعل. فهى بؤرة الحضارة الرئيسية فى المنطقة وعليها يقوم الأمل فى الصحوة الحضارية القادمة بإذن الله. ولأنها كذلك فلسنا فى حاجة إلى البحث والتنقيب عمن يقول كلمة فى حق مصر ولو فى زنزبار فنبرزه فى صدر وسائل اعلامنا ونكرره كأنه كلام غريب وأننا فى حاجة إليه لنقتنع به وليقتنع به غيرنا. وللأسف أن هذه النغمة زادت كثيرا فى الآونة الأخيرة مما يستلزم وقفه نستوعب فيها الحقائق ونضع فيها الأمور فى نصابها.

لقد مرت عصور على مصر كانت فيها القوة العظمى الأولى فى العالم القديم بلا منازع كما مرت عليها حقب كانت خلالها قوة اقليمية ضخمة ثم فترات بسيطة

فى تاريخها المديد انغلقت فيها وانزوت لأسباب متعددة. لكن قراءة تاريخ المنطقة يدل على أنها كانت دائما ذات تأثير حاسم فى مجريات الأمور بها . وتتمتع مصر اليوم بكل مقومات التقدم وإن كانت مضطرة للأسف إلى مواجهة اعدائها بالداخل والخارج الذين ليس من مصلحتهم أن تقوم لها قائمة بأى حال من الأحوال .

وقد رأيت بعينى رأسى فى مؤتمرات دولية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الشمالية واللاتينية وأوروبا كيف يكن العالم الاحترام لمصر وكيف يعامل ممثلوننا بتقدير لمجرد أنهم يمثلون مصر. ولن أنسى درسا هاما فى بداية حياتى الصحفية عند وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر حيث اجريت حوارات مع شخصيات اجنبية جاءت للمشاركة فى تشيع الجنازة وكان من بينها سير هارولد بيلى أحد أقطاب الدبلوماسية البريطانية وكان سفيرا لبلاده فى القاهرة فى الستينات فقال لى أن ظاهرة عبد الناصر لها سببان لا سبب واحد.. أولهما شخصيته وثانيهما أنه كان رئيسا لمصر.. فلو كان رئيسا لغيرها من دول المنطقة كما قال سير هارولد بيلى لما كانت له هذه المكانة مهما عظمت شخصيته .

واتيح لى أن أشاهد مرات عديدة كيف يعامل الرئيس حسنى مبارك فى الخارج وتابعت عدة زيارات له فى باريس وغيرها فلمست المكانة المتميزة التى يحظى بها فى كل مكان. ولا يمكن أن أنسى زيارته خلال الاحتفال بالذكرى المائتين للثورة الفرنسية وكان هناك خمسة وثلاثون رئيس دولة دعاهم الرئيس فرنسوا ميتران بهذه المناسبة. فأشهد بأن الرئيس مبارك لقى معاملة خاصة وكان الوفد المصرى من أكثر الوفود التى استقبلت بالحفاوة والتكريم واستمتع اعضاؤه بهذه الاحتفالات التى تعد من أهم احتفالات القرن العشرين بأكمله.. وهى أيام ستظل مطبوعة فى ذاكرتى ما حييت .

لسنا إذن بحاجة إلى أن ننقب عن أى مديح لمصر لنبرزه ونهلل به وكأنه شىء غريب لا يطابق الواقع. ولننظر إلى ما يفعله اعلام الدول الكبيرة المؤثرة دوليا أو اقليميا مثل الاعلام الأمريكى أو الفرنسى أو حتى الايطالى أو غيرهم. فهم لايرددون يوميا أن بلادهم لها أهمية كبرى فى العالم وأن الناس يشيدون

بسياستها فى الخارج. أنهم يكتفون بعرض الحقائق وهى التى تتحدث عن نفسها وتثبت أهمية بلدهم وتأثيره. ثم أن البعض يأخذ بحساسية كل كلام نردده عن ريادة مصر ووزنها فى المنطقة وهى أمور مفروغ منها ويفرضها الواقع والتاريخ ولا حاجة للاعلان اليومى عنها والطنطنة بها واغضاب الناس بغير داع.

وانطلاقا من ذلك فأنا أقول لاتباع نظرية كويه فى مصر كفوا عن تطبيق هذه النظرية التى قد تصلح للضعفاء لكنها لا تصلح بحال من الأحوال لدولة كبيرة مثل مصر .

ماذا حدث لآلة تفريخ الكوادر فى مصر ؟

هناك مثل شعبى متداول يقول أن «مصر ولادة». وقد ثبتت صحة هذه المقولة على مر العصور فى كافة الميادين ولا زالت التجربة تؤكد سلامتها فى عدة مجالات إلى يومنا هذا.. لكن آلة تفريخ الكوادر فيما يسمى بالادارة العليا قد أصيبت بالعطل منذ فترة مما يجعل عملية التبديل والاحلال الطبيعية لكوادر الدولة العليا تواجه مشكلات لا تخفى على أحد. ولعل أبرز دليل على ذلك أنه عندما يبلغ أحد رؤساء العمل فى مؤسسات الدولة الكبرى سن الاحالة إلى الاستيداع فإنه غالبا ما يضع العاملون بهذه المؤسسة ايديهم على قلوبهم ليس فقط لأنهم يرتاحون للعمل مع الرئيس الذى بلغ سن المعاش وليس فقط لأن هذا الأخير اكتسب خبرة تجعله يقود السفينة باقتدار أكبر من غيره وليس فقط خوفا من التغيير وإنما السبب الأساسى للتخوف هو أن البدائل للرئيس الذى يستعد لترك الخدمة مخيفة من كافة الجوانب. ويتضح فجأة أنه لا توجد كوادر ارتقت السلم الطبيعى للتطور الوظيفى قادرة على تولى المسئولية عندما يحين وقتها .

وإذا أخذنا مثال فرنسا نجد أن الرئيس الحالى جاك شيراك عندما وصل إلى السلطة فى ٧ مايو ١٩٩٥ كان عليه أن يغير الحكومة ورموز الحكم السابق. وقد قام شيراك بتشكيل وزارة بلغ متوسط العمر فيها ٤٨ عاما مع أن هناك وزيرين فوق السبعين. فكثير من الوزراء دون الأربعين من عمرهم وكان هناك أحد الوزراء لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره وكان المتحدث الرسمى باسم الحكومة كلها. وفى ظنى أن مشكلة شيراك لم تكن نقص الكوادر على تحمل المسئولية وإنما العكس تماما.. ولو أن الرئيس الفرنسى اراد تغيير الوزارة فى أى لحظة لوجد كوادر بديلة تتولى المسئولية فورا ودون اية مشكلات وتكون جاهزة للعمل

والانجاز. وندرك من هذا الواقع أن آلة تفريخ الكوادر فى فرنسا تعمل بكامل طاقتها وفى الاتجاه الصحيح. ومن الممكن أن نستخلص نفس النتيجة فى الولايات المتحدة أو فى غالبية الدول المتقدمة حيث تقوم المؤسسات التعليمية ثم المناخ الصحى لتربية الكوادر ثم نظرية النشوء الارتقاء الطبيعية فى سلم المسئوليات بالدولة بدورها فى عملية تجهيز المسئولين وتهيئتهم لتسيير عجلة الادارة والحركة والإنتاج فى الدولة.

صحيح أن تقاليد الحياة السياسية مختلفة فى هذه الدول عنها فى مصر وأن كل واحد من كوادر الادارة العليا فيها خاض معارك سياسية طاحنة وعمليات انتخابية لا حصر لها وشارك فى مناقشات عامة متعددة إلا أن مصر كانت هى الأخرى حتى وقت قريب مدرسة كبيرة لتفريخ الكوادر. فهل نستخلص من هذه الملاحظات التى يصعب تفنيدها أن مصر قد نضبت وأنه لم يعد هناك أمل فى ايجاد جيل جديد من الكفاءات يحل محل الجيل الحالى فى مختلف المجالات ؟

اعتقد أن استخلاص مثل هذه النتيجة يعد تسرعا فى الرأى خاصة إذا قمنا باستقراء سريع لامكانيات بلادنا الهائلة فى غالبية مجالات العمل والعلم والمعرفة. ويكفى أن نتذكر أن هناك مصريين من بين أهم الكوادر العليا على المستوى الدولى وعلى رأسهم الدكتور بطرس بطرس غالى أمين عام منظمة الأمم المتحدة السابق والدكتور عصمت عبد المجيد أمين عام جامعة الدول العربية، بالاضافة إلى بعض كبار المسئولين فى صندوق النقد الدولى ومنظمات الأمم المتحدة المتخصصة. وأنا اتحدث هنا عن كوادر الادارة العليا وليس عن العلماء والأطباء والمهندسين الذين لمعوا فى أوروبا والولايات المتحدة وما أكثرهم. وهذه الكوادر العالمية التى نتشرف بها لم تأت من فراغ ولكنها نتاج مدرسة تفريخ الكوادر المصرية فى الادارة العليا التى تعانى حاليا من عطل مؤقت .

ولا يستطيع أحد أن يقول أن مصر قد نضبت.. فإذا أخذنا مجال الابداع نجد أنه بعد جيل عملاق الأدب العربى نجيب محفوظ والراحل يوسف ادريس ظهر جيل جديد فى ميدان الرواية والقصة لمع منه جمال الغيطانى ويوسف القعيد وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم ثم جيل آخر منه إبراهيم اصلان وإبراهيم عبد المجيد وعشرات أن لم يكن مئات إلى جوارهم. وفى بداية الثمانينات توقع البعض

أن يأفل نجم السينما المصرية بعد صلاح أبو سيف ويوسف شاهين وكمال الشيخ فظهر جيل محمد خان وخيرى بشارة ورأفت الميهى وشريف عرفه، على سبيل المثال لا الحصر، حملوا الشعلة على الرغم من المشكلات المادية الخطيرة التى تواجهها السينما المصرية فى هذه الأيام .

لكن قضية الابداع مختلفة عن مشكلة كوادر الدولة وكوادر الادارة العليا وأن كانت تدل على أن مصر مليئة بالمواهب ومشحونة بالامكانيات الكامنة التى لاتنتظر إلا الفرصة المناسبة لتظهر أفضل ما عندها. ولو القينا نظرة على الجاليات المصرية المهاجرة إلى الخارج لوجدنا قصصا تنشرح لها النفوس تدل على صلابة المصريين واستعدادهم لبذل الجهد والعرق من أجل النجاح. فالشعور بالفشل والاحباط الذى يمزق جزءا كبيرا من شبابنا اليوم ليس حتمية لا مناص منها ولكنه نتيجة لظروف بعضها - وهى الأهم - محلية علينا أن نعترف بها وبعضها الآخر اقليمية أو دولية.

ولأن آلة تفريخ الكوادر تعد من أهم عوامل النجاح والفشل لأى بلد من البلاد ولأنها تلعب دورا حاسما فى تحديد مستقبل أى دولة فإنه يتحتم علينا أن نولى هذه القضية أهمية قصوى سواء فى مجال التعليم والاعداد أو فى ميادين العمل والإنتاج. فالامكانيات متوفرة واحتمالات تنشئة وتهيئة الكوادر موجودة لكن البعض ينتهج سياسة كبت المواهب ووأد الكفاءات ربما خوفا منها ومن منافستها. وعلينا أن نعمل حتى يعود الزمان الذى يصل فيه المسئول إلى سن الاستيداع فيحتار متخذ القرار بين عدة خيارات بديلة كلها على نفس الدرجة من الكفاءة. فهذا شرط أساسى لتأمين مستقبل بلدنا الحبيب وتأكيد للمثل الذى يقول أن «مصر ولادة».

الذين يغتنون .. وهم نائمون

كان للرئيس الفرنسى الراحل فرنسوا ميتران تعبير بليغ لوصف ظاهرة جديدة تفشت فى العالم اجمع وتتمثل فى امكانية ربح مال وفير دون بذل أى جهد فيسمى المستفيدين من هذه الظاهرة «الذين يغتنون وهم نائمون». ويقصد ميتران هنا الذين يجمعون المال من خلال العمولات أو السمسرة أو المضاربة.. فالمال كان مقترنا منذ عصر النهضة وخاصة منذ الثورة الصناعية بالجهد والعمل الشاق والمضنى. وكانت الثروات هى نتاج مشوار متواصل من العرق والكفاح يؤدى فى النهاية إلى جمع ثروة تستثمر عادة فى مشروع صناعى أو انتاجى. أما اليوم فهناك فى العالم اجمع سمة جديدة لجمع المال وهى الاعتماد على الوساطة والسمسرة أو على المضاربة وكلها وسائل اصبحت تجلب مالا اوفر وبسرعة أكبر كثيرا من وسيلة العمل الفعلى والانتاجى .

وانتمى إلى جيل تفتحت مداركه السياسية فى بداية الستينات فكنا نسمع عن طغيان واستغلال الرأسمالية واستغلالها للشعب وكان من ابرز رموز هذا الاستغلال فى مصر هم عبود باشا وأبو رجيلة وفرغلى باشا وبقدر أقل طلعت حرب. ولم نكن ندرك آنذاك أن ثروات كل هؤلاء كانت نتيجة مشوار كفاح وأن حياتهم كانت تقوم على الجد والعمل والأهم من ذلك أن كل هؤلاء كانوا خبراء فى مجالات عملهم كما كان طلعت حرب فى اقتصاديات البنوك وفرغلى باشا فى القطن مثلا. كما قام هؤلاء بإنشاء صناعات متعددة وفتحوا بيوتا لعشرات الآلاف من الأسر المصرية. وبالاضافة لكل ذلك فقد كان هؤلاء من كبار المهتمين بالثقافة والمعرفة وكانوا على اتصال دائم بابرز رجال العلم والأدب فى مصر وكانوا دائما على استعداد للاسهام فى مشروعات ثقافية وفنية فلا ننسى مثلا أن طلعت حرب هو الذى انشأ ستوديو مصر الذى كان وراء النهضة السينمائية المصرية .

وعلى صعيد العالم كانت الصورة مماثلة لما حدث فى مصر. فقد كانت الثروات الضخمة هى نتاج مثابرة وفكر مبدع. فكان فورد عبقرى صناعة السيارات وروكفيلر ودوبون منشىء صناعة النيلون هم أهم أغنياء الولايات المتحدة. وفى فرنسا كانت أكبر الثروات يملكها داسو عبقرى الطيران الذى طور هذه الصناعة على الصعيد العالمى وكذلك رينو وسيتروين أصحاب مصانع السيارات الشهيرة. وكانت نفس الأوضاع سائدة فى المانيا وايطاليا وكافة الدول الأوروبية. فكان أصحاب الثروات هم رجال أفنوا حياتهم فى الجد والاختراع وقامت على اكتافهم نهضة بلادهم فى مجالات الصناعة والاقتصاد. وقد فتح هؤلاء الرجال آفاق التقدم والنمو الهائل الذى عرفه العالم تدريجيا فى السنوات الثمانين الأولى لهذا القرن .

أما اليوم فقد تأثرت مقومات الثروة بالسمات الغالبة للعصر وهى سرعة الايقاع والسطحية. فالثروة تجمع فى أسرع وقت ممكن وبأقل جهد متاح. وبعض رجال الأعمال فى عالم اليوم لايعملون أكثر من ساعات قليلة فى الشهر على أكثر تقدير. أما مصدر ثرواتهم فتقوم أساسا على الوساطة لسلع أو بضاعة أو صناعة لا علاقة لهم بانتاجها .

وقد عانى ميتران نفسه من ظاهرة المال السهل فى نهاية الثمانينات. فقد حصل أحد أقرب أصدقائه الشخصيين ويدعى باتريس بولا، على ثروة كبيرة تقدر بعدة ملايين عندما ضارب فى بورصة باريس فقام بشراء أسهم لاحدى الشركات بسعر زهيد نظرا لأن هذه الشركة كانت تعانى من مصاعب ضخمة. وبعد ذلك بفترة قصيرة قامت شركة أمريكية بشراء الشركة الفرنسية المتعسرة وضمها إليها فارتفع سعر الأسهم التى اشتراها رجل الأعمال الفرنسى إلى عشرات الاضعاف بين يوم وليلة. وثارت ثائرة أوساط المال فى فرنسا حيث أتهم باتريس بولا بالغش لأنه أنه لم يقم بشراء أسهم الشركة الأولى اعتباطا وإنما على أساس معلومات سربها له شخص على مستوى كبير من المسئولية.

ولم تكف وسائل الاعلام عن تناول هذه القضية لأسابيع متواصلة. لكن أصابع الاتهام لم تتجه إلى شخص الرئيس ميتران الذى كان دائما فوق الشبهات فيما يتعلق بالأمور المالية وإنما أتهم بأن لديه صداقات مشبوهة. وقد دافع ميتران

عن نفسه مؤكدا أن باتريس بولا كان أسيرا معه في المانيا في بداية الحرب العالمية الثانية وأنهما عانوا سويا من ويلات الأسر والحرب مما نسج بينهما أواصر صداقة لايمكن أن يلومه عليها أحد. وحامت الشكوك حول رئيس وزراء فرنسا آنذاك بيير بريجوفوا الذى كان قد حصل على قرض من بولا لشراء منزل بباريس. ودافع الرجل عن نفسه بقوة حتى أقدم فى أول ابريل ٩٣ على الانتحار ويعلم الله وحده، أن كان موضوع باتريس بولا من الدوافع التى كانت وراء انتحاره. وكانت لهذه الأحداث أثر مباشر على ميتران واعترف بأنها كانت من أمرّ التجارب التى مر بها فى حياته .

وعندما حقق جورج سوروس الأمريكى اليونانى الأصل ارباحا تصل إلى بضع عشرات الملايين من الدولارات بفضل المضاربة على العملة تساءل الكثيرون فى فرنسا عن العلاقة بين المال والعمل وبين الربح والجهد. صحيح أن أغلب الثروات الكبيرة فى أوروبا لا زالت تقوم على التراكم من خلال الصناعة أو الإنتاج لكن المليونيرات الجدد ينتمون فى معظمهم إلى طائفة «الذين يغتنون وهم نائمون».

وبطبيعة الحال فإنه لايمكن التعميم التام فى هذا الموضوع. فاحد اغنى رجال العالم فى هذه الأيام هو الأمريكى بيل جيتس وهو مخترع فذ لنظم كومبيوتر جديدة ونجح فى أحداث ثورة فى برامج العقول الاليكترونية فاسهم بذلك مساهمة ملموسة فى تطوير حياة الانسان فى نهاية القرن العشرين. وهناك أمثلة مشابهة فى فرنسا والمانيا وايطاليا لثروات جديدة قامت على الاختراع والعمل والإنتاج. لكن السمة الغالبة للأغنياء الجدد فى مصر والعالم هى التى ترجمها الرئيس الراحل ميتران بعبارته اللاذعة والتى تحمل أكثر من معنى لمن يتأمل عالم اليوم وتركيبته الاقتصادية والاجتماعية.

البابا شنودة وقضية الانتماء

عندما التقيت بالبابا شنودة فى بداية زيارته لباريس فى فبراير ١٩٩٥ واستمعت منه إلى اهتماماته بالنسبة للجالية القبطية فى فرنسا قفزت إلى ذاكرتى إجابة بليغة للسيدة حنان عشراوى المتحدثة السابقة باسم منظمة التحرير الفلسطينية فى مؤتمر السلام فى مدريد عام ١٩٩١ عندما انبرى صحفى أمريكى يهاجم التطرف «الاسلامى» ثم أخذ يعطى محاضرة فى الديانة المسيحية. وقد اجابته حنان عشراوى بأن التطرف لا علاقة له بالاسلام من قريب أو بعيد ثم فاجأته قائلة : ولعلمك فأنا شخصيا مسيحية والديانة المسيحية قد ولدت فى الشرق وفقدت جزءا كبيرا من أصالتها عندما انتقلت عندكم فى الغرب وبالتالى فأنا لا انتظر دروسا فى دينى من أحد .

ولعل سبب استرجاعى لهذه الاجابة هو شعورى بأن الهم الأكبر للبابا كما قال لى هو الشباب المصرى القبطى فى الغرب وكيف يمنع تلوث عقول هذا الشباب ونفوسهم بالبيئة الثقافية والاجتماعية المحيطة بهم فى المجتمعات الغربية والمحملة بقيم وتقاليد غريبة عنهم. فهمومه مماثلة لهموم أى اب مصرى حريص على أن يشب أولاده على القيم والمبادىء التى تحكم مجتمعات الشرق منذ مئات السنين كما أنه حريص على أن يتعلم الشباب اللغة العربية وكذلك اللغة القبطية كما قال. فالبعض قد يتصور أن المسيحيين المصريين الذين يهاجرون إلى الغرب يأخذون كل شىء عن شعوبه لأنهم مسيحيون مثله يؤمنون بنفس الدين والعقيدة. وللأسف فإن بعض المسيحيين فى بلاد الغرب بالفعل يقطعون صلاتهم بمصر ويتنكرون لاصولهم وينبهرون بكل ما هو غربى ويحتقرون كل ما هو مصرى وعربى. لكنى استطيع أن اؤكد بناء على تجربتى الشخصية أن هؤلاء قلة وأن غالبية الاقباط فى الخارج يشعرون بالانتماء الحقيقى لوطنهم الأم ولايحلمون إلا

بالرخاء والأمن والاستقرار لمصر. وليس هذا كلام عاطفى أو انشائى ولكنه الحقيقة التي يجب أن نعيها تماما حتى نفهم الأمور على حقيقتها. فالذين يهاجمون الاسلام فى الغرب لايتطاولون على ديننا الاسلامى الحنيف فحسب وإنما على الحضارة الاسلامية وكل ما افرزته من قيم ومبادىء ومزاج نفسى وثقافي. والأقباط ينتمون إلى هذه الحضارة وينحدرون من كل التراث الأدبى والفلسفى والعلمى والثقافى الذى انجبته هذه الحضارة سواء أكانوا واعين لذلك أم لا. وإذا نظرنا إلى تهجم البعض فى الغرب على الاسلام نجد أن الكثير من الحجج وليس كلها تمس المزاج والاخلاقيات والعادات كالاتهام بعدم الالتزام والتواكل وعدم احترام الوقت والتركيز على الروحانيات وغياب العقلية العلمية وهى صفات ثقافية تخص الحضارة العربية الاسلامية أكثر مما تخص صلب الديانة الإسلامية. هناك بطبيعة الحال من يحاول التهجم على تعاليم الدين الاسلامى انطلاقا من الأحقاد الدفينة لكن أكثر الحجج المتداولة تتعلق بخصائص المسلم وشخصيته .

ويكفى أن نوجه انظارنا إلى موقف البابا شنودة من قضية الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية لنتبين مقدار التزام اقباط مصر بالقضايا المصيرية العربية. فهو كما يعلم الجميع لا يسمح للأقباط بالذهاب إلى القدس كجزء من مناسك دينهم على الرغم من الأهمية الكبيرة التى يعلقها المسيحيون الشرقيون على هذه الزيارة وكان من يقوم بها فى الماضى ينادى بلقب «المقدس». وفى نفس يوم وصوله إلى باريس سئل البابا شنوده أن كانت اتفاقات السلام التى تم توقيعها بين العرب وإسرائيل مؤخرا تلغى تعليماته بشأن عدم الذهاب إلى القدس وإذا كان الأوان لم يئن بعد للسماح للأقباط باستكمال مراسم دينهم وزيارة المدينة المقدسة فأجاب بأن الأحداث الأخيرة أكدت ما يقوله وأن السلام الشامل لم يتحقق بعد وعندما سئل عن معنى السلام الشامل فى رأيه اجاب أنه لن يأتى إلا فى اليوم الذى تعيد فيه إسرائيل كافة الأراضى المحتلة إلى أصحابها العرب. وكان البعض قد تصور أن البابا سيلين فى موقفه هذا بعد زيارته للولايات المتحدة ثم بمناسبة جولته الأوروبية. فمن المؤكد أن الغرب غير راض عن هذا الموقف ولا اشك فى أنه اثير مع البابا خلال مناقشاته مع كبار المسئولين الغربيين.

وهذا الموقف وغيره الكثير يثبت أن العقيدة الدينية شيء والانتماء الوطنى شيء آخر. ولو أراد البابا أن يتقرب من أبناء دينه المقيمين فى الغرب وهم غالبية المسيحيين لاختار موقفا مختلفا من موضوع القدس والأراضى العربية المحتلة .

والعنصريون فى الغرب لايفرقون بين العربى المسلم والمسيحى. فكلهم بالنسبة لهم عرب يأتون إلى بلادهم بعادات وطباع وتقاليد مختلفة من أجل خطف لقمة العيش من أبناء البلد كما تقول دعاية الأوساط العنصرية في الغرب. ويكفى أن يتجول قبطى بملامحه الشرقية وشعره الاجعد وسمار بشرته فى شوارع مدينة أوروبية ليتبين صحة هذا الكلام. وربما يشعر الناس بانتماءاتهم فى الغربة أكثر مما يشعرون بها فى بلادهم ذاتها .

وأعلم أن البعض فى فرنسا كان يود استغلال زيارة البابا من أجل طرح قضايا ومشكلات وتفجير مواقف مثيرة. لكن غالبية أبناء الجالية القبطية رأوا فى زيارة البابا مناسبة روحية ولحظة هامة فى حياتهم تضاعف من ارتباطهم بالوطن الأم وانتمائهم إلى مصر الغالية. وهذا هو المفهوم العميق وراء جولات البابا فى العالم الغربى والذى لاينبغى أن يغيب عن اذهان أحد .

صدقونى .. إنهم ليسوا مجانين

في جولة سريعة على ظهر مركب تجوب بحيرة ناصر من أسوان إلى أبو سمبل اتيح لى أن اكتشف الكثير الذى كان خافيا عنى وعن الغالبية العظمى من المصريين. فولع الاجانب بمصر ينبع بالتأكيد من كرم ضيافة الشعب المصرى وشهامة خلقه ودفء الشمس غالبية شهور العام وكلها أشياء تنقص الأجانب وخاصة الغربيين منهم. لكن هناك دولا كثيرة تتمتع بما لدينا من شمس ساطعة وحسن ضيافة وجمال شواطئ البحر.

أما سحر مصر الحقيقى والذى تتميز به عن أى دولة أخرى على وجه الأرض فيكمن فى حضارتها المضيئة على مر العصور. وعلينا أن نقر بأن أهم ما يجذب الأجانب إلى بلادنا وأكثر ما يخلب عقولهم هو العصر الفرعونى الذى كان أول حضارة عظيمة عرفها الانسان على ظهر كوكب الأرض والتى كانت الرحم الذى نضجت فى داخله أهم حضارات الانسانية التى أثرت حياة البشر وجعلتنا نعيش الآن بالمستوى الذى نعيش فيه وهو ارقى ما وصلت إليه البشرية على الرغم من شكوانا المستمرة من حياتنا .

وكان أشد ما احزننى فى جولتى القصيرة أن الأجانب يعرفون عن بلادنا مالا نعرفه ويزورون أهم معالم حضارتنا ويطلعون على ما صنعه أجدادنا سواء فى مصر القديمة أو فى العصر الاسلامى المزدهر الذى كانت فيه القاهرة عاصمة ثقافية وحضارية لا مثيل لها. وكان الغياب المصرى الكامل من كل هذه الأماكن الأثرية واضحا بصورة تستفز مشاعر الحيرة والغضب. فالمصريون الوحيدون المتواجدون هناك كانوا أما من المرشدين أو من حراس المعابد أو التجار الذين يحاولون بيع أى شىء للزوار الأجانب. وأمام هذا المنظر اللافت للنظر كان السؤال

الذى يقفز إلى الذهن هو : لماذا لانهتم بتاريخنا ؟ لماذا لا نطلع على الاثار الخالدة التى خلفها اجدادنا والتى تجذب لنا السائحين من كل مكان ؟ هل هى نقص الامكانيات ؟ لا أظن هذا.. فهناك آلاف المصريين يزورون أوروبا فى كل عام للسياحة واقتناء أحدث الملابس وينفقون عشرات امثال ما ينفقه السائح الأجنبى فى بلادنا. لكن هؤلاء لايفكرون للاسف فى زيارة بلادهم التى تخبىء كنوزا تسحر ألباب الأجانب. ثم أين تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات ؟ اليس التعرف على تاريخنا العظيم من خلال الاتصال المباشر أكثر تأثيرا من الكلام النظرى عن حضارة مصر العظيمة التى نردد أنها تمتد لسبعة آلاف عام من عمر البشرية فنفخر بذلك تفاخرا سطحيا لا يقوم على أساس المعرفة الحقيقية. وفى السابق كانت هناك رحلات مدرسية محدودة للمتاحف والأماكن التاريخية لكن هذا التقليد اختفى منذ فترة واعتقد أنه من المهم للغاية إعادة الرحلات المدرسية إلى المواقع التاريخية حتى ينشأ الطفل المصرى على دراية واقعية بماضى بلاده العظيم. أما اليوم فلا الصغار ولا الكبار يعرفون تاريخنا معرفة متعمقة.. فكم مثقف مصرى يعرف إلى أى أسرة ينتمى اخناتون أو رمسيس الثانى واسهام كل منهما فى تاريخ مصر ؟ كم متعلم يعرف عدد الأسر التى حكمت مصر فى التاريخ القديم ؟ ناهيك عن عامة خريجى الجامعات الذين يجهلون ابسط مبادىء تاريخنا. لقد صار تاريخ مصر القديم فى عيوننا مصدرا للرزق بسبب ما يدره من السياحة. صار تاريخ اجدادنا تجارة رابحة «نضحك» بها على الأجانب ودورنا الوحيد هو الاستفادة من عشقهم لتاريخنا فنتفنن فى تحقيق أكبر ربح ممكن من السياحة وكل الصناعات الصغيرة والأنشطة المساعدة لها .

وفى احدى الجولات وقفت وسط مجموعة من الأجانب كانوا يدونون ملاحظاتهم وشرح المرشد حول المكان الذى نزوره. فنظر إلى شباب مصرى كان يشهد هذا المنظر قائلا وهو يلوى شفتيه امتعاضا : «مجانين». واعتقد أن هذا الشاب يعبر عن رأى الكثيرين منا.. فاهتمام الأجانب بالآثار والمتاحف يعد فى نظر البعض نوعا من أنواع السفه والرفاهية. أما نحن فليس عندنا وقت نضيعه فى مثل هذه الأمور ويكفينا أن نعرف أننا أصحاب تاريخ عظيم وأن اجدادنا كانوا صناع حضارة مزدهرة وأن لدينا حضارة عمرها سبعة آلاف سنة فنردد هذا

الكلام دون أن ندرك مضمونه الحقيقي. واعترف أننى احرجت كثيرا فى هذه الرحلة عندما كان الأجانب يسألوننى فى تفصيلات لا اعرفها ولا يعرفها أى مصرى غير متخصص. ولم يتصور أى منهم أن هناك مصريا لايعرف تاريخ بلاده وحضارته بأدق التفاصيل .

ففى الدول المتقدمة يتشرب التلاميذ تاريخ بلادهم منذ نعومة طفولتهم فيشبون مرتكزين على اصولهم يعلمون خصائص بلادهم والقيم والمثل التى صهرت شخصية الانسان عندهم. فمن يجهل تاريخه يتوه فى حاضره ويعجز عن تصور مستقبله. من يجهل تاريخه لا يستطيع تحديد هويته فتختلط الأمور فى عقله وضميره. كذلك فالتاريخ هو اللحمة التى تربط أبناء الشعب الواحد ببعضهم البعض. فتجد الفرنسيين مثلا يتقاسمون نفس القيم ولديهم نفس النظام المعرفى مهما اختلفت الطبقات التى ينتمون إليها أو المناطق التى يعيشون فيها لأنهم درسوا ماضيهم وثقافتهم بنفس الطريقة واطلعوا على تطور الفكر والأدب فى حضارتهم على مر العصور. حتى الأمريكى الذى لايرجع تاريخه لأكثر من مائتى عام يتفاخر بهذا التاريخ ويعرف دور واشنطن ولينكولن فى بناء الولايات المتحدة وفى ارساء القيم والمبادىء التى يقوم عليها مجتمعهم اليوم .

وتعد آفة الاستخفاف بالتاريخ والثقافة آفة عربية. وقد استفحلت هذه الظاهرة المخزية مؤخرا فى مصر مع أن شعبنا يحظى بتاريخ مشرف منذ آلاف السنين من عصر الفراعنة ثم العصر القبطى ثم الحضارة الاسلامية الزاهية وحتى عصر النهضة فى منتصف القرن الماضى. عار علينا أن نجهل هذا الماضى العظيم فلا نعرف عنه إلا القشور .

أما الذين يحترمون التاريخ ويسعون للتعرف على ينابيع الفكر البشرى ويحاولون فهم أصل حضارة الانسان ويتجشمون مشقة السفر والترحال من أجل مشاهدة آثار حضارتنا المضيئة فلا يمكن أن يكونوا مجانين.. صدقونى.. أنهم ليسوا مجانين .

نحن والمرجعية السلفية

تتسم الساحة السياسية المصرية والعربية حاليا بنزعة سلفية واضحة المعالم. فالمرجعية الاساسية للعديد من التيارات السياسية المتواجدة على هذه الساحة هى مرجعية تاريخية تعود جذورها إلى مراحل بعيدة أو قريبة من ماضينا العربى الاسلامى.

ومن اهم هذا التيارات التيار الاصولى الذى قوى واستشرى فى ربع القرن الاخير والذى يحلم اتباعه بإعادة العصر الذهبى للامة الاسلامية سواء فى عهود الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أو فى العصر الذى كانت فيه بغداد الاشعاع الحضارى والثقافى للعالم اجمع أو فى حقبة الاندلس التى عرفت فيها حضارة الاسلام واحدة من ازهى عصورها.

وكما هو معلوم للجميع فانه فى الوقت الذى كانت فيه الحضارة العربية الاسلامية تتلألأ وتبسط اضواءها على العالم اجمع كانت اوروبا تصلى بنار التخلف فكان عالم الجنوب هو العالم المتقدم على كافة المستويات وعالم الشمال هو دنيا التخلف والانحطاط. وكانت اوروبا فى تلك العصور ترفض تماما اية افكار وافدة اليها من بؤرة النور التى كان يمثلها العالم العربى الاسلامى على اساس ان كل ما يأتى منه هو من وحى الشيطان.

وكان الحكام والقائمون على الكنيسة فى القرون الوسطى الاوروبية يحكمون اغلاق حدودهم فى وجه الافكار والاراء التى كان يعتمل بها العالم العربى الاسلامى فى ذلك الوقت. وكانت آراء ابن سينا وابن رشد تعد فى نظر المهيمنين على اوروبا آنذاك هرطقة تستحق الحرق. وكانت محاكم التفتيش التى نشرت الذعر فى قلوب سكان اوروبا فى العصور الوسطى تعتبر فلسفة ابن رشد بالذات

خطرا داهما على الكنيسة وعلى استقرار الحكم فى الممالك الاوروبية بسبب افكار الاستنارة والانفتاح العقلى التى كانت تحملها.

اما الحضارة العربية الاسلامية فقد شيدت فى عصرها الذهبى على اكتاف عباقرة استلهموا من الدين الاسلامى حب المعرفة وطلب العلم والالتزام بقيم الحق والعدل. وقد قامت تلك الحضارة الفذة لان رجالها كانوا ينظرون إلى الامام وليس لانهم كانوا ينظرون إلى الخلف. ولم يستنكف العرب والمسلمون الاوائل من ان ينهلوا من الحضارات التى سبقتهم بل استوعبوا الحضارة اليونانية الاغريقية ونقلوا عن حضارة فارس والروم برغم ان شعوب بعض هذه المناطق كانت قد صارت جزءا تابعا للدولة الاسلامية وكان بوسع العرب طمس هوية هؤلاء وفرض القيم والمثل والثقافة العربية عليهم بالقوة بدلا من الاستفادة مما وصلوا اليه من مدنية.

وبعد مئات السنين من ازدهار الحضارة العربية الاسلامية بفعل انفتاحها على المستقبل نجد فى غالبية البلدان العربية اليوم حركات تنجذب إلى الماضى وتسعى إلى استعادة ما فات من زمن.

فالحركة الوهابية فى المملكة العربية السعودية والحركة المهدية فى السودان تتجه انظار اتباعهما إلى القرنين الماضيين كأساس لتدبير شئون الحياة اليومية فى نهاية القرن العشرين. كما نجد فى العالم الاسلامى خلافات حول من احق بالخلافة أهو سيدنا على بن ابى طالب ام سيدنا ابو بكر أو عمر أو عثمان ؟ ومن هو الامام المهدى المرتقب أهو الامام السابع ام الثانى عشر من ابناء سيدنا على ؟

أما انصار نهاية التفكير فلا يطرحون فكرة واحدة تتعلق بالحاضر والمستقبل لان مرجعيتهم الوحيدة والدائمة هى الماضى دون ان يدركوا ان الدين الاسلامى يحوى حركة التاريخ ولا يطالب بالتجمد والانكفاء على الذات وعلى ما فات.

وليست المرجعية السلفية بالضرورة مرجعية دينية كما هو الحال بالنسبة للامثلة السابقة. فإذا نظرنا إلى مصر التى كانت دائما مصدرا ملهما للفكر الثقافى والسياسى العربى نجد ان غالبية الاحزاب والتيارات السياسية تستند إلى مرجعية سلفية وحنين إلى امجاد الماضى والعهود السالفة. فحزب الوفد مثلا يسعى إلى اعادة عهد ما قبل ثورة ٢٣ يوليو لاقتناع مؤيديه بان الثورة أفسدت

الحياة فى مصر وان عصر الباشاوات كان يتمتع تحت مظلته الشعب المصرى بالرخاء والديمقراطية. وتقوم كل دعاية حزب الوفد على تمجيد حقبة ما قبل الثورة وخاصة فيما يتعلق بالديمقراطية والحياة النيابية التى كانت سائدة فى مصر.

اما التيار الناصرى فيحلم باعادة انجازات الزعيم الراحل جمال عبد الناصر والمشروع القومى الذى سعت مصر إلى تحقيقه آنذاك مع إغفال ان مرحلة التحرر الوطنى وتصفية الاستعمار واحلام الاستقلال الاقتصادى الكامل والتى حملت آمالا عظيمة لكافة شعوب العالم الثالث هى مرحلة وئدت بتخطيط وتنفيذ قوى عظمى تناقضت مصالحها مع هذه الصحوة. واليوم تغيرت معطيات الصراع الدولى تماما عن العصر الذى حمل فيه الزعيم الراحل عبد الناصر شعلة النضال من اجل الكرامة والاستقلال التام.

واما حزب العمل فهو ينتمى إلى التيار الاصولى العام الذى يعترف بان هدفه هو اعادة العصر الذهبى للاسلام فى القرون الاولى للدعوة.

هذا مع ان سبب وجود الاحزاب ودورها الرئيسى فى الحياة العامة هى النظر إلى الحاضر والتخطيط للمستقبل. فالاحزاب فى اوروبا وفى امريكا تقوم على استقراء الواقع الحالى لبلادهم ومحاولة تقديم روشتة للشفاء والتطور تستند إلى معطيات المجتمع فى اللحظة التاريخية الحالية التى تختلف اختلافا اساسيا عن اى لحظة تاريخية اخرى حتى وان كان التاريخ يعيد نفسه وان هناك دائما اوجه للتشابه بين كل الحقب التاريخية.

والحزب الوحيد فى فرنسا الذى ترتكز مرجعيته إلى الماضى هو الحزب الديجولى. لكن هذا الحزب الذى كان يرأسه الرئيس الفرنسى جاك شيراك لايستلهم من الزعيم الفرنسى الراحل ديجول سوى المبادىء العامة ولا يفكر احد فى اتباع سياسة زعيم فرنسا الراحل بنصها وحذافيرها أو استعادة امجاد هذه الفترة اليوم على الرغم من ان ديجول كان يحكم فرنسا حتى ١٩٦٩ فقط وليس من نصف قرن أو من مئات السنين.

وفى ظنى ان المأزق الذى يتخبط فيه العقل العربى هو نتيجة طبيعية لهذا التوجه الدائم إلى الماضى مع ان عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء وان من يريد ان يتطور عليه ان يتوجه بأنظاره إلى المستقبل دون ان يتنكر لتاريخه وقيمه ومبادئه خاصة اذا كان مبعثها حضارة عظيمة كالحضارة العربية الاسلامية.

الفصل الرابع

من يخاف من الإسلام

إلى هؤلاء نوجه رسالتنا

«**نعم**، الإسلام يثير الخوف» بهذه الجملة استهلت مجلة لونوفيل اوبسرفاتير الفرنسية عددها الصادر فى بداية شهر ديسمبر ١٩٩٤ والذى خصصت غلافه للإسلام تحت عنوان: «مقاومة التطرف الدينى». وبرغم ما تنبىء به الجملة الأولى من تهجم غير برىء على الإسلام دأب عليه البعض فى الإعلام الغربى فإن المقال الافتتاحى للملف المخصص للإسلام كان تحليلا هادئا وموضوعيا اعتقد أنه من المفيد تلخيصه هنا. فبعد الجملة الأولى التى تؤكد أن الإسلام يثير الخوف يقول المقال: وكيف لايكون ذلك وهناك مثقفون وأطباء وصحفيون يقتلون فى الجزائر التى ذبحت بها فتاة أمام موقف اوتوبيس لأنها لاترتدى الحجاب كما أن هناك شابا فى القاهرة حاول قتل رجل مسن يعتبر فخر مصر (يقصدون الأستاذ نجيب محفوظ) وكل ذلك باسم الدين والقرآن .

وتضيف المجلة أنه من الخطأ البين أن نستخلص من ذلك أن كل مسلم متطرف أو أن الدين الإسلامى دين رجعى لأن هذا يعد تبسيطا مخلا للحقيقة ومثيرا للمشاعر العنصرية أو للأحقاد التاريخية فى الغرب. وتقول المجلة أن هذا التطرف الدينى خطر على الغالبية العظمى من المسلمين الذين يمثل التطرف بالنسبة لهم كابوسا حقيقيا. ويؤكد المقال أن هناك من يتصدون للتطرف فى الدول الإسلامية لكن العنف الذى يمارسه المتطرفون أصبح يخيفهم. وتقول لونوفيل اوبسرفاتير فى النهاية أن التطرف يطل برأسه فى وقت الأزمات ويختفى فى أوقات الرخاء وتضيف بالحرف أن الإسلام بوسعه أن يضىء العالم اجمع عندما يشع بتنوعه ويتقبل هذا التنوع. فالإسلام منذ البداية قد اظهر وجها يتسم بالعدالة والتقدمية والصبغة العالمية وتلك هى العودة إلى الأصول الحقيقية

وبالتالى فلا يوجد سبب واحد يجعلنا نترك الإسلام بين ايدى المتعصبين وعلينا أن نضع آمالنا فى أتباع ابن رشد وليس فى أتباع الخومينى .

يدل هذا الملخص الوافى للمقال على أن البعض فى الغرب يلقون على الإسلام نظرة موضوعية وقد سمعت بأذنى وزير الداخلية الفرنسى السابق شارل باسكوا يقول خلال مأدبة غداء مع السفراء العرب المعتمدين فى باريس أن الإسلام دين كبير وجدير بالاحترام وأن بلاده تكفل حرية ممارسة شعائر الدين الإسلامى تماما بنفس القدر الذى تفعله مع الأديان الأخرى ومنها المسيحية وأن كانت لايمكن أن تقبل حسب قوله أن يتستر البعض فيها بعباءة الإسلام للأضرار بمصالح فرنسا.. وهو كلام من الصعب أن نلوم عليه الوزير الفرنسى .

لكن موقف الغرب من الإسلام أمر فى غاية التعقيد ويعد كل ما سبق جانب واحد من النظرة التى يلقونها على عالمنا والتى علينا أن ندركها ونحللها بعناية فائقة. أما الجانب الآخر فهو الحملة المغرضة التى تخلط عمدا بين الإسلام والتطرف وتريد أن تقنع الرأى العام الغربى أن وراء كل مسلم قاتل مستتر. ومن يتابع الإعلام الغربى فى الفترة الأخيرة يتصور أن أعظم كاتبين فى نهاية القرن العشرين هما سلمان رشدى وتسليمه نسرين فى حين أن هناك اليوم أكثر من خمسين أديبا فى العالم يتفوقون بوضوح على سلمان رشدى. أما تسليمه نسرين فإن مرتبتها الفعلية فى عالم الأدب العالمى أكثر من متواضعه ولم يكن اسمها ليذكر مرة واحدة فى حياتها بأصغر صحيفة غربية فى ظروف عادية. وقد قامت بزيارة لفرنسا فى صيف ٩٥ فاستقبلت بحفاوة مذهلة بدعوى الدفاع عن حرية الرأى والتعبير وقد ظهر وجهها على غلاف مجلة لونوفيل اوبسيرفاتير فى العدد الذى اشرت إليه فى البداية.

هناك إذن فى الغرب من يناصبون الإسلام العداء لأسباب متعددة وفى غاية التعقيد منها على سبيل المثال من يخططون لتحويل الإسلام إلى غول مخيف يحل فى الضمير الجماعى للشعوب الغربية محل الشيوعية. لكن هناك من يحاول أن ينظر إلى ديننا نظرة موضوعية فى خضم الاخبار الصحيحة والمدسوسة عن العنف الذى يمارسه البعض عندنا باسم الإسلام. وفيما يتعلق بالفئات الأولى فلو اتيناهم بأقوى الحجج وبالبراهين التى لاتحتمل الجدل حول نبذ الإسلام للعنف

ودعوته للعدل والاخاء والمساواة لكان ذلك جـ.ـدا ضائعا لأن موقفهم من الإسـلام ثابت لايتغير ووراءه أغراض مؤكدة أو احقاد دفينة .

أما الفئـات الثـانيـة فإن نظرتهم لديننا تغـذيهـا صـور العنف والتطرف التى يصدرها البعض عندنا ويضـخمها اعداء الإسلام بوعى وتخطيط حتى يقترن ديننا دائمـا فى اذهـان شـعـوبهم بالتـعـصب والتـعنت ورفض الرأى الآخـر والعنف والارهاب. ولهؤلاء يجب أن نوجه رسـالتنا التى تؤكد على سماحـة الإسلام ورحابة صدر تعاليمه وصفاء نفس المؤمنين به. ولايجب أن ننساق وراء البعض عندنا من أصحـاب الأصوات العالية الذين يعانون من عقدة الحصـار ويتصورون أن العـالم غيـر الإسـلامى كله لايضـمر لديننا إلا الحقـد والكراهية ولايعـمل إلا على تدمـير الإسـلام والمسلمين وبالتالى فإن علينا أن نرد لهم الصـاع صاعين وأن نسـعى إلى تحطيمهم باسم الدين. هؤلاء لم يدركوا أن العالم قد تغير جذريا خاصة منذ انتهاء الحـرب العـالميـة الثـانيـة وأن التـصـادم القـديم بين الحـضـارات لم يـعـد ممكنا بالأسـاليب القديمة وأن كـان التناقض بينها موجوداً ومستمراً لكن بقواعد جديدة علينا أن ندركها ونفـهـمها ونعمل بها وإلا فسوف ندخل فى مواجـهات نتـحمل مسئوليتها أمام شعوبنا وأمام العالم أجمع .

الرأى العام الغربى والإسلام

مقال خطير نشر فى جريدة ليبراسون الفرنسية بتاريخ ٩٥/٧/٣ بقلم عالم الاجتماع الفرنسى جان بودريار ولم يلفت انتباه أحد على الرغم من أهميته الكبيرة فى نظرى. وتكمن خطورة المقال فى أنه يعرض وجهة نظر مختلفة تماما عن كل ما يكتب ويقال فى الغرب عن العلاقة مع الإسلام وهى من المرات القليلة التى تطرح فيها مثل هذه الأمور بصراحة على لسان أحد المفكرين الغربيين وفى واحدة من أهم صحف فرنسا وأوروبا .

يقول كاتب المقال فى بدايته أن الرأى العام الغربى قد اعترف أخيرا وبعد ثلاث سنوات كاملة أن الجانب المعتدى فى الحرب الدائرة بيوغسلافيا السابقة هم الصرب.. لكن أحدا لم يستخلص النتيجة العملية لهذه الحقيقة الواضحة، والحقيقة كما يقول هى أن الصرب هم حلفاء الغرب الموضوعيين فى عملية التنقية العرقية التى تتم من أجل أن تتخلص أوروبا من الأقليات غير المرغوب فيها ومن أجل اقامة نظام عالمى جديد تختفى فيه أى معارضة راديكالية لقيم الغرب التى وصفها الكاتب بأنها قيم الدكتاتورية الديمقراطية لحقوق الانسان وشفافية آليات السوق.

ويضيف بودريار أن الغرب قد صنف الصرب كمعتدين لكنه يأبى أن يضعهم فى مصاف الاعداء. والسبب كما يقول «أننا نحن الغربيين ونحن الأوروبيين نحارب نفس العدو الذى يحاربه الصرب وهو الإسلام والمسلمين». ويضيف أن الغرب قد يلقى على الصرب بعض قنابل الدخان لكنه لن يتدخل بصورة حاسمة ضدهم نظرا لأنهم كما يقول يقومون بنفس العمل الذى يقوم به الغرب. ويقول

بودريار أنه لو كان لابد من التدخل فإن ذلك سيتم على حساب الضحية وهم مسلمو البوسنة وأن قوة التدخل السريع التى انشئت ستكون فى غاية الفعالية لمواجهة أى تحرك من جانب مسلمى البوسنة. ويرى الكاتب أنه لولا هذا التحالف الموضوعى بين الغرب والجانب الصربى لانتهت الحرب فى يوغوسلافيا السابقة منذ زمن طويل .

نفس السيناريو - ولا زال الكلام لعالم الاجتماع الفرنسى - تم مع صدام حسين خلال حرب الخليج وبعدها. فقد «حاربناه بهجوم اعلامى وتكنولوجى لكنه كان فى واقع الأمر حليفنا الموضوعى ضد إيران والأكراد والشيعة». ثم يضيف أن الغرب يواجه الصرب بليونة بدعوى اقامة أوروبا متعددة الثقافات.. لكن واقع الأمر هو أن ضحية هذه الحرب هى الثقافة الأخرى التى تتعارض مع نظام دولى بلا قيم يريد أن يفرضه الغرب على الجميع .

هذه بايجاز الأفكار الأساسية التى طرحها بودريار فى مقاله القيم الذى تناقلته أقوال الصحف صباح يوم ٩٥/٧/٣ فى أهم الاذاعات الفرنسية. ويستوجب هذا المقال مجموعة من الملاحظات أهمها :

أولا: أنه على الرغم من تناقض كل الأفكار المطروحة فى هذا المقال مع التيار السائد فى وسائل الاعلام والأوساط السياسية فى الغرب فإن صحيفة كبيرة مثل ليبراسيون حرصت على نشره وابرازه كما أن الاذاعات الفرنسية لم تحجم عن ذكره وقراءة مقتطفات منه على الهواء.

ثانيا : أن المثقفين فى فرنسا وأوروبا لعبوا دورا هاما فى هذا التطور الذى يصفه الكاتب بأنه الحد الأدنى وهو الاعتراف بأن الصرب هم الجانب المعتدى ولولا الحملة التى شنها العديد من الكتاب وأصحاب الرأى الحر فى أوروبا وخاصة فى فرنسا لظل الرأى العام الغربى مقتنعا بعدالة موقف الصرب وبأن مسلمى البوسنة ليسوا ضحايا هذه الحرب القذرة.

ثالثا : أن هناك فى الغرب من يملك شجاعة الافصاح عن الموقف الذى يغلف عادة بكلمات منمقة تخفى حقيقة لا جدال فيها وهى عداء البعض فى الغرب

للإسلام ورفضهم له فى أى شكل من الأشكال. ومن المؤكد أن هناك تيارا قويا بين كافة الفئات فى الدول الغربية يناصب العداء للإسلام لأسباب تاريخية وثقافية ودينية لا تخفى على أحد وقودها التعصب وضيق الأفق والجهل بالدين الإسلامى وبقيم التسامح والانفتاح التى يحملها فى رسالته السماوية .

رابعا : أن الاتجاه الغالب فى الغرب الآن هو بسط القيم والمثل التى توصل إليها بعد تجربته الحضارية الخاصة به إلى كافة دول ومناطق العالم. وقد أصبح هذا الهدف مسيطرا على عقول كبار ساسة الغرب كالهاجس حيث لايقبلون مناقشة رؤيتهم الخاصة للعالم ويسعون إلى فرضها على الجميع. وقد سخروا الاقتصاد والمساعدات المالية التى تقدمها الدول الغربية للضغط على الدول الرافضة لهذا التوجه من أجل حملها على الاذعان لنظرة الغرب للعالم. وهناك توجه لاستغلال قيم كحقوق الانسان من أجل لى ذراع بعض الدول «المتمردة» التى ترفض الوصاية الغربية فى كل شىء .

وبعد هذه الملاحظات فانه لابد من وقفه عند نظرة الغرب للإسلام. فهناك فى العالم العربى والإسلامى من يحلو لهم تبسيط هذه النظرة وتصوير الأمر وكأن الغرب يشن حملة صليبية جديدة على العالم الإسلامى. وقد سمعت أحد كبار المثقفين الفرنسيين يدلى بحديث لاذاعة فرانس انتير أكبر اذاعات فرنسا قال فيه أنه عرض فى بدايات العدوان الصربى ضد البوسنة على الرئيس البوسنى على عزت بيجوفيتش تشكيل كتائب لمقاومة الاعتداءات الصربية. وقد رفض بيجوفيتش هذه الفكرة بشدة قائلا أنه لايريد أن يحول البوسنة إلى افغانستان آخر ولا يحب لبلاده أن تكون بؤرة للتطرف الدينى. فالخوف من التطرف المتستر بعباءة الإسلام غير قاصر إذن على الغرب ولكن العديد من المسئولين وغير المسئولين فى العالم الإسلامى يخشون شوكة التعصب الأعمى الذى يضر بمصالح المسلمين ويسىء إلى صورة ديننا الحنيف فى العالم اجمع. وإذا كانت قد صدرت تصريحات سخيفة فى الغرب تشير إلى الخطر الإسلامى فإن هناك تصريحات أخرى تضع الأمور فى نصابها وابرزها تصريحات شيراك التى تشيد بالإسلام وتعاليمه السمحة وتفرق بموضوعية بين الإسلام والذين يستغلون الدين لاغراض سياسية

لا عـلاقة لهـا به. وهذه النزعة لاستـغلال الدين هـى التى تخـيف الرأى العـام فى الغرب ويستغلها اعداء الإسلام اسوأ استغلال .

وفى النهاية فإن موقف الرأى العام الغربى والعالمى من الإسلام قد تكون له دوافع خاصة بهم لكن المسئولية الأساسية تقع على عاتقنا بعدم تصدير صورة مشوهة عن ديننا الحنيف وتقديم الوجه السمح والمنفتح على الآخرين وهو الوجه الحقيقى للدين الإسلامى كما جاء بكتاب الله وكما مارسه سيدنا محمد على امتداد حياته عليه الصلاة والسلام .

أما الصورة التى يصدرها دعاة نهاية التفكير وجماعات الإرهاب المسلح عن ديننا الحنيف فهى التى تثير قلق العالم غير الإسلامى.. ومن الصعب أن نلومهم على ذلك.

هل هناك دولية للتطرف الدينى ؟

محاولة الاعتداء التى نجا منها الرئيس حسنى مبارك فى يوليو ١٩٩٥ بأديس أبابا طرحت بالحاح سؤالا هاما دفع الدوائر الغربية إلى محاولة ايجاد اجابة قاطعة له : هل هناك دولية للتطرف الدينى المتستر بعباءة الإسلام ؟ من الثابت أن هناك تنظيمات ارهابية متطرف تمتد جذورها فى العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية لكن هل هناك رابطة ما بينهم ؟ هل هناك عقل مدبر وراء كل هذه التنظيمات والتجمعات ؟ هل هناك تنسيق وتعاون فيما بينها ؟ هل هناك تمويل مشترك ولقاءات لاتخاذ مواقف موحدة وتقديم العون والمساعدة لبعضهم البعض ؟

الخلاصة التى خرجت بها غالبية الأوساط ووسائل الاعلام الفرنسية هى أن هناك بالفعل تضامن وتآزر بين القوى والتنظيمات المتطرفة فى العالم برغم اختلاف الدول والقارات التى تنتمى إليها وأن هذه القوى تتخذ من بعض الدول الأوروبية نقاط ارتكاز لتمويل الحركات الارهابية فى الدول الإسلامية وامدادها بكل ما يلزمها من مال وسلاح وغير ذلك .

وقد نشطت أجهزة الأمن فى كافة دول العالم على أثر محاولة اديس ابابا الفاشلة التى تعد تصعيدا خطيرا للعمل الارهابى الدولى. ففرنسا على سبيل المثال قامت بإنشاء جهاز جديد بوزارة الدفاع مهمته هضم وتحليل كل ما يكتب أو ينشر عن الجماعات المتطرفة التى تستخدم الإسلام لتحقيق اغراض سياسية لا علاقة لها بالدين. وسيكون هذا الجهاز أداة خطيرة لرصد الدولية المتطرفة فى العالم وتطور أساليب ومنهاج التنظيمات والجماعات الارهابية فى العالم اجمع .

وتعتبر مجلة الاكسبريس الفرنسية فى تحليل لها عن ظاهرة التطرف أن أسامة بن لادن الذى اسقطت عنه المملكة العربية السعودية الجنسية لعب دورا

محوريا فى تقوية شوكة التطرف على الصعيد العالمى. وتقول المجلة أن بن لادن من أصل يمنى وتحديدا من محافظة حضر موت وأنه بنى ثروة طائلة بالسعودية فى مجال البناء والاشغال. وتقول أن بن لادن كان وراء تمويل «بيت الأنصار» فى بشاور الذى ارسل آلاف المتطوعين للقتال فى افغانستان ضد الجيش السوفيتى المحتل. وتؤكد الاكسبريس أن هذه العملية كانت النواة لما تسميه «الانتفاضة العالمية» أى انتشار هؤلاء المتطوعين بعد انتهاء حرب افغانستان فى العديد من الدول الاسلامية وغير الاسلامية لنشر الفكر المتطرف بقوة السلاح. وتشير المجلة الفرنسية إلى تقرير لاجهزة الأمن بالفيلبين صدر فى شهر ابريل الماضى مؤداه أن التنظيم الذى انشأه بن لادن متوغل فى ١٣ دولة هى ألبانيا والامارات العربية المتحدة والعراق والأردن ولبنان وماليزيا والمغرب وباكستان وهولندا ورومانيا وروسيا وسوريا وتركيا. وتقول المجلة أن بن لادن يقوم بتويل تنظيم ارهابى فى الفيلبين يدعى «حركة أبو سياف».

وتؤكد الاكسبريس أن الحركات المتطرفة التى تتستر وراء الدين صارت تستخدم المنظمات الانسانية أو الثقافية كغطاء لنشاطها الارهابى المتطرف. وتستند المجلة إلى تقرير لجهاز المخابرات الفرنسية صدر فى مارس ١٩٩٥ لتؤكد أن النظام السودانى الحاكم أصبح خبيرا فى المناورة بهدف استخدام المنظمات الانسانية غير الحكومية لاغراض لا علاقة لها بعمل هذه المنظمات. ويشير تقرير المخابرات الفرنسية إلى وكالة الخلاص الإسلامى ومقرها الخرطوم ولها مكاتب فى أوروبا وبيشاور والبوسنة والولايات المتحدة. وتخرج الاكسبريس بنتيجة واضحة وهى أن هناك حاليا دولية للتطرف المتستر وراء الدين. وتختم تحليلها بأن وراء هذه الظاهرة كيان غير تابع لأى دولة أو حكومة يعمل فى الخفاء ويتحكم فى مليارات الدولارات وعلى الرغم من أنه يبدو سلميا إلا أن بقدرته أن ينقل آلاف المقاتلين من قارة إلى أخرى وهذا الكيان كما تقول هو التنظيم العالمى للاخوان المسلمين .

وعلى الرغم من اختلاف الظروف والأهداف والمقاصد فإن البعض لا يتردد فى رصد اوجه الشبه بين التنظيمات الارهابية الحالية وبين الحركات الارهابية التى هزت أوروبا فى السبعينات. ولعل أهم اوجه الشبه هى أنها تنظيمات عنقودية

تقوم على السرية وعلى تنفيذ أعراض سياسية عن طريق العنف المسلح. وقد شاهدت منذ أسابيع قليلة برنامجا فى التليفزيون الفرنسى عن الحركات المتطرفة التى كانت ترهب أوروبا والعالم ومنها جماعة بادر ماينهوف الالمانية والألوية الحمراء الايطالية وغيرها. وكان البرنامج زاخرا بالمعلومات الجديدة حول الأشخاص الذين قاموا باخطر العمليات الارهابية وحول آليات هذه التنظيمات والقوى التى كانت تقف وراءها. وقد قدم البرنامج واحدا من نجوم ثورة الطلبة فى فرنسا عام ١٩٦٨ ويدعى دانييل كوهن بنديت وهو يعيش الآن فى المانيا. وقد ظهر الارهابيون القدامى وبعضهم فى السجون بوجوههم سافرة باستثناء واحد كان يعمل مع كارلوس الارهابى الشهير الموجود حاليا باحد السجون فى فرنسا بعد أن أحضرته المخابرات الفرنسية من السودان. ويتضح من البرنامج الذى اذيع على عدة حلقات كم كانت هذه التنظيمات متشابكة ومتصلة ببعضها البعض. وكانت هذه التنظيمات وبعضها من أمريكا اللاتينية تحظى بتعاطف ومساندة من أطراف عديدة ومنها دول كانت تتبنى النظرية الشيوعية. واتضح أن مثل هذه التنظيمات لايمكن أن تتواجد وأن تستمر لولا المساعدات الخارجية والدعم المادى والمعنوى والامدادى من أطراف متعددة. كما اتضح أن مثل هذه التنظيمات لايمكن أن تستمر طويلا فى ارهاب الشعوب وترويع أبنائها مهما اتخذت شعارات براقة .

وظاهرة التأييد الجماعى للرئيس مبارك التى شاركت فيها كل فصائل الشعب المصرى بما فى ذلك المعارضة تستحق التأمل واستخلاص النتائج الصحيحة. والأرجح أنها تدل على رفض الشعب المصرى الصارم للعنف والارهاب والتطرف وضرورة التصدى لهذه الآفات بشجاعة وبكل الوسائل المتاحة. وقد جاءت العملية الارهابية الخسيسة فى أديس أبابا بعكس ما كان يتوقعه مخططوها ومنفذوها الذين وقعوا فى خطأ محاولة المساس برمز الدولة.

لكن المهم هو فهم الإرهاب على وجهه الصحيح أى على أنه إفراز طبيعى لآراء وأفكار ونظريات تدعو للتطرف وضيق الأفق وتكفير المجتمع.

آفتنا التعصب الدينى وآفتهم العنصرية

تهب على العالم منذ عدة سنوات رياح مسممة تحمل تيارات خطيرة من العنف والتعصب تصور الكثيرون انها تلاشت عندما افاق العالم من كابوس الحرب العالمية الثانية. لكن من يقرأ صحف الغرب ويتابع وسائل اعلامه يتصور ان تلك الرياح العاتية لا تهب الا على الجنوب الفقير وان التعصب المتستر وراء الدين الاسلامى هو الخطر الأوحد الذى يهدد البشرية وبالتالى فان استئصاله سيعيد الى الانسانية وجهها المشرق.

انما الواقع الذى يعيشه العالم منذ سنوات يناقض هذه الرؤية الاحادية التى لا ترى المشكلات الا فى جانب واحد وتحمل الدول النامية وحدها الاخطار المحدقة بالعالم اليوم. ففى الشمال الغنى الذى قطع بلا جدال شوطا ضخما فى طريق التقدم المادى والثقافى بدأت تتصاعد مجددا مشكلات هزت اوروبا وامريكا قديما ووصلت إلى ذروتها باندلاع الحرب العالمية الثانية ثم تصور الجميع انها اقتلعت تماما من الوجدان الغربى.

وعلى رأس هذه المشكلات آفة العنصرية البغيضة ونزعة القوميات التى تقوم على التعصب العرقى ورفض الاخرين. وقد أدت هذه النزعة إلى اندلاع حرب اهلية فى قلب اوروبا وتفسخ دولة يوغسلافيا بعد ان اطمأن سكان القارة الاوروبية إلى ان صوت المدافع قد توقف إلى الابد فوق ارضها باستسلام المانيا النازية فى ٨ مايو ١٩٤٥.

ومن حق الغرب ان يتخوف من النزعات المتطرفة التى تتستر باسم الاسلام زورا وبهتانا والتى تقلق المسلمين أنفسهم فى دول العالم الثالث قبل شعوب وسكان الشمال. لكنه من الظلم ان يوصف التطرف الاسلامى أو بمعنى ادق

المتستر بعباءة الاسلام بانه يشكل الخطر الداهم الوحيد على سلامة الانسانية واستقرار شعوب العالم كما يحاول البعض ان يوهمنا اليوم.

وعلى نفس هذا النسق قرأت في عام ٩٥ اعلانا ضخما باحدى كبريات الصحف الفرنسية يحتج فيه البعض على عدم مشاركة الكاتبة الباكستانية تسليمة نسرين في بعض الندوات والتظاهرات الثقافية في فرنسا وعدم منحها تأشيرة دخول على اساس ان ذلك يعد اعتداء صارخا على حرية الرأى والتعبير فرضته قوى الاسلام المتطرفة. وقد رضخت الحكومة الفرنسية آنذاك لضغوط الاعلام وبعض الاوساط في فرنسا وكانت تسليمة نسرين نجمة باريس لمدة اسبوع.

لكن اذا كانت حرية الرأى والتعبير في نظر هذه الاوساط هي قيمة مطلقة ينبغي الا تخضع لاى نوع من انواع القيود فلماذا يحرم البعض من ممارستها في قلب فرنسا وهي في طليعة الدول التي ارست اسس الفكر الحر والحق في التعبير عنه ؟

فهناك بعض الكتاب مثل روبير فوريسون وهنرى روك وغيرهما كثيرون يكتبون ويعملون في السر لانهم ينكرون وجود غرف الغاز وتعرض اليهود للاضطهاد على ايدى النازية أو على الاقل يشككون في هذه الحقائق. بل ان الفيلسوف روجيه جارودى قد تعرض لحملة ترقى إلى مستوى الاغتيال المعنوى بسبب كتابه : « الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية » الذى صدر عام ٩٦ وادانته محكمة فرنسية وحكمت عليه بالتعويض نتيجة لآرائه التي عبر عنها في الكتاب والتي لا تدعو إلى القتل أو الفتك باليهود لكنها تهاجم سياسة الدولة الاسرائيلية وترجع اصولها إلى الاساطير التي روجها زعماء اليهود منذ نشأة الديانة اليهودية واسهمت في ظهور الدولة العبرية إلى الوجود عام ١٩٤٨.

واذا كنت انا شخصيا لا اقر آراء التوجه الذى يوصف الداعون اليه بالمراجعين والذين ينفون اضطهاد اليهود على ايدى النازية الا ان حرمان هؤلاء من ابداء آرائهم والتعبير عنها في حرية هو اقرار عملي بان هناك بعض المحاذير حول مسألة حرية التعبير وان بعض الاراء والافكار قد تكون اكثر خطورة من المدافع والقنابل.

واذا كان هؤلاء المراجعون لا يتعرضون فى فرنسا أو غيرها من الدول الغربية للتهديد بالقتل الا ان الذين ينادون بمنعهم من التعبير عن آرائهم لا يحق لهم بعد ذلك ان يهللوا ويلوموا المسلمين الذين يحاولون منع سلمان رشدى وتسليمة نسرين من النشر والكتابة.. والا فهو الكيل بمكيالين.

ومحاولة ابراز مشكلات العنصرية ونزعة القوميات فى الغرب لا تعنى التهوين من قضية التطرف الدينى التى تمزق مجتمعاتنا الاسلامية ولا يمكن ان تكون تبريرا وذريعة للغلو والتعصب اللذين يمثلان التحدى الاساسى لنا على اعتاب القرن الواحد والعشرين. ولا يكفى ان نشير إلى مشكلات العالم المتقدم ثم نضع رؤوسنا فى الرمال كالنعام ونغفل المأساة التى نعيشها.

لكن محاولة استقراء وجه العالم الحالى شمالا وجنوبا تجعلنا نقول انه لا يوجد طرف يملك حق اعطاء الدروس للطرف الاخر لان الرياح الملوثة تهب على الجميع فى هذه الايام ويتحتم على الجميع تعبئة كل الامكانيات واستنفار كافة الجهود لمواجهة هجمة التخلف والانكماش على الذات والعودة إلى الوراء التى يزينها دعاتها بالمبادىء السامية أو برداء الدين فى الشمال والجنوب.

متى نهتم بقواعدنا البشرية فى الخارج ؟

شاهدت فى التليفزيون الفرنسى فى بداية عام ١٩٩٥ برنامجا اختار له معدوه عنوان: «الإسلام فى فرنسا».. ولم يكن هذا العنوان اختيارا عشوائيا حيث كثر الحديث فى الأعوام الماضية بأوروبا عن استحالة اندماج المسلمين فى المجتمعات الغربية على أساس أن قيم وتعاليم الدين الإسلامى تتناقض مع المبادىء الأساسية التى تقوم عليها هذه المجتمعات. وكان الهدف الحقيقى من وراء البرنامج هو اثبات عكس هذه المقولة وأنه من الممكن تماما أن يكون الانسان مسلما مؤمنا وممارسا لشعائر دينه دون أن يكون فى ذلك أى تعارض مع اقامته فى فرنسا وهى دولة علمانية تفصل بين الدين والسياسة لكنها تحترم جميع الأديان .

ولعل أكثر ما جذب انتباهى للوهلة الأولى هو هوية المدعوين للحديث والتعليق فى هذا البرنامج إذ كان نصفهم من المسلمين وهو مالا يحدث عادة فى تليفزيونات الدول الغربية. لكنه من أجل التدليل على الحقيقة التى أراد القائمون على البرنامج ابرازها فقد كان معظم هؤلاء المسلمين من الذين انصهروا تماما فى المجتمع الفرنسى ومن الذين نعتبرهم أحيانا قد فقدوا هويتهم الوطنية والدينية وانسلخوا عن قيمنا ومبادئنا فهم يجيدون الفرنسية أفضل مما يعرفون لغتهم العربية الأم.

وقد أثلج صدرى أن هؤلاء كانوا من أفضل المدافعين عن الإسلام واستبسلوا فى اظهار وجهه المضىء وفندوا بحجج وجيهة وجود أى تعارض بين قيم الإسلام الأساسية وبين المبادىء التى تقوم عليها المجتمعات الحديثة وإمكانية تواؤم المسلم مع المجتمع الغربى الذى اختار الاقامة فيه دون أن يفقد هويته الدينية أو أن

يتقاعس فى أداء شعائر دينه. وكان من بين المسلمين المدعوين رجل «حركى» وهى الكلمة التى تطلق على الجزائريين الذين اختاروا جانب فرنسا وقت حرب التحرير الجزائرية وحاربوا إلى جانب الجيش الفرنسى ضد جبهة التحرير الوطنية ثم فروا إلى فرنسا عند استقلال الجزائر عام ١٩٦٢. وقد تربينا على اعتبار هؤلاء خونة لوطنهم. لكن مع مرور الزمن عفت عنهم الجزائر نفسها وأصبحوا يزورون وطنهم الأصلى دون أى مشكلات. وكان هذا الحركى من أكثر المتحمسين للدفاع عن الإسلام والحديث عن قيمه ومبادئه السمحة.

ولولا هذا الوجود الإسلامى لاتخذ البرنامج اتجاها مختلفا تماما كما رأيت كثيرا من قبل. فقد كان من بين المدعوين رجل معروف بموقفه غير المنصف من الإسلام ويدعى جان كلود بارو وكان أحد مستشارى وزير الداخلية الفرنسى السابق شارل باسكوا وقد ألف كتابا بغيضا بعنوان: «عن الإسلام بصفة عامة وعن العالم الحديث بصفة خاصة» وقد وجد هذا الرجل نفسه فى وضع دفاعى واضطر لاتخاذ موقف معتدل وأكثر توازنا من الدين الإسلامى.

صحيح أن بعض ما قاله هؤلاء قد لايعجبنا كثيرا ومن ذلك ما قالته سيدة جزائرية عن وضع المرأة فى العالم الإسلامى لكن المهم أن هؤلاء لم يتركوا الساحة فارغة أمام المهاجمين ووقفوا فى وجه الادعاءات والأفكار المسبقة المعروفة عن الإسلام وارغموا الآخرين على تعديل موقفهم على الأقل فى اطار هذا البرنامج الذى شاهده نحو خمسة ملايين فرنسى. لكن التيار الغالب عندنا للأسف هو اعتبار أبناء الجاليات العربية والإسلامية فى الخارج وكأنهم من الأجانب ويغلب التشكك فى نواياهم ولا نقبل منهم أقل انتقاد لأحوال عالمنا العربى والإسلامى التى تستدعى فى الواقع العديد من الانتقادات.

وقد ادركت إسرائيل أهمية هذا الأمر منذ البداية. فقد كان جزء كبير من أبناء الجاليات اليهودية فى الخارج ينتقدون الحكومة وحزب العمل الذى حكم إسرائيل منذ نشأتها لفترة تناهز الثلاثين عاما. ومع ذلك فقد حرصت الحكومة الإسرائيلية دائما على مد جسور الحوار والتعاون مع كل أبناء الجالية اليهودية فى الخارج وخاصة فى الغرب وكان هؤلاء هم السند الرئيسى لإسرائيل ولعبوا دورا حاسما فى بنائها والدفاع عنها عندما تقتضى الضرورة.

فمتى ندرك نحن العرب أهمية قواعدنا البشرية فى الخارج المتمثلة فى ملايين الرجال والنساء المقيمين فى بلاد الغربة ولايمكن أن ينسلخوا من أصولهم مهما طال الزمان. فعدد العرب والمسلمين فى أوروبا الغربية وحدها يقدر بنحو عشرين مليون شخصا لكننا لا زلنا للأسف ننظر إليهم على الصعيد الرسمى نظرة عدم ارتياح ولا نعرف كيف نستثمر تواجدهم بالخارج .

وقد آن الآوان أن نغير نظرتنا لأبناء جالياتنا فى الخارج لأنه سيأتى اليوم الذى نحتاجهم فيه وأنا على ثقة كاملة أنهم لن يتقاعسوا عن أداء واجبهم نحو أوطانهم .

لنتحاور مع الغرب .. من موقف القوة والانفتاح

حين طلب منى الزميل محمد سلماوى رئيس تحرير «الأهرام ابدو» فى عام ١٩٩٤ ترشيح بعض الشخصيات الفرنسية للاسهام بمقالات فى الصحيفة التى يرأسها كان ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا الأسبق من أول الشخصيات التى لاحت فى مخيلتى كأفضل من يصلح لهذه المهمة. فالشخصية المطلوبة للمشاركة برأيها فى صحيفة مصرية تصدر بالفرنسية ينبغى من وجهة نظرى أن تتمتع بمجموعة من الصفات على رأسها معرفة العالم العربى واحترامه واتخاذ موقف منصف حياله ثم الرغبة بعد ذلك فى التحاور معه .

وكانت كل هذه المواصفات تنطبق على شخص ميشيل جوبير. فالرجل قد ولد بالمغرب وعاش فيها كما قال فى أحد كتبه أياما جميلة لايمكن أن تنمحى من ذاكرته. وهو يعرف العالم العربى حق المعرفة وكتب عدة كتب ومقالات تتناول هذا العالم. كما لايمكن أن ننسى له موقفه خلال حرب اكتوبر المجيدة حين وقف يقول وهو وزير لخارجية فرنسا تعليقا على تصريح لأحد رجال السياسة الفرنسيين يتهم مصر وسوريا بالعدوان على إسرائيل: أيمكن اتهام من يحاول أن يعود إلى أرضه بأنه معتد ؟ فقامت الأوساط الصهيونية لهذه الجملة ولم تقعد لها إلى يومنا هذا ولم تغفر لجوبير موقفه المتعاطف مع الحق العربى .

فمن الصعب بعد كل هذا أن يتهم الرجل بالعداء للعالم العربى أو الإسلامى وهو ليس حال كل رجال السياسة فى فرنسا والعالم الغربى .

وإذا تأملنا مقال جوبير الذى نشر بالأهرام ابدو كانت الملاحظة الأولى أن الرجل وضع له عنوانا لخص فيه ما يرمى إليه من المقال. فهو لم يقل: «نظرات إلى الإسلام من دار الحرب» ولكنه قال: «نظرات إلى التطرف الدينى من دار الحرب».

أى أن الرجل حدد منذ اللحظة الأولى ما يقصده وهو تحليل ظاهرة التطرف الإسلامى من وجهة نظر غربية. صحيح أن السيد جوبير بدا وكأنه يقع فى تعميمات تقليدية عن العالم الإسلامى كما استخدم الأسلوب اللاذع وغير المباشر والمليء بالإيحاءات الذى اشتهر به والذى طالما شهره ضد سياسة الغرب بل وضد بعض محاور الفكر والثقافة التى يرتكز عليها العالم الغربى ذلك العالم الذى ينتمى إليه جوبير قلبا وقالبا.. وصحيح أننى لا اتفق مع بعض ما جاء بالمقال لكن السؤال الرئيسى هو: هل نقبل مبدأ التحاور مع الغرب ممثلا فى كبار مثقفيه وقياداته السياسية والعلمية ؟ أم نعتبر كل هؤلاء من أعداء الإسلام ولايضمرون له سوى الشر والضغينة فنستخلص من ذلك أنه لاينبغى الدخول أساسا فى حوار عقيم مع من نعدهم من أعداء الإسلام ؟ الاجابة فى رأيى لاتحتمل التردد. لكن القضية ليست بهذه البساطة.. فالقبول بمبدأ الحوار يستتبعه القبول الضمنى بقواعد اللعبة وتحمل تبعاتها. فلا نقول نعم نتحاور ثم نكيل الاتهامات لمن لايتفقون معنا فى الرأى ونتهمهم بالكفر والضلال وقصر النظر وبأنهم يتخذون مواقفهم من منطلقات الحقد أو الجهل .

من المسلم به أننا لانقبل أى طعن فى الإسلام وهو أمر بعيد جدا عن مقاصد جوبير كما يتبين من قراءة متأنية لمقاله. ونادرا ما سمعت عن رجل سياسة أو مثقف كبير فى فرنسا تهجم على الدين الإسلامى كديانة سماوية. لكنه لما يقول جوبير مثلا أنه بالنسبة للمسلم فإن الجنة فى الماضى وليست فى المستقبل فلا يصح أن نتهمه بالتهجم علينا.. فقد قرأت هذا الانتقاد بقلم فطاحل المفكرين المصريين والعرب يأخذون على مسلمى هذا العصر أنهم يعيشون فى الماضى ويحلمون بعودة عصر الخلفاء الراشدين بدلا من أن يعملوا على تحسين أحوالهم من خلال الجد والعمل والتخطيط والمثابرة .

كذلك فعلينا ألا نتغاضى عن صورة الإسلام التى يعطيها بعض المسلمين فى الخارج.. ناهيك عن أصحاب المذاهب المتطرفة فى الداخل الذين يشهرون سلاح الارهاب وتكفير الدولة والمجتمع بأكمله. فقد وقف إمام لأحد مساجد فرنسا فى أحد الأيام ليقول أنه لايقبل القوانين الفرنسية لأنه يدين بشرع الله سبحانه وتعالى. فكيف نتوقع أن تقبل الدولة الفرنسية هذا المنطق ؟ وكيف يمكن أن نحاول

فرضه على مثقفيها وعلمائها ؟ ولاننسى كذلك أن الفرنسيين بالذات حينما يفكرون فى التطرف الإسلامى يتوجه فكرهم تلقائيا إلى الجزائر التى تشهد عمليات اغتيالات للصحفيين والمفكرين وللأجانب على أراضيها بصورة لايمكن أن يقر بها ديننا الحنيف .

ينبغى أن نعى كل هذه الحقائق ونحن ندخل الحوار مع الغرب.. **كما ينبغى** أن نعى تماما من جانب آخر أن هناك خلفيات تاريخيه **تجعل البعض فى العالم** الغربى يتربص بالإسلام كما أن البعض يسعى ليجعل من الإسلام بعبعا يعبئ الإرادات فى المجتمعات الغربية بعد اختفاء خطر الشيوعية. كل هذا صحيح.. لكنه لا مناص من الحوار .

وإذا كان الدخول فى حوار سياسى أو اقتصادى يضع العالم العربى والإسلامى فى موقف الضعف فإن لدينا فى الحوار الثقافى والحضارى حججا صلبة تتمثل فى تراثنا المجيد.. فى ابن سينا والرازى وابن رشد وابن خلدون ثم اليوم فى طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ.. فالإسلام قد افرز واحدة من ألمع الحضارات فى تاريخ البشرية إن لم تكن المعها على الاطلاق.. فلندخل الحوار مع الغرب إذن من موقف القوة والانفتاح وليس من موقع الضعف والانغلاق .

وعلينا أن نعلم منذ الآن - حتى لانخفى رؤوسنا فى الرمال - أن الغرب يرانا بتلك النظرة التى أعرب عنها جوبير فى مقاله لأنهم لايرون منا اليوم سوى التطرف الذى يقلقهم وإن كان يستخدمه البعض عندهم.. بل أن نظرة جوبير التى لم تعجبنا هى نظرة غربى معتدل مما يدل على أن التحدى صعب للغاية لكن البديل عنه هو التقوقع والانغلاق على أنفسنا وهو أمر غير وارد فى عالم اليوم وسيكون من شأنه أن يدفع بنا بسرعة مخيفة إلى هوة التخلف السحيقة .

الفصل الخامس

القرن العشرون: بين اليأس والأمل

القرن الحاسم

كان القرن العشرون الذى يلوح لنا الآن مودعا أهم قرن مر على البشرية بكل المقاييس. قد يجادل البعض بان الانسانية عاشت قرونا حملت تطورات حاسمة فى السياسة والفكر والفلسفة والعلوم وتحولات اجتماعية هائلة. ربما.. لكن القرن العشرين كان قرن الاختراعات التى قلبت حياة الانسان العملية واليومية بالكامل. وقد أدت هذه الاختراعات وتطبيقاتها إلى ان يرى انسان القرن العشرين العالم برؤية جديدة تختلف اختلافا جذريا عن سابقيه ويمارس الحياة باسلوب مختلف تماما عن اسلافه من البشر كما فتحت على مصراعيها ابواب التطور فى كافة الميادين. والاختلاف بين انسان نهاية القرن العشرين وقرينه الذى عاش فى نهاية القرن التاسع عشر اكبر كثيرا من الفرق بين انسان القرن الماضى وقرينه الذى عاش فى القرن الاول الميلادى.

ولو تخيلنا اننا نقلنا بآلة التحكم فى الزمن انسانا من عصر سيدنا عيسى إلى عام ١٨٩٠ مثلا ثم نقلنا انسانا من عام ١٨٩٠ إلى عام ١٩٩٠ لكانت الصدمة التى يصاب بها الثانى اكبر كثيرا من صدمة الاول. اى ان القفزة التى حققها الانسان فى القرن العشرين توازى ان لم تزد على ما انجزه من تقدم خلال تسعة عشر قرنا.

فخلال المائة سنة الماضية اخترع الانسان الطائرة والسيارة والاضاءة الكهربائية والتليفون والسينما والتليفزيون والراديو وناطحات السحاب وكلل الاختراعات بالكمبيوتر الذى يفتح آفاقا لانهائية من الاكتشافات والفتوحات العلمية الجديدة. حتى بعض هذه الاختراعات التى اكتشفت تاريخيا فى نهاية القرن التاسع عشر مثل السينما والاضاءة الكهربائية لم تستخدم استخداما

فعليا الا فى القرن العشرين. وفى هذا القرن حقق الانسان حلمه القديم بالسير فوق القمر وهو ما فعله رواد الفضاء الامريكيين عام ١٩٦٨.

ولنتخيل لحظة واحدة حياة احد الوجهاء فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر. واقول احد الوجهاء على اساس انه انسان قادر على امتلاك كافة الامكانيات المتاحة فى عصره. لقد كان هذا الوجيه يضىء منزله بالشموع ولا يملك جهازا للراديو أو تليفزيونا كما لا يعرف استخدام التليفون كوسيلة للاتصال. كان هذه الوجيه عندما يتنقل يستخدم عربة تجرها الخيول أو يركب القطار فى افضل الظروف. وكان عندما يسافر إلى اوروبا مثلا يقضى اياما طويلة من العناء للوصول إلى المدينة التى ينشدها والتى لا يستغرق الوصول اليها اليوم سوى بضع ساعات قليلة بالطائرة لمن يملك اقل الامكانيات.

لم يكن يتخيل هذا الوجيه وجود السيارة أو الاوتوبيس أو المترو ناهيك عن الطائرة والصاروخ. وكان هذا الوجيه يجهل اهم احداث العالم الخارجى ولا يعرف الا اقل القليل مما يجرى فى الخارج مقارنة بما يعرفه انسان اليوم ناهيك عن الفارق فى سرعة معرفة الاخبار بين الاثنين. تلك كانت الحياة التى عاشها اجدادنا فى نهاية القرن التاسع عشر والتى لا يمكن ان يتخيلها شاب يعيش اليوم على انغام الاستريو ويطلع على احداث العالم فى التلفزيون ويتنقل بالسيارة.

واخطر الثورات التى جاء بها القرن العشرون هى ثورة المعلومات والاتصالات. فلو تخيلنا مثلا ان الخديو اسماعيل (١٨٣٠ ـ ١٨٩٥) عندما كان يبعث برسالة إلى امبراطور فرنسا نابليون الثالث (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣) كان ينتظر أكثر من اسبوع قبل ان يصله الرد على رسالته. اما اليوم فان الرئيس مبارك يمسك بسماعة التليفون ويتصل مباشرة بالرئيس الفرنسى شيراك ويتبادل معه الرأى والمعلومات فتنتقل بين باريس والقاهرة رسائل فورية متبادلة كانت تستلزم شهورا كاملة من قبل.

بل ان امكانية الاتصال الفورى لا تقتصر على الرؤساء وكبار المسئولين لكنها اصبحت متاحة للعامة. فبوسع اى انسان عادى ان يفعل اليوم ما لم يكن متاحا للخديو اسماعيل ونابليون الثالث وجميع ملوك وأباطرة الازمان السابقة. وفى القرن الماضى كانت الناس تعرف باهم احداث العالم بعد وقوعها بايام أو ربما باسابيع وتتحرك الاخبار ببطء شديد وكأنها تركب الجمل فى جوف الصحراء.

اما اليوم فان التلفزيون ينقل على الهواء مباشرة اهم احداث العالم من ابعد بقاع الدنيا فيراها ابسط الناس فى نفس لحظة حدوثها.

وفى مجال الطب حقق العلماء تقدما مذهلا فقضوا على الاوبئة وطال العمر الافتراضى للانسان بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية الطويل وعرفت عمليات القلب المفتوح وزرع الاعضاء وكل التدخلات الجراحية التى اطالت عمر الانسان وخففت عنه آلامه واوجاعه. وكانت آخر الاختراعات هى عملية الاستنساخ التى اجريت على نعجة لكنها قابلة من الناحية العلمية للتطبيق البشرى.

ويؤدى هذا الاكتشاف إلى احتمالات مرعبة لو تصورنا ان العلم قادر على تخليق آلاف أو ملايين البشر المتشابهين وان يضع فيهم صفات مختارة تناسب غرضا معينا. وهذا الاحتمال الذى يثلج الدماء فى العروق اصبح فى متناول انسان القرن الواحد والعشرين. وقد حقق انسان القرن العشرين حلما قديما كان من يتخيل امكانية حدوثه فى القرن الماضى يتهم بالجنون وهو وصول الانسان إلى سطح القمر.

القرن العشرون كان إذن حاسما فى حياة البشرية وسيظل يؤرخ له على انه قرن الاختراعات التى غيرت حياة الانسان بالكامل واسلوب معيشته ونظرته إلى العالم. لكن هذا القرن استحدث ايضا رذائل لم تكن موجودة من قبل وعلى رأسها الحروب العالمية التى لم تكن معروفة للانسان حيث نشبت خلال القرن العشرين حربان شاركت فيهما غالبية دول العالم وراح ضحيتهما اكثر من ٧٠ مليون قتيلا وعشرات الملايين من الجرحي والمعوقين من كل الشعوب والاجناس. كما اخترع الانسان خلال القرن العشرين القنبلة النووية التى القاها الامريكيون على مدينتى هيروشيما ونجازاكى باليابان يومى ٦ و٩ اغسطس ١٩٤٥ على التوالى مما دعا عملاق الادب الفرنسى البير كامى (١٩١٣ - ١٩٦٠) إلى اطلاق صيحته الشهيرة بان «الحضارة الميكانيكية قد وصلت إلى آخر درجات توحشها». ففى نهاية القرن التاسع عشر كانت اكثر الاسلحة فتكا لا تقتل اكثر من اربعين أو خمسين شخصا مجتمعين فى مكان واحد. اما اليوم فان قنبلة نووية واحدة قادرة على ان تفتك باكثر من اربعة أو خمسة ملايين شخص كما صار

بمقدور الانسان لاول مرة فى تاريخ تواجده فى الدنيا قادرا على تدمير الكرة الارضية بالكامل وافناء كل حياة على ظهرها.

الملاحظة التالية هى ان كل الاختراعات التى عرفها الانسان خلال القرن العشرين كان مصدرها الغرب وكان المخترعون من ابنائه. اما باقى دول العالم فكانت مجرد مستهلك للتطبيقات العلمية والاكتشافات الوافدة عليها من الشمال. وقد واكبت مصر والعالم العربى الاستفادة من التقدم العلمى والتقنى الضخم وادخلت دون ابطاء وخاصة فى السنوات الاخيرة آخر المستحدثات العلمية بها.

لكن الواقع اننا نعيش اليوم «عالة» على العالم الغربى فى مجال الاختراعات ونكتفى بالتطبيق واستخدام ما يجتهدون فى ابتكاره وطرحه فى الاسواق. ومن المؤكد ان التكنولوجيا والتقنيات الحديثة ليست بريئة من مضمون ثقافى وسياسى مما يضع العالم المتخلف فى مأزق ربما لا يشعر به الكثيرون حيث يحتاج حاجة ماسة إلى تكنولوجيا الغرب بكل ما تحمله من ابعاد ويرفض فى ذات الوقت الهيمنة الثقافية والسياسية والاقتصادية التى تسعى دول الشمال إلى بسطها على كافة بلاد العالم الثالث.

وعلى الصعيد السياسى كان القرن العشرون هو القرن الذى ازدهرت فيه مثل الديمقراطية وحقوق الانسان. ففى القرن التاسع عشر كان معظم حكام العالم يتولون الحكم بالوراثة سواء أكانوا ملوكا أو اباطرة أو قياصرة. وكان الحكام يعتبرون ان مصدر السلطة ليس الشعب الذى يحكمونه وانما حق الوراثة أو الحق الالهى اى ان الخالق عز وجل هو الذى منحهم الحكم. وفى نهاية القرن العشرين لم يعد مفهوم الحق الوراثى أو الحق الالهى للسلطة سائدا الا فى عدد محدود من الدول. حتى الدول الملكية كبريطانيا أو السويد مثلا صارت ملكيات دستورية اى ان الحكم الفعلى للبلاد فى ايدى البرلمان المنتخب بصورة ديمقراطية والحكومة النابعة عن التمثيل الشعبى.

ولعل اهم الظواهر السياسية فى القرن العشرين هى ظهور الفكر الماركسى وانتشاره على اساس انه بديل للفكر الرأسمالى والاقطاعى. وقد كانت الماركسية املا راود الملايين من شعوب العالم وروج له مئات من كبار الكتاب والشعراء والفنانين والمفكرين على امل انه سيحرر الانسان من الاستغلال والعبودية. وقد

انقسمت الحركة الماركسية فى مؤتمر تور بفرنسا عام ١٩٢١ إلى شيوعيين واشتراكيين. وكانت الثورة البولشفية التى هزت روسيا فى عام ١٩١٧ هى نقطة انطلاق للحركة الماركسية والشرارة التى اشتعلت ولم تنطفىء جذوتها الا فى منتصف الثمانينات عندما اثبتت الشيوعية فشلها فى تحقيق السعادة والرفاهية للشعوب وثبت انها ليست صالحة للتطبيق بالصورة التى نفذت بها فى الاتحاد السوفيتى السابق والدول التى اعتنقت الفكر الماركسى.

وينتهى القرن العشرون بانتصار ساحق للرأسمالية كنموذج منفرد لنجاح المجتمعات وتظهر الولايات المتحدة كأكبر قوة على وجه الارض تبسط نفوذها ليس بقوة سلاحها واقتصادها فحسب وانما باسلوب المعيشة الذى تمارسه والذى انتشر بين شباب العالم وسيطر على عقولهم وتصرفاتهم. لكن التاريخ اثبت دائما ان العالم يقوم على التوازن وان اى قوة تستأثر بالسيطرة على مقدرات العالم سرعان ما تجد قوى صاعدة تنافسها على عرشها وتحدث نوعا من التعادلية فى العلاقات الدولية.

مرحلة المخاض

إذا ألقينا نظرة خلفية على القرن العشرين الذى اشرف على الانقضاء نتبين ان العالم العربى قد مر خلال هذه الحقبة بعدة تطورات يمكن تقسيمها بصورة عامة إلى ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى تحتل النصف الاول من القرن وهى فترة مخاض للتحرر الوطنى ومحاولة للبحث عن هوية خاصة لا تتناقض بالضرورة مع الغرب لكنها تعبر عن الأسس الأصيلة للمجتمع العربى والنابعة من الموروث الثقافى المشترك ومن الدين والخصائص الاجتماعية لهذا المجتمع.

المرحلة الثانية يمكن ان نطلق عليها اسم مرحلة الامل والتى بدأت باندلاع ثورة ٢٣ يوليو وحملت معها احلاما وطموحات داعبت وجدان جيل كامل من المصريين والعرب ولا زال الجدل محتدما حول تقييم آثارها.

اما المرحلة الثالثة وهى التى نعيشها الآن والتى يمكن تحديد بدايتها بيوم ٥ يونيو ٦٧ فإن اقرب وصف لها هى انها مرحلة الاحباط وشهدت شرخا عميقا فى الوجدان الجماعى المصرى بسبب النكسة وآثارها التى لا زالت تلعب دورا خفيا فى حياة المجتمع المصرى والعربى عامة.

ومع اقتراب القرن الواحد والعشرين بدأت تظهر بشائر مرحلة انتقالية من الممكن ان تؤدى مع مضاعفة الجهد والقضاء على منطق نهاية التفكير إلى فتح آفاق جديدة لمصر وللعالم العربى بالتالى.

وبطبيعة الحال فان اختيار عناوين لهذه المراحل الثلاث لا يعنى ان كل مرحلة كانت حقبة قائمة بذاتها ولها خصائص ومميزات لم تتغير من اول يوم إلى آخر يوم بها. لكن الواقع ان كل مرحلة من هذه المراحل متشابكة مع الاخرى

وأثرت فى المرحلة التى تلتها كما تأثرت بالمرحلة التى سبقتها. كذلك فمن المؤكد ان كل مرحلة قد مرت بفترات صعود وهبوط من الصعب الخوض فيها من خلال هذه الرؤية المحلّقة السريعة لاهم ما تميز به القرن العشرون بالنسبة للعالم العربى.

واذا كان من الممكن للمتخصصين اعطاء تفاصيل اكثر دقة فى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حول تطور العالم العربى فى القرن العشرين الا ان من ينظر نظرة موضوعية هادئة على المائة عام الماضية لا بد ان يشعر بان مصر والعرب عامة قد مروا بثلاث حقب واضحة المعالم ترتبط فيما بينها بخصائص متميزة وتختلف عن الاخرى فى نقاط حاسمة.

وبالنسبة لمرحلة المخاض فانه يمكن رصد خيوطها الاولى ببداية الفكر الوطنى الناتج كرد فعل للتواجد الاستعمارى البريطانى فى مصر والذى جعل الشعب المصرى يشعر بالمهانة فتعتمل فى ضميره الجماعى مشاعر الرفض والتمرد على السيطرة الاجنبية للبلاد. وقد يعود تأصيل هذه المرحلة إلى الثورة العرابية ومحاولة التنظير للفكر الرافض للاحتلال والذى تمثل فى كتابات وسير رجال من امثال جمال الدين الافغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧) وعبد الله النديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦) والشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى (١٨٤٠ - ١٩٠٤) وغيرهم.

لكن اول من جسد المشاعر الوطنية للشعب المصرى وأشعل مناخا جماعيا رافضا للاحتلال كان الزعيم مصطفى كامل.

وقد تميزت مرحلة المخاض بتجربة ديمقراطية جديرة بالاهتمام على الرغم من كل ما شابها من سيطرة الاستعمار البريطانى والسراى على مجريات الامور فى مصر. وقد مهدت مرحلة المخاض للافكار الاستقلالية التى انطلقت فى العالم الثالث اجمع وفتحت الباب لمرحلة جديدة من العلاقات الدولية والقيم المشتركة بين غالبية دول العالم. وقد بلور شعراء مثل حافظ إبراهيم واحمد شوقى ومفكرين مثل احمد لطفى السيد والعقاد وطه حسين القيم والمثل والمشاعر الجديدة المؤدية إلى رسم الخطوط الاساسية للشخصية المصرية والعربية التى طمستها قرون من السيطرة الاجنبية.

وكان الادب والفكر عامة سندا للحركة الوطنية المصرية منذ اطوارها الاولى بل كانت مرحلة النهضة هى الشعلة التى انارت الطريق لآباء الوطنية فى مصر والعالم العربى لادراك هوية شعوبهم بعد سنوات طويلة من الاستكانة والرضوخ للامر الواقع. وهناك امثلة عديدة على مجاراة الادب للتيار الوطنى الجارف منها القصيدة العمرية الرائعة لحافظ ابراهيم التى القاها للمرة الاولى قبل عام واحد من ثورة ١٩ وكانت صدى للمشاعر الوطنية التى كانت تحتدم بها نفوس الشعب المصرى وحافزا على مقاومة المحتل بوحى من سيرة سيدنا عمر بن الخطاب احد ابرز عظماء تاريخ العرب والمسلمين بل وتاريخ الانسانية جمعاء. كما نظم عبد الحليم المصرى قصيدته البكرية للتذكرة بعظمة ابى بكر الصديق ثم محمد عبد المطلب قصيدته العلوية احياء لذكرى سيدنا على بن ابى طالب.

ولا ننسى قصائد شوقى الوطنية ووعيه بالعروبة ومنها قصيدة «نكبة دمشق» التى نظمها احتجاجا على قمع الفرنسيين لثورة السوريين ضد الانتداب والتى من اجمل ابياتها:

دم الثوار تعرفه فرنسا وتعرف انه نور وحق

وهناك عشرات الامثلة الاخرى فى نفس الاتجاه. ومعنى هذا ان الكتاب والادباء والمفكرين كانوا يترجمون مشاعر الشعب المصرى والعربى الراغب فى الاستقلال ومقاومة الاحتلال وتأكيد ذاته ونبذ الخضوع لسيطرة الاجنبى التى تمثلت فى الاستعمار البريطانى والفرنسى الذى كان جاثما فى هذه الحقبة التاريخية على معظم الدول العربية.

وكما كان هناك صراع بين رجال السياسة التقليديين ورجال السياسة الذين يحاولون مسايرة الجديد والحصول على استقلال مصر كان هناك صراع بين انصار القديم وانصار الجديد فى الادب. وكان انصار القديم يتمسكون بمحاور الادب العربى الذى يقوم اساسا على الشعر فى حين ظهرت مجموعة من الادباء المجددين حاولوا مسايرة التطور وفتح مجالات غير مطروقة باللغة العربية فى اسلوب عصرى مثل الرواية والقصة القصيرة والمسرح الذى شهد طفرة واضحة خلال هذه المرحلة بالاضافة إلى تطوير الفنون القديمة وهو ما تركزت عليه جهود جماعة ابوللو فى ميدان الشعر.

وقد ظل الصراع بين انصار التمسك بالقديم ودعاة الحداثة شرارة مستمرة لتطور الفكر دون التخلى عن التقاليد والتراث. ولا شك ان الدكتور طه حسين كان النموذج الرائد للفكر الجديد وتطوير اساليب البحث والدراسة.

وعلينا ان ندرك ان الطبقة الحاكمة فى مصر كانت منذ قرون طويلة بعيدة كل البعد عرقيا وثقافيا وحتى لغويا عن السواد الاعظم من الشعب المصرى. وكانت الطبقة الحاكمة تتشكل عادة من اجانب لايجيد الكثير منهم اللغة العربية. وكان الزعيم الوطنى احمد عرابى (١٨٣٩ ـ ١٩١١) يمثل طبقة المصريين الصاعدة التى ظلت مضغوطة تماما طوال قرون سابقة وبدات تتطلع إلى ان يكون لها مكان تحت شمس مصر.

واذا اخذنا اسرة محمد على التى حكمت بلادنا لنحو قرن ونصف نجد ان غالبية حكامها بدءا من محمد على وحتى الملك فؤاد لم يكونوا يجيدون اللغة العربية. وكان بعضهم يجهلها تماما مثل محمد على نفسه والبعض الآخر لديه معرفة لا بأس بها بالعربية مثل الخديو عباس حلمى. وكان الملك فاروق هو اول حاكم من اسرة محمد على يجيد العربية اجادة تامة. والمفارقة انه كان ايضا، آخر ملك لمصر وآخر من حكم من اسرة محمد على.

ولم يقتصر الجهل بالعربية على الحكام وحدهم ولكن على باقى افراد الاسرة المالكة من الرجال وخاصة النساء فكانت اللغات المتداولة فى القصر هى التركية والفرنسية ويقتصر الكلام بالعربية على التخاطب مع الخدم والحشم. وكانت الصفوة التى تحكم مصر من الوزراء والمسئولين وطبقة المثقفين يعتمدون فى معارفهم على اللغات الاجنبية وليس على العربية.

لم تكن القطيعة إذن بين الطبقات الحاكمة والمثقفة من ناحية والغالبية الساحقة من الشعب المصرى من ناحية اخرى تقتصر على الامكانيات المادية والملبس واسلوب الحياة والتفكير لكنها كانت تمتد إلى اللغة نفسها مما يلقى ضوءا جديدا يساعد على تفسير الفجوة العميقة بين الحاكمين والمحكومين.

واذا سلمنا بان مرحلة المخاض كان لا بد ان تؤدى فى نهاية الامر إلى تحرر مصر والشعوب العربية من ربقة الاستعمار فانه من الامانة ان نقرر ان هذه الغاية

لم تكن فى متناول اليد بنفس السرعة والسهولة لولا توافر مناخ دولى وظروف سياسية خارجية ساعدت على هذه النتيجة. ومن المؤكد ان الظروف الدولية التى سادت هذه الحقبة قد اسهمت اسهاما حاسما فى موجة التحرر الوطنى فى منتصف القرن العشرين ليس فى العالم العربى وحده وانما فى العالم الثالث كله.

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الاولى بدأت ترتسم معالم الصراع بين القوى الاستعمارية التقليدية التى كانت تتسيد العالم آنذاك وهى بريطانيا وفرنسا من ناحية والقوة الصاعدة الجديدة وهى الولايات المتحدة الامريكية. وقد حسم الصراع فى نهاية الحرب العالمية الثانية لصالح امريكا وكان العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ تكريسا لعلاقات القوى الجديدة بين حلفاء العالم الغربى.

وقد ظلت سياسة الولايات المتحدة الامريكية حتى بداية هذا القرن تقوم على اساس مبدأ منرو وهو رئيس امريكى من القرن الماضى اراد ان يفصل بين العالم القديم والعالم الحديث فقامت نظريته على اساس الا تتدخل امريكا اطلاقا فيما يجرى فى اوروبا والعالم القديم عامة وان ترفض الولايات المتحدة فى مقابل ذلك رفضا قاطعا اى تدخل من قبل العالم القديم فى شئون القارة الامريكية.

وقد تحطم هذا المبدأ فى الحرب العالمية الاولى عندما شاركت الولايات المتحدة فى القتال ضد المانيا. وكانت واشنطن تبدى فى هذه المرحلة معارضتها لصيغة الاستعمار وتنادى بتحرير الشعوب وقد تجسد هذا الموقف فى خطاب شهير ألقاه الرئيس الامريكى الاسبق وودرو ويلسن (١٨٥٦ - ١٩٢٤) عام ١٩١٨ حدد فيه اربع عشرة نقطة اهمها ضرورة الاعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها.

ولم يكن هذا الاتجاه حبا فى الحرية والعدالة فقط ولكنه كان جزء من الصراع الدولى بين القوى التقليدية العتيقة والقوة الصاعدة التى تريد بسط سيطرتها على العالم. وقد استفادت مصر والعالم العربى والعالم الثالث عامة من هذا الظرف التاريخى الذى فتح الباب لمرحلة تصفية الاستعمار فنالت مصر استقلالا منقوصا عام ١٩٣٦ ثم استقلالا كاملا بعد ثورة ٢٣ يوليو وتحديدا فى عام ١٩٥٤.

وكان الاستقلال وانتهاء تبعية مصر السياسية والاقتصادية والثقافية نتيجة لكفاح ابنائها ولبلورة كتابها وشعرائها ومثقفيها لارادة التحرر من ناحية ثم

لظروف الصـراع الدولى التى ارغـمت القوى الاسـتـعـمارية القديمة وعلى رأسـها بريطانيا على فك قبضتها عن العالم العربى والعالم الثالث.

وانتهت مرحلة المخاض بتحقيق ارادة الشعب المصرى والشعب العربى مما دفعهم إلى التطلع لطموح اكبر وهو الاستقلال الشامل فى كافة المجالات والوقوف كند على نفس المستوى مع العالم الغربى.. وكان ذلك هو الهدف المنشود فى مرحلة الامل.

مرحلة الامل

كان فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هو الشرارة الاولى لهذه المرحلة التى لا زالت محفورة فى وجدان جيل كامل اتيح له ان يعايش هذه الحقبة بحلوها ومرها. كانت هذه المرحلة هى مرحلة الامل والثورة على القديم ورفض الافكار والمثل المستوردة من الخارج وخاصة من العالم الغربى الذى كان مستعمرا لغالبية الدول العربية وجاثما على انفاسها بالقوة العسكرية لكنه نجح فى ان ينشر بها ثقافته وروحه وفنه وادبه حتى اصبحت الصفوة فى مصر وفى الدول العربية تدين ثقافيا للغرب اكثر مما تدين لتراثها الاصيل.

وقد جسد هذه المرحلة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) الذى وجد نفسه مجرورا لمواجهة مع الغرب ربما لم يكن يريدها كما تقول معظم الكتب التى وضعها الغربيون انفسهم عن الزعيم الراحل. لكن المشكلة هى ان المشروع القومى لعبد الناصر فى مرحلة التحرر الوطنى كان لا بد ان يصطدم فى لحظة ما بالعالم الغربى الذى لم يكن يقبل آنذاك ان يخرج العالم العربى من تحت سيطرته المباشرة ولم يكن قد اخترع بعد الوسائل الحديثة للسيطرة غير المباشرة والتحكم عن بعد التى يستخدمها الآن بنجاح مع العالم الثالث.

وكانت القاهرة خلال كل الحقبة الناصرية كما يقول حرفيا المستشرق الفرنسى الراحل الكبير جاك بيرك فى كتابه «العرب» هى «نقطة التقاء العالم الثالث باكمله». ولم يكن من الممكن ان يقبل الغرب عملية التمرد الجماعى التى كان عبد الناصر احد ألمع قادتها ان لم يكن ألمعهم إلى جانب تيتو ونهرو ثم آخرين مثل نكروما وسوكارنو.

فلم تكن القضية قضية مصر أو العالم الـ ربى فقط حيث انتشرت نار التمرد على الغرب فى غالبية بلدان العالم التى كـ نت خاضعة للاستعمار فى آسيا وافريقيا. وقد تمخض عن هذا الرفض بزوغ عالم جديد لم يكن موجودا من قبل على الساحة الدولية وهو العالم الثالث الذى اصبحت له للمرة الاولى ارادة مستقلة وصار حقيقة يعمل حسابها الجميع. وقد اصبحت لهذا العالم اغلبية مرجحة فى الجمعية العامة للامم المتحدة وربما كان من الصعب ان تنشأ دولة اسرائيل بصورة شرعية لو كانت هذه الاغلبية متوفرة فى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ عندما اصدرت الجمعية العامة قرارها الشهير رقم ١٢١ المعروف بقرار التقسيم بأغلبية ضئيلة. وكان العالم الثالث وقتها غائبا عن صفوف الامم المتحدة بكثافته الحالية.

ولاشك ان هذه المرحلة قد شابها نوع من السذاجة والافراط فى الأمل ولا اقول فى الاحلام. ويكفى ان نسترجع بعض الشعارات التى كانت تنطلق فى الشارع المصرى لادراك ذلك مثل: «اسطول سادس يعنى ايه.. عبد الناصر يقضى عليه» وهو شعار كان يدوى فى شوارع القاهرة فى يونيو ٦٧ خلال الحرب المشئومة.

وقد عبرت عن هذه المرحلة ادبيات انتشرت فى الصحافة وفى الاذاعة والتليفزيون الذى ادخل إلى مصر فى عام ١٩٦٠ لبسط الروح الجديدة التى كان مطلوبا ان تسيطر على الشعب المصرى بل على الشعب العربى كله. كما عبرت عنها اغنيات رددها الجميع فى هذه الفترة وان كانت تبدو للبعض الآن وكأنها نوع من «الضحك على الذقون» وبيع الاحلام. فمن يسمع اغان مثل « يا اهلا بالمعارك » أو «دع سمائى فسمائى محرقة» ثم يربط بينها وبين هزيمة ٥ يونيو يشعر بان هناك فجوة واسعة بين وعود الانتصار وصاعقة الهزيمة.

وقد ادت الدعاية الضخمة التى صاحبت فترة الامل إلى تشكيل وجدان جيل كامل من ابناء مصر والعالم العربى وشحنهم بالامل وبالعزيمة وباليقين. وكان ابناء هذا الجيل يتصورون ان العالم العربى اصبح لا يقهر وان المواجهة مع الغرب قد حسمت لصالحنا بالفعل. وقد أفاق هذا الجيل على لطمة النكسة فى

٩ يونيو ٦٧ ولا اقول فى ٥ يونيو لان الكل كان مقتنعا خلال الايام الاولى للحرب بان مصر وسوريا والاردن منتصرون على اسرائيل فى ارض المعركة.

ولعل مرحلة الامل هذه هى اكثر المراحل استثارة للجدل والمعارك الفكرية والمهاترات إلى يومنا هذا.. ولازال البعض يرجع كل مشكلات مصر فى عام ١٩٩٨ إلى الحقبة التى انتهت منذ اكثر من ربع قرن من الزمان. وبرغم ان مرحلة الامل هى التى حظيت باكبر قدر من الاهتمام والبحث والتمحيص والدراسات الا اننى لا اعرف دراسة موضوعية وضعت عنها حتى الان لتستخرج جانبها الايجابى المضىء وتكشف فى ذات الوقت الاخطاء القاتلة التى ساهمت فى اجهاض هذه التجربة واعطت للقوى الغربية التى كانت تتربص بها السلاح الذى ذبحتها به.

فالذين يتعرضون لهذه المرحلة الحيوية من تاريخ مصر والعالم العربى نوعان: الاول يتعامى عمدا عن اخطائها ويجد تبريرات لا يقبلها العقل والمنطق لتفسير اوجه القصور التى شابت التجربة الناصرية ويكتفى انصار هذا التوجه بنظرية المؤامرة الخارجية لتبرير النكسة رافضين البحث فى اوجه القصور الداخلى التى ساهمت فى الهزيمة.

اما النوع الثانى فيحمل على هذه المرحلة حملة صليبية ويتلذذ بتشويه كل انجازاتها ويلوى الحقائق لالباس ايجابيات هذه الحقبة ثوب السلبيات مؤكدا ان هذه الفترة ليس فيها الا سلبيات وهذا التقدير فى حد ذاته يدل على اهتزاز حجج صاحبه وعدم موضوعيته فى التحليل واستنباط الحقيقة. وبطبيعة الحال فان هؤلاء يرفضون تماما اعتبار ان الغرب كان يتربص بمصر فى هذه الحقبة وهى حقيقة بدأت تخرج من افواه الغرب شيئا فشيئا مع مرور الوقت من خلال اعترافات المسئولين السابقين به.

وقد اسهب المدافعون عن وجهة النظر الثانية فى تعديد وتضخيم سلبيات هذه الحقبة والغريب انهم اغفلوا السلبيات الحقيقية لهذه المرحلة ومن اهمها ضرب الصفوة دون تمييز بين المخربين الذين كانوا على استعداد لاستخدام اى اسلوب لاجهاض الثورة وبين الذين كانت لديهم افكار تختلف مع السلطة الجديدة لكنها تنطلق من اجتهاد وطنى بلا غرض شخصى أو طبقى. ومن الممكن ان ندخل فى

جدل طويل حول موقف الصفوة من الثورة وانتماء معظم ابناء طبقات الصفوة إلى الشرائح المعادية للحكم الجديد.

وكانت الصفوة فى هذا الوقت تتشكل من طبقة الباشاوات والشرائح المتميزة التى تورطت كثيرا مع الحكم الملكى وممالأة الانجليز. لكن القضاء على هذه الصفوة لم يكن الحل لاتقاء شرور اعداء الثورة الناشئة. فالصفوة فى اى مجتمع هى القاطرة التى تجره للامام وتقوم بتعبيد الطريق لاى تقدم. وحتى اذا وقفت الصفوة موقفا معاديا للتغيير فانه لا بد من التعامل معها بحرص شديد لانها تحمل ثقافة البلاد وتراثها ومن الصعب مسحها من خريطة المجتمع على اساس انها عائق للتطور الطبيعى للبلاد.

فالصفوة ليست الطبقة الغنية التى تملك المال ومصادر الثروة ووسائل الانتاج فحسب وهى كانت كذلك بالفعل فى مصر لكن الصفوة فى الظروف الطبيعية لاى مجتمع هى ايضا الطبقة التى تحمل الموروث الثقافى بمعناه الواسع والقادرة على الاضافة وملاحقة التطور. وكانت الصفوة فى مصر هى مجتمع الباشاوات والاعيان والاقطاعيين لكن هؤلاء لم يكونوا فقط مجرد اغنياء يكدسون المال لكنهم كانوا على اتصال بالثقافة الغربية وعلى معرفة جيدة بها وكانوا رعاة لكل الكوادر الصاعدة من الطبقة الوسطى ولكل نجوم الثقافة والمعرفة فى مصر آنذاك.

وربما ادرك عبد الناصر ارتباط هذه الصفوة بالثقافة الغربية ورفضها للافكار التى جاءت بها الثورة على الاصعدة الاجتماعية والاقتصادية. وكان فى تصوره انه اذا قضى على الطبقة القديمة لنجح فى القضاء على الافكار البالية والقيم العتيقة فى الوقت الذى كان يحلم فيه بتغيير جذرى يهز اركان المجتمع ويخرج منه بمجتمع جديد يقوم على افكار وقيم جديدة تماما.

وقد نجحت الثورة فى توجيه ضربات ساحقة للصفوة لكن ذلك كان على حساب النمو الطبيعى للمجتمع والتطور المتدرج الذى اثبت التاريخ انه لا بديل عنه. فمحاولة مسح التراث والقيم من اى شعب وطمس معالمه هى مشروع مكتوب عليه بالفشل لانه ضد طبيعة التطور وقد فشلت اهم ثورات التاريخ مثل الثورة الفرنسية والثورة السوفيتية فى هذا المشروع البالغ الطموح ان لم يكن المستحيل المنال.

فالتغيير يأتى دائما متدرجا وكل من حاول كسر ايقاع النمو الطبيعى والدخول فى صراع مع الزمن واجه موقفا يصعب الانتصار فيه. لذا فقد كان من اهم اخطاء الثورة فى رأيى انها ارادات احداث تغييرات جذرية وفورية فى المجتمع المصرى بقرارات علوية واغفل القائمون عليها ان التغييرات لا بد ان تأتى تدريجيا مع اعتبار عامل الزمن والظروف الموضوعية للمجتمع.

وبالتوازى مع دوره فى كسر الصفوة لعب عبد الناصر دورا فى تقوية شريحة جديدة فى المجتمع المصرى كانت موجودة بالفعل لكنها لم تكن بمثل القوة والسيطرة التى اصبحت عليها بعد سنوات قليلة من قيام الثورة واعنى بها الطبقة المتوسطة. واذا لم يكن هناك تعريف علمى دقيق ومتفق عليه لتوصيف الطبقة المتوسطة الا انها كانت تتشكل فى مصر من الكوادر المتعلمة تعليما عاليا أو متوسطا وغير المسيطرة على ادوات الانتاج والتى تكسب من عملها دون ان تستغل طبقة اخرى. وقد شكلت هذه الطبقة جهاز الدولة الذى اعتمد عليه عبد الناصر فى بناء المجتمع الجديد الذى كان يحلم بتشييده.

وكانت هذه الطبقة تتمثل بصفة اساسية فى موظفى الدولة والكوادر مثل المهندسين والاطباء وصغار الملاك الزراعيين. وكانت هذه الطبقة هى الوقود الذى اعطى مصر ابرز الكوادر التى لا زالت تمثل القوة البشرية الضاربة لها حتى يومنا هذا.

والغريب ان الستينات كانت مرحلة امل واستبشار وتفاؤل ليس فى مصر وحدها لكن فى كثير من بلدان العالم. فاوروبا مثلا تعتبر ان حقبة الستينات هى اجمل الايام التى عاشتها سواء على مستوى الآمال والطموحات وخاصة لدى اوساط الشباب أو على المستوى الفنى حيث ترجمت الروح الجديدة فى الغناء وجسدتها فرق البيتلز والرولنج ستونز وغيرهما. وكان شعار هذه المرحلة فى اوروبا وامريكا هو: مارس الحب ولا تمارس الحرب.

والارجح ان السبب فى ثورة التفاؤل فى حقبة الستينات بالنسبة لاوروبا هو عودة الروح إلى جسدها المنهك بسبب الحرب العالمية الثانية المدمرة ومرور حقبة الخمسينات التى بذلت خلالها اوروبا جهودا مضنية من اجل اعادة بناء هياكلها وتشييد صرح اقتصادى متين ظل يعمل بقوة حتى هزت كيانه الصلب الصدمات

البترولية الاولى والثانية. وقد قفزت معدلات النمو فى الدول الغربية خلال حقبة الستينات إلى ارقام مرتفعة لم تصل إلى مثلها من قبل ولا من بعد.

اما بالنسبة للعالم الثالث فقد واكبت الستينات مرحلة تصفية الاستعمار الذى ظل جاثما على صدور دول آسيا وافريقيا فانفجرت الآمال والطموحات عندما انزاح الاحتلال العسكرى عن كاهل مجتمعات هذه الدول وتصورت شعوب العالم الثالث انها امسكت بزمام مستقبلها وانها ستبنى مجتمعا جديدا يسوده السعادة والرخاء والمساواة بين الجميع ويتوفر فيه توزيع عادل للثروات القومية التى صارت اخيرا فى ايدى ابناء الوطن الشرعيين.

لكن معظم الآمال تحطمت على صخرة الواقع ومشكلات الداخل ومؤامرات الخارج.. وأفاقت غالبية دول العالم الثالث لتتبين ان كشف حساب هذه المرحلة لم يكن على قدر الامال المعقودة عليها.

مرحلة الاحباط

اما المرحلة الثالثة والتى لا زال يعيشها العالم العربى اليوم وترجع جذورها تاريخيا إلى يوم ٥ يونيو المشئوم فيمكن ان نطلق عليها مرحلة الاحباط.

فبعد انفجار الامال والطموحات فى ظل مرحلة الامل وجد الشعب العربى نفسه فجأة وجها لوجه مع الواقع المرير. فالرخاء الذى وعد به لم يكن سوى سراب والعدالة الاجتماعية غير واضحة المعالم. اما اسرائيل التى تصور انها دولة « مزعومة » كما كانت تردد وسائل اعلامنا فى الخمسينات فقد نجحت فى الحاق هزيمة مفاجئة بأكبر الدول العربية واكثرها استعدادا للقتال ولتحمل تبعات المواجهة العسكرية.

استطاعت اسرائيل ان تخطف الانتصار فى بضع ساعات وان تحطم كل ما كان يجيش به وجدان الشعوب العربية فكان لهزيمة يونيو اثر الزلزال الذى هز الوجدان الجماعى للشعب المصرى وباقى الشعوب العربية واحدث شرخا فى الضمير العربى لا زالت آثاره واضحة حتى اليوم ولا زالت النكسة جرحا ينزف من جسد مصر والعالم العربى.

واذكر انه فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ كنت اؤدى امتحان الليسانس بجامعة القاهرة. وعندما سمعنا دوى انفجار القنابل وعلمنا بالعدوان الاسرائيلى قلت فى نفسى ان اسرائيل قد اصابها الجنون بالهجوم على مصر وانها كالدبور الذى «زن على خراب عشه». وعندما علا صوت الراديو بالبيانات العسكرية عن عدد الطائرات الاسرائيلية التى اسقطناها وعلمنا فيما بعد انها ارقام وهمية كانت فى خيال بعض قادتنا ولم يكن لها اى وجود فى الواقع.. اذكر وقتها كم هلل كافة الطلبة والاساتذة وتصورنا جميعا ان اسرائيل لن تصمد اكثر من بضع ساعات.

ويقدر هذه الآمال الضخمة وبحجم هذه الاحلام الوردية كان هول الصدمة التى وقعت كالصاعقة على الوجدان الجماعى المصرى والعربى.

لم يكن من السهل استيعاب هذه الكارثة. لكن المشكلة الحقيقية هى اننا رفضنا ان نعتبر ما جرى هزيمة وحاولنا الباس هزيمتنا اثوابا مختلفة رفضا للواقع وتمسكا بالخيال.. مع ان الشرط الاول للوقوف على اقدامنا كان يمر بمواجهة الواقع مهما كان مريرا والاعتراف بالهزيمة مهما وجدنا لها كلمات تخفيفية كالنكسة أو الانتكاسة وغير ذلك ثم استخلاص نتائج هذه الهزيمة حتى ننجح فى تحويلها إلى انتصار.

كان لا بد ان نعترف باننا خسرنا معركة هامة لكن هذا لا يعنى اننا خسرنا المواجهة مع اسرائيل وهى مواجهة حضارية قبل ان تكون مواجهة عسكرية. وكانت الخطوة التالية للاعتراف بالهزيمة هى محاولة فهم وتحليل الاسباب التى ادت اليها وخاصة الاسباب الداخلية التى حاولنا ان نخفيها على انفسنا واعتقد اننا لم ندركها على حقيقتها حتى الان.

ومن المؤكد ان الشعور بالاحباط لم يكن نتيجة للهزيمة وحدها أو للشعور بالتعرض لحملات دعائية خادعة لكنه كان كذلك ناتجا من الشعور بالغبن والظلم. فالغرب قد ساند اسرائيل باسلوب فج لا حياء فيه ودفعها دفعا إلى الانتصار بان وفر لها الدعم العسكرى والاقتصادى بالاضافة إلى الحماية الدبلوماسية التى منعت اى ادانة جادة للعدوان الاسرائيلى فى المحافل الدولية.

ومن الثابت ان الشعور بالعجز امام الهيمنة الغربية والتحيز الغربى لاسرائيل قد اسهما فى اصابة ضمير الشعب العربى باكمله بجرح عميق انعكس سلبا على وجدانه وعلى رؤيته للعالم وعلى ثقته بنفسه.

وجاء الانتصار الكبير الذى حققته القوات المسلحة المصرية فى بداية حرب اكتوبر ٧٣ ليعيد بعض الثقة فى نفوس الشعب المصرى والعربى لكن اسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة قد نجحت عن طريق الثغرة والمناورات الدبلوماسية فى الامم المتحدة فى تحويل انتصار العبور إلى انتصار نسبى لا يمكن ان يلعب دورا حاسما لصالح مصر والعالم العربى فى اطار التوازن الاستراتيجى بين الجانبين والذى يحدد شروط السلام وضوابطه.

ويعلم الله وحده ما كان من الممكن ان يحدث لمصر وللعالم العربى كله لولا انتصار القوات المسلحة المصرية فى عبور قناة السويس يوم ٦ اكتوبر ٧٣. فقد كانت حالة الاحباط بل اقول حالة اليأس والضياع قد وصلت إلى ذروتها بعد هزيمة يونيو وكان المجتمع يطرح تساؤلات عديدة ويعيد النظر فى كل ما قيل له ووصل المجتمع إلى حالة من فقدان الثقة فى كل شىء: فى قيادته وفى وسائل الاعلام بل وصل الامر إلى ان يشك الابن فى ابيه والتلميذ فى استاذه والموظف فى رئيسه لان كل ما كان يقال قبل الهزيمة اتضح عكسه فى محك تجربة ٥ يونيو.

وامام هول الصدمة لم يستطع المجتمع المصرى أو العربى ان يستوعب الاسباب الحقيقية التى ادت للنكسة وهى اسباب معقدة للغاية منها الداخلى والخارجى والتاريخى والنفسى.

واذا كان من العبث ان نصور الموضوع على انه كان مجرد مؤامرة على مصر فمن الخطأ كذلك ان نستهين بهدف الغرب فى القضاء على التجربة الناصرية وانهاء تحدى دول العالم الثالث له فى مرحلة تاريخية يسيطر فيها هذا الغرب على مقدرات العالم ويتحكم فى قواعد اللعبة الدولية. وكما حدث فى ١٩٥٦ كان الغرب عازما على الحاق الهزيمة بالجانب العربى لاقتناعه بان الانظمة العربية آنذاك تقف فى طريق مصالحه بالشرق الاوسط.

وكما ان مرحلة الامل تمخضت عن توجيه ضربة قاسمة للصفوة فان مرحلة الانفتاح التى كانت النتيجة العملية الاولى لمرحلة الاحباط قد وجهت ضربة شبه قاضية للطبقة الوسطى التى تعد فى رأيى صمام امان اى مجتمع من المجتمعات. فالطبقة الوسطى التقليدية هى حافظة القيم والمثل والتقاليد والعادات. اما الطبقات العليا فهى كثيرا ما لا تلتزم تماما بهذه القيم التقليدية للمجتمع وتصبو إلى تقليد الغرب فى حين ان الطبقات الفقيرة كثيرا ما لا تملك رفاهية الالتزام الدقيق بالمثل والقيم التى تمثل بالنسبة لها ترفا لا تقدر عليه فى كل الظروف. والنتيجة هى ان الطبقة الوسطى هى الوريث الشرعى والامين لقيم المجتمع التقليدية فى كل بلاد العالم.

ومن المؤكد ان الضربات الموجهة إلى الصفوة ثم إلى الطبقة الوسطى فى اقل من ربع قرن قد اسهمت فى احداث خلل خطير فى تركيبة المجتمع المصرى وهو الخلل الذى نعانى منه الان ونترجمه بكلمات مثل انهيار القيم والمثل والاداب العامة وغياب الالتزام وتفشى الجهل النشيط. فسقوط المثل العليا كان نتيجة لضرب طبقتين هما الوقود الثقافى والضمير الحى لاى امة من الامم ويعد مجتمع بلا طبقة وسطى وبلا صفوة مثل جسد انسان دون عمود فقرى.

واذا اردنا التأصيل للتيار الدينى المتطرف الذى تعانى منه مصر والمنطقة العربية بل العالم اجمع منذ نهاية السبعينات فان هذا التيار هو الابن الشرعى لمرحلة الاحباط وحررت شهادة ميلاده فى يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ . فمن الطبيعى ان يؤدى فقدان الثقة بالنفس والتشكك فى كل القيم والمثل التى قام عليها المجتمع خلال الهزيمة إلى التقوقع والتمسك بقيم لا تقبل الشك أو الجدل والحلم باعادة بناء الدولة الاسلامية التى كانت فى يوم من الايام اقوى دولة فى العالم بفضل الحضارة التى افرزها الاسلام.

ولا ننسى ان التيار الدينى نشأ فى مصر بصورته السياسية فى عام ١٩٢٨ بعد سنوات قليلة من فشل تجربة سعد زغلول واجهاض الحركة الوطنية على ايدى الانجليز عندما اجبروا الزعيم الوطنى الكبير على الاستقالة من منصب رئيس الوزراء على اثر اغتيال سرداد الجيش البريطانى السير لى ستاك فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ . وكانت السنوات السابقة قد حملت آمالا ضخمة للشعب المصرى وهزت ثورة ١٩ المحتل البريطانى وذهب سعد إلى مؤتمر فرساى للسلام بعد ان رضخ الانجليز لثورة الشعب المصرى العظيمة واعادوا الزعيم من منفاه ومن أجل إخماد ثورة الشعب المصرى اضطر الانجليز إلى منح مصر استقلالاً صورياً ثم جرت انتخابات حرة بعد إقرار الدستور وجاء سعد إلى الحكم بالأغلبية الشعبية وتصور أبناء الشعب أن الاستقلال الكامل أصبح على الأبواب.

لكن عزل سعد أو استقالته أطاحت بآمال الاستقلال.

وكانت مشاعر الاحباط واليأس التى اعتملت بها صدور ابناء الشعب المصرى نتيجة لذلك هى جواز المرور لافكار التيار الاسلامى السياسى التى كانت تتخذ

مرجعية مطلقة وهى الله سبحانه وتعالى فى مواجهة المرجعية النسبية لأى برنامج حزبى فى ذلك الوقت.

واللافت للنظر هو ان اول افكار التيار الاسلامى المتطرف الحالى بدأت تتردد على الالسنة فى مصر بعد اسابيع قليلة من نكسة يونيو المشئومة وأرجعت الهزيمة إلى بعد المجتمع عن الدين بدلا من ارجاعها إلى الاخطاء التى وقعنا فيها وكانت السبب الحقيقى للنكسة.

وعاشت مصر بعد الهزيمة سنوات مريرة تحاول ان تلملم نفسها وان تفيق من هول الصدمة وان تتحسس الطريق للخروج من المأزق. لكن القوى الكبرى وقفت لمصر وللعالم العربى بالمرصاد كلما حاولنا محو آثار النكسة واستعادة حقوقنا.

وقد توصل الرئيس الراحل انور السادات (١٩١٩ ـ ١٩٨١) من خلال تحليله للموقف إلى ضرورة التفاهم مع اسرائيل تحت عباءة المباركة الامريكية فقام بمبادرته الشهيرة فى سبتمبر ١٩٧٧ فى محاولة للخروج من نفق الطريق المسدود. واذا كانت مصر قد نجحت فى استعادة اراضيها المحتلة بالكامل فان الشعب الفلسطينى وباقى الدول العربية لا زالوا يعانون من التصلب الاسرائيلى الذى تؤازره الولايات المتحدة. ولولا هذه المؤازرة لما جرأت اسرائيل يوما واحدا على سياسة الصلف التى تتبعها حاليا ولاعادت الاراضى المغتصبة وحقوق الشعب الفلسطينى بالكامل.

ومن المؤكد ان غريزة الاعتزاز بالنفس والشعور بجرح الكرامة سواء على الصعيد الجماعى أو الشخصى امام هذه الاوضاع يعد التفسير الاساسى لموقف رفض الواقع واللجوء إلى الخيال والغيبيات الذى نلمسه فى مصر وفى باقى الدول العربية منذ بضع سنوات. فالمصرى والعربى عامة لا يقبل فى اعماق نفسه هيمنة الغرب على مقدرات العالم وتدخله المباشر أو غير المباشر فى شئون الدول العربية وفرض الامر الواقع لصالح اسرائيل فى الشرق الاوسط. كما لا يمكن ان يقبل التسلط الاسرائيلى والعنجهية التى تجسدت مؤخرا فى شخص رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو حتى وان كانت غالبية المصريين والعرب اصبحت مقتنعة بضرورة السلام وبانه الحل الوحيد لمشكلة الشرق الاوسط.

ولا شك ان الاعتزاز بالنفس الذى اشتهر به العرب عبر تاريخهم والذى تجلى فى الشعر الجاهلى قبل ان يتبلور فى القصص المعروفة التى اوردتها كتب التراث قد ضاعف من الشعور بالمهانة والغضب من السيطرة الاجنبية ثم من التفوق الاجنبى الغربى بعد انقضاء عصر الاستعمار العسكرى للدول العربية.

ولا ننسى ان الادب العربى هو الوحيد الذى جعل من موضوع الفخر بالنسب أو العشيرة أو الذات موضوعا شعريا ينال اعجاب الجميع ويتغنى به الناس جيلا بعد جيل. ولا شك انه قد زاد من حالة الغضب والرفض احساس العرب بانهم ينتمون لحضارة عظيمة وانهم كانوا ينعمون بالرقى فى الوقت الذى كانت فيه اوروبا موحولة القدمين فى التخلف.

وبالتوازى مع هذا الشعور بالاحباط النفسى هناك شعور بالعجز المادى لدى غالبية من الفقراء والمحتاجين الذين يجدون صعوبات بالغة لمواجهة احتياجاتهم اليومية واحتياجات اولادهم. وجاءت سياسة الانفتاح لتكسر التوازن الدقيق الذى كان قائما بين الاسعار والمرتبات فى مصر فالتهبت الاسعار وتجمدت المرتبات أو كادت. وتؤكد النظرة الخلفية على ان تطبيق سياسة الانفتاح بعد سنوات طويلة من الانغلاق لم يكن مدروسا بالقدر الكافى وادى إلى زيادة الهوة الواسعة بين الاغنياء والفقراء.

ولان هؤلاء الفقراء اصبحوا يشاهدون على شاشات التليفزيون كيف يعيش الاغنياء ولان طلبات ابنائهم وخاصة بناتهم تضاعفت بصورة مطردة مقارنة بابناء الستينات فان الشعور بالاحباط يتخذ ابعادا لم تكن فى حسبان رجال السياسة والاقتصاد.

وهذا الشعور بالاحباط المزدوج يؤدى فى النهاية إلى رفض الواقع والاحتياج إلى الالتجاء لقوة فوقية تنتشل الناس نفسيا من الواقع المر الذى يعيشونه ولكنهم يرفضونه سواء بالوعى أو باللاوعى.

ومن المؤكد ان الاحباط الشديد وتنامى القيم المادية وسيطرة المال على المجتمع كانت كلها عناصر اسهمت فى تسهيل مهمة زعماء حركة نهاية التفكير. فكان هؤلاء المنظّرين الذين استخدموا الدين الاسلامى لتحقيق مآربهم الشخصية يجدون فى الشباب المحبط والعاجز والثائر على القيم المادية وانهيار الاخلاقيات مادة طيعة تجعله قابلا للتأثير عليه والسيطرة على عقله باسم الدين.

مرحلة انتقالية

ولمسايرة المنطق السائد فانه لا يجوز انهاء هذا الكتاب بغير رسالة امل بعد استعراض بعض العناصر السلبية فى المرحلة التى نعيشها حاليا. لكن رسالة الامل لا تكون بترديد ان كل شىء على ما يرام وانه ليس فى الامكان ابدع مما كان. انما رسالة الامل تستوجب رصد المشكلات ومحاولة فهمها وتحليلها تحليلا قائما على العقل والمنطق بهدف التوصل إلى بداية الطريق للخروج من المأزق العربى.

وهناك شعور بان مصر تمر حاليا بمرحلة انتقالية تدعو إلى نوع من التفاؤل نظرا لان المؤشرات الاقتصادية الاساسية دخلت حيز الضوء الاخضر بعد ان ظلت سلبية لسنوات طويلة. صحيح ان هذه المؤشرات مثل العجز فى الموزانة العامة ونسبة التضخم واحتياطى العملة الصعبة لا تعنى ان كل المشكلات قد انتهت. لكن الخروج من الازمة الاقتصادية يضع اقدامنا على طريق حل المشكلات الاجتماعية والاخلاقية والنفسية التى يعانى منها مجتمعنا لاسباب حاولنا توضيحها فى الفصول السابقة.

وفى هذا المجال فانه من غير الانصاف اغفال بعض المشروعات الهامة التى من الممكن ان تفتح الباب لآفاق جديدة لكل المصريين ولعل اهمها مشروع قناة موازية للنيل من الجنوب إلى الشمال تحقق حلم المصريين القديم للخروج من الوادى الضيق ومضاعفة المساحة الزراعية حتى تتلاءم مع الزيادة الضخمة فى عدد سكان مصر.

وقد ادى التحسن فى المؤشرات الاقتصادية والمالية إلى نوع من استقرار الاوضاع وهو شرط اساسى لاى تقدم. كما بدأت تظهر بشائر بناء نخبة جديدة لا

تعتمد على المال وحده وانما تقوم على التعليم والثقافة والانفتاح على العالم وممارسة فن الحياة بالإضافة إلى الامكانيات المادية التى تتيح لها كل هذه المواصفات. وهذه الصفوة الجديدة قد تحتاج إلى جيل كامل كى تقوم بدورها المحرك للمجتمع.

كل هذا يجعلنى اقول اننا وضعنا اقدامنا على بداية مرحلة انتقالية قد تخرجنا من السنوات العجاف التى عاشها المجتمع المصرى منذ اكثر من ثلاثين عاما.

وكما قال لى احد كبار اساتذة التاريخ الفرنسيين فان كل مرحلة من المراحل فى نظر المؤرخ هى مرحلة انتقالية. لكن ما اعنيه هنا بالمرحلة الانتقالية هى مرحلة تأتى بعد مرحلة محددة المعالم وتختلف عنها لكن معالم هذه المرحلة الانتقالية ليست واضحة بعد ومفهومة للجميع. والمرحلة الانتقالية تحمل فى طياتها دائما احتمالات متباينة حيث من الممكن ان تؤدى إلى اوضاع مختلفة فى طبيعتها.

لكن مرحلة الاحباط مهما امتد بها الزمن لا بد ان تنقضى وان تترك مكانها لمرحلة اخرى يعود فيها الامل لمصر وللامة العربية على اسس من العقل والعمل والاجتهاد. وفى ظنى ان المرحلة الانتقالية التى بدأنا نضع اقدامنا على اول طريقها تسير بالتوازى مع المرحلة الانتقالية التى يعيشها النظام الدولى. فقد عاش العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حقبة القوتين الاعظم وقامت العلاقات الدولية على اساس توازن الرعب بين العملاقين اللذين كانا يملكان قوة تدميرية لم تتوفر لاى قوى بالعالم فى تاريخ الانسانية.

وقد وضع انهيار الاتحاد السوفيتى حدا لمرحلة العالم ثنائى الاقطاب وبدأت مرحلة تبدو فيها الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة فى العالم. لكن كافة المحللين يرون فى هذا الوضع وضعا انتقاليا على اساس ان هناك قوى اخرى آخذة فى النمو ولا تتقبل احتكار الولايات المتحدة لمقدرات العالم وعلى رأسها اوروبا واليابان والصين بالاضافة إلى القوى الصاعدة فى جنوب شرقى آسيا. ولا يعنى هذا ان هيمنة الولايات المتحدة ستنهار بعد شهور أو سنوات قليلة انما هذه المرحلة الانتقالية قد تمتد لعشر أو عشرين سنة حتى تستقر اوضاع العالم على توازنات جديدة تظل تلعب فيها امريكا دورا اساسيا لفترة طويلة قادمة.

والمرحلة الانتقالية التى يعيشها العالم حاليا تتميز بتزايد مضطرد للارتباط بين كافة دول العالم وسيطرة افكار السوق الحرة بعد فشل التجربة الاشتراكية بالاضافة إلى قبول دولى لقيم مثل الديمقراطية وحقوق الانسان حتى وان كانت الولايات المتحدة تنصب نفسها حكما لوضع المعايير التى تحكم هذه القيم.

ومن يحاول ان يفهم المرحلة التى تعيشها مصر والعالم العربى اليوم لا بد ان يلقى نظرة متعمقة على علاقاتنا مع العالم الغربى. فمنذ نحو قرنين وتحديدا منذ الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ بدأت تتجه انظار المصريين صوب الغرب الذى سرعان ما صار منذ منتصف القرن الماضى المرجعية الاساسية لاى قضية عامة أو جدل فى مصر والعالم العربى.

وكان لاهم تيارين عرفهما العالم العربى فى القرن العشرين موقف رافض للغرب واعتبراه العدو الاول المتربص بمصالح العرب والاسلام. كان التيار الاول الغالب منذ منتصف هذا القرن وهو القومية العربية يرى ضرورة التناطح مع الغرب. وقد واجهت الدول العربية بالفعل هذا الاخير مباشرة أو عبر اسرائيل فى حروب ٤٨ و٥٦ و٦٧ و٧٣.

اما التيار الثانى وهو التيار الاسلامى فيعتبر الغرب مملكة الشر المطلق ويسعى إلى هز استقراره بالمنطقة عن طريق العنف وتحديدا من خلال العمليات الارهابية.

وكان رفض الغرب هو السمة الغالبة على الشعب المصرى منذ بداية القرن العشرين. وعلى الرغم من ان زعماء الوطنية المصرية من امثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول لم يكونوا معادين للغرب عامة وكانت تربطهم علاقة طيبة بفرنسا خاصة الا ان جموع الشعب المصرى كانت لا تفرق بين بريطانيا والغرب وكانت كارهة لكل ما هو اوروبى.

وبالتوازى مع هذه المشاعر الرافضة للعالم الغربى كان هناك دائما فى مصر والعالم العربى تيار منبهر بالغرب ولا يحلم الا بتقليد كل ما يأتى من اوروبا ثم من امريكا فى مرحلة لاحقة. وربما كان أبلغ تعبير عن فلسفة هؤلاء مقولة الخديو اسماعيل الشهيرة بانه يريد ان يجعل مصر قطعة من اوروبا اى ان الوسيلة الوحيدة للتقدم هو تقليد اوروبا والارتماء فى احضانها.

واذا نظرنا نظرة موضوعية إلى قضية علاقتنا بالغرب فانه لا يمكن نفى ان مصر والعالم العربى قد تأثرا تأثيرا ضخما بالغرب وبالمفاهيم والقيم واساليب الحياة التى تشكل النمط الغربى للمعيشة منذ اكثر من نصف قرن.

فاذا اقتصرنا على الجانب السياسى وحده نجد ان كل هياكل الدولة عندنا منقولة من النموذج الغربى سواء بالنسبة لتشكيل الحكومات والاحزاب والبرلمان والانتخابات اوالتقسيم الادارى وغير ذلك. وقد صدر فى عام ١٩٩٢ كتاب فرنسى بعنوان « الدولة المستوردة » يثبت كيف نقل العالم الثالث عامة كل هياكل الدولة من الغرب وزرعها فى جسده السياسى.

اما على الصعيد الثقافى فلا يمكن التعامى عن ان كبار المثقفين والمفكرين الذين شكلوا وجدان الشعب المصرى والعربى كانوا يستوحون اهم أطروحاتهم من الغرب.

ونرى الشباب المصرى والعربى اليوم يسعى إلى تقليد كل ما يأتى من الغرب سواء فى الملبس أو المأكل أو الموسيقى أو اسلوب الحياة.

وعندما نمنح الالقاب لنجوم الحياة الثقافية والفنية عندنا تكون ايضا المرجعية هى الغرب فنقول ان نجيب محفوظ هو بلزاك العرب أو زولا العرب ونقول عن نجم الشاشة الراحل فريد شوقى انه انتونى كوين الشرق.

كذلك فان الغرب هو مصدر اهم الاتجاهات السياسية والفكرية فى القرن العشرين مثل الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية بالاضافة إلى اهم الاتجاهات الفنية والثقافية مثل الواقعية والرمزية والسريالية وغيرها من المدارس الادبية والفنية التى لم يكن لنا فضل الا فى نقلها عن الغرب. فمن الغرب يأتى كل جديد فى مجال التطبيقات العلمية التى تصنع الحياة اليومية لانسان اليوم فى كل مكان من السيارة إلى التليفزيون إلى التليفون والفاكس الخ..

ولا جدال فى ان للغرب جاذبية خاصة على ابناء العالم الثالث والعالم العربى. فأهم القيم التى ينادى بها قادة الرأى عندنا اليوم مثل الديمقراطية وحقوق الانسان وحقوق المرأة والعدالة الاجتماعية قد بلورها الغرب خلال القرن الحالى بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية.

التيار الوحيد الذى من المفترض انه لم يتأثر بالغرب هو التيار الدينى. ولعل سر انجذاب الكثيرين للافكار الدينية المتطرفة هى انها الوحيدة المطروحة على الساحة فى المنطقة العربية دون ان يكون مصدرها العالم الغربى. وبالتالى فالتصور العام هى انها الوحيدة المعبرة بأمانة عن واقعنا واحتياجاتنا. وهذا يفسر ان بعض اصحاب الرأى فى مصر الذين لم تكن لهم علاقة بالدين وكانوا ينتمون إلى التيار الوطنى والقومى العلمانى صاروا من قيادات التيار الدينى كراهية فى الغرب وبحثا عن هوية اصيلة واجابات مقنعة للاشكاليات التى تواجهها مصر والعالم العربى من خارج مدارس الفكر الغربية.

ويكمن لب المشكلة فى ان الغرب قد تعامل مع العالم العربى دائما بصورة جعلت الشعوب العربية تنفر من سياسات الدول الغربية. فقد قامت الدول الاوروبية وعلى رأسها فرنسا وانجلترا باستعمار كافة الدول العربية ونهبت خيراتها لاكثر من قرن كامل. وعندما جاءت مرحلة تصفية الاستعمار تم زرع اسرائيل فى المنطقة فعادت العلاقات مع الغرب تتسمم بسبب الحماية السافرة التى كفلها الغرب للدولة العبرية.

وتشعر الشعوب العربية بان الغرب سلب منها الانتصار الذى كانت قادرة عليه فى مواجهة اسرائيل لولا التدخل الاوروبى اولا ثم الامريكى بعد ذلك وجعلها دائما فى موقف الضعف فى مواجهة الدولة العبرية. وبالتالى فان الغرب كان العقبة فى حل اخطر واهم قضية واجهها العالم العربى خلال النصف الثانى من القرن العشرين وهى قضية الصراع مع اسرائيل والسبب غير المباشر فى حالة الاحباط والتمزق التى يعيشها العالم العربى خاصة منذ ١٩٦٧.

وهناك اليوم شعور عام لدى الشعوب العربية بأن الغرب وخاصة الولايات المتحدة الامريكية يتعامل مع العالم العربى من منطلق فرض مصالحه ومصالح اسرائيل اولا. فاسرئيل من حقها ان تمتلك القنبلة النووية وهو حق مرفوض للعرب ولاسرائيل حق احتلال اراضى الغير بالقوة المسلحة وهو غير مقبول بالنسبة لاى دولة عربية أو غير عربية كما ان لاسرائيل الحق فى التراجع عن تعهداتها وفى فرض ما تريد على الشعب الفلسطينى.

لهذه الاسباب فان العلاقة بيننا وبين الغرب هى علاقة فى غاية التعقيد ليس

لاسباب اختلاف الدين والثقافة أو بفعل المواجهات التاريخية فحسب وانما ايضا بسبب موقف الغرب السياسى وسعيه الدائم للسيطرة والفرض والتسلط.

ومن المؤكد ان الاسلوب المتغطرس الذى كثيرا ما يتصرف به الغرب مع العالم العربى كان السبب الرئيسى لاعتباره العدو الاول من قبل التيارات السياسية المختلفة فى مصر والعالم العربى.

وعلى الرغم من ذلك فان الصفوة عندنا تتحدث لغات الغرب وتتعلم فى المدارس الانجليزية أو الامريكية أو الفرنسية ثم يكمل النابغون تعليمهم فى دول الغرب. فالكل يشعر انه برغم كل تصرفات الغرب الممجوجة وغير العادلة ازاء العالم العربى فانه يمتلك ناصية الحضارة والعلم والتكنولوجيا ويمسك بين يديه بزمام الامور فى العالم وينتج احدث الافكار والتقنيات وافضل الكتب واروع الافلام.

ويمكن ان نصف العلاقة بيننا وبين الغرب بانها علاقة حب - كراهية معقدة للغاية لكنها تلعب دورا حيويا ان لم يكن الدور الاساسى فى حياتنا السياسية والاقتصادية والثقافية.

ومعنى هذا ان الغرب كان دائما المحك والمحور الذى يدور حوله الجدل بين قادة الرأى فى مصر والعالم العربى وان كافة القضايا تنظر من منظور موقف الغرب منها سواء لمن يحلمون بمحاكاته أو من يرغبون فى كسر شوكة النفوذ الغربى المتسلط على العالم العربى والعالم الثالث بصفة عامة.

وستظل اشكالية علاقاتنا مع الغرب هى محور الجدل السياسى والثقافى فى مصر والعالم العربى خلال هذه المرحلة الانتقالية وبعدها.

وفى هذه المرحلة الانتقالية الحرجة يرتسم امامنا طريقان تجذبنا إلى احدهما عناصر الردة والتخلف التى تبسط يدها على بعض عقولنا وهو طريق الانغلاق والتقوقع ورفض كل جديد. فاعتبار كل جديد بدعة وكل فكر أو فن آت من الخارج فسق هو افضل طريق لاغلاق الباب فى وجه اى تقدم وهو طريق يقربنا من حالة الحيوان الذى لا يتعلم من تجارب من قبله ولا يتوارث الخبرة والمعرفة.

ومن يرضخ لمنطق نهاية التفكير عليه ان يقبل على نفسه عيشة الحيوان التى لا تقدم فيها ولا تطور. وقد يكون ذلك اخف وطأة لو ان كافة المجتمعات الانسانية

التزمت نفس النهج. لكن العالم يتقدم من حولنا بخطى سريعة وبايقاع لم نعد نستطيع ملاحقته. وبالتالى فان رفض التطور سيدفعنا دفعا إلى التعرض للمزيد من المذلة والقبول بكل ما يمليه علينا من يطلقون العنان للفكر والابداع من اجل حياة افضل.

اما الطريق الاخر فهو الانفتاح على العالم الخارجي ومجاراة التطور والتقدم على كافة الاصعدة العلمية والثقافية والفنية وتوفير المناخ المناسب للابداع والخلق والانتاج العقلى. وهذا الطريق الثانى هو الاكثر اتساقا مع تاريخنا الحضارى وتدفعنا اليه التجربة التاريخية التى اثبتت دائما ان عصور الانهيار فى مصر توازت مع مراحل الانعزال والانكماش فى حين ان العصور الزاهية كانت دائما مقترنة بالانفتاح على العالم والاهتمام بالتبادل مع الدول الاخرى.

وعلينا الان ان نستخرج من تاريخنا المجيد ومن ثقافتنا المضيئة ارضية صلبة ننطلق منها إلى الامام حتى نستعيد الثقة بانفسنا ونسلم ابناءنا شعلة التقدم التى ورثناها عن اجدادنا والتى بددتها اجيال متعاقبة فى مصر والعالم العربى. وبرغم كل ما كتب عن سر ظهور الحضارات فان العناصر والمعطيات التى تنبع من احتكاكها تألفها الحضارات الانسانية لا زالت خافية على عقل الانسان.

لكنه من المؤكد ان شعبا مثل الشعب المصرى بصفته وريثا لحضارة عريقة جدير بالحفاظ عليها وانه يمتلك اكثر من غيره المواصفات المطلوبة والمقومات اللازمة لاستعادة اسباب التقدم والازدهار.

فالخروج من منطق نهاية التفكير لن يتأتى بفعل مرور الزمن أو تراجع اصحاب هذا المنطق وتقبلهم للافكار والاراء الجديدة. انما الخروج من الدوامة الجهنمية لمنطق نهاية التفكير سيكون بتضافر جهود المثقفين والكتاب والصحفيين واصحاب الرأى الحر ورجال السلطة المؤمنين بان حرية الكلمة صارت اليوم هى السبيل الوحيد إلى التقدم والرقى وان من يغفل حرية الرأى والكلمة ويلجأ إلى تحريم التفكير سيقع فى شرك التخلف ويدخل القرن الواحد والعشرين وهو يسير القهقرى بدلا من ان يدخله بصدر مفتوح وبعقل مضىء.

واذا كان الاتجاه الداعى إلى نهاية التفكير والرفض لكل فكر جديد وكل ما هو وارد من الخارج أيا كان يؤدى بالضرورة إلى حالة من التقوقع والانكفاء على الذات وبالتالى إلى ذبول المجتمع وانهياره فان الاتجاه المعاكس الذى يريده البعض بوعى أو بغير وعى قد يؤدى هو الاخر إلى نبت شيطانى يوصلنا إلى نفس نتيجة الاول.

وعلى الرغم من ان الدين الاسلامى قام على الوسطية ورفض الافراط، عملا بالقول الكريم ان خير الامور الوسط الا اننا نعيش الآن بين موقفين يقعان على طرفى نقيض الاول يريد لنا ان نضع رؤوسنا فى الرمال ونرفض كل فكر جديد على اساس انه بدعة أو وافد لنا من الخارج والاخر يريد منا ان ننبذ حضارتنا المشرقة ونبتعد عن قيم ديننا السمح وان نكون مجرد مقلدين لآراء ونظريات تأتى لنا من الخارج وتحديدا من الغرب.

وللاسف فان الكثيرين فى مصر ينظرون باستخفاف واستهتار إلى استفحال ظاهرة التطرف الدينى غير مدركين خطورة تسلل هذه الافكار التى قد تؤدى بنا إلى حالة من الشلل والانعزال عن العالم الخارجى. وهم يتصورون ان التطرف هو من فعل حفنة من المجانين والموتورين الذين يلفظهم الشعب. لكن الحقيقة غير ذلك. فانصار نهاية التفكير لديهم قاعدة واسعة ويستندون على تاريخ حافل لتيارات التشدد والانعزال والغاء العقل فى كل العصور.

ومن واجبنا جميعا ان نرفض منطق نهاية التفكير لا من منطلق استجلاب افكار ونظريات من خارج ثقافتنا دون فهم أو ادراك وانما بعملية هضم واع وفرز محكم للآراء والافكار التى جعلت مجتمعات اخرى تتقدم وتتطور وتنجح بتطورها فى السيطرة علينا لا سياسيا أو عسكريا أو اقتصاديا فحسب وانما فى مجالات الفكر والثقافة والعلم والمعرفة وهو اخطر واعمق تأثيرا بكثير.

القرن الواحد والعشرون

يدخل العالم القرن الواحد والعشرين فى ظل معطيات جديدة تقوم على التقدم العلمى المذهل الذى حققه الانسان فى القرن العشرين. فعالم الانترنت والقنوات الفضائية العابرة للقارات لا يمكن ان يكون مشابها لكل ما سبقه. والعولمة بمعناها الواسع لم تعد احتمالا واردا قد يتحقق أو لا يتحقق فى المستقبل لكنه واقع يدق الآن ابواب الدول المتقدمة ولن يتأخر فى اجتياح كافة دول العالم ولن يستطيع احد فى الدول النامية الوقوف فى سبيله على الرغم من سلبياته المؤكدة بالنسبة للعالم الثالث.

لكن من يرفض العولمة اليوم على اساس انها لن تجلب علينا الا الخراب والدمار هو اشبه بمن يعلن رفضه لنظرية الجاذبية الارضية ثم يصعد إلى برج القاهرة ويلقى بنفسه من اعلاه فيكون مصيره تحطم عظام جسده على الرغم من رفضه لنظرية الجاذبية الارضية.

وقد تنبه العديد من المفكرين فى مصر والعالم العربى إلى الانعكاسات السلبية المتوقعة للعولمة وآثارها على المجتمعات النامية. وخصص المفكر المتميز السيد ياسين عدة دراسات قيمة حول هذه القضية. لكن المشكلة ليست فى مقاومة تيار العولمة الجارف لان العولمة كما قلنا امر سيفرض على الجميع سواء من يرتضوها أو من يرفضوها. انما القضية اليوم هى محاولة الخروج بأقل اضرار ممكنة من حقائق القرن القادم حتى لا نكون ضحايا تذبح على هيكل العولمة لصالح الدول الغنية.

والكلام عن العولمة وكأنها ظاهرة احادية الابعاد هو خطأ شائع فى العالم الثالث. فهذه الظاهرة لها اكثر من جانب لعل أبرزها الجانب العملى ويتلخص فى

زيادة احتكار الدول الكبرى واحكام سيطرتها على المجالات الاقتصادية والثقافية على حساب دول العالم النامية.

لكنه على الرغم من سلبيات هذا الجانب من ظاهرة العولمة الا انه لا ينبغى تبسيط الامر. فالعولمة ستؤدى إلى صراع كونى بين الدول والكيانات الكبرى حول مصالحها الخاصة ولن تكون مجرد حرب اقتصادية وثقافية بين الدول الغنية من ناحية والدول النامية من ناحية اخرى تسيطر فيها الاولى على الثانية.

واذا كانت العولمة سوف تشكل تكريسا لسيطرة الشمال وخاصة الولايات المتحدة الامريكية على العالم الا انها إلى جانب سلبياتها تحوى ايجابيات لا يمكن انكارها. فكل الانظمة الدكتاتورية عاشت فى القرون السابقة دون حسيب ولا رقيب وسحقت شعوبها المطحونة دون ان تجد هذه الشعوب من يدافع عنها وتحملت الشعوب وحدها عبء مقاومة الظلم والقمع والاضطهاد وراح منها ملايين الضحايا من المدافعين عن الحرية والحق.

اما فى القرن القادم فالارجح ان الامور ستتغير وسيكون هناك نوع من الرقابة العالمية لما يجرى فى كل مكان فى العالم وسيتمكن المظلومون من الالتماس لجهات دولية لرفع المظالم عن كاهلهم. وسيعمل كل حاكم الف حساب وحساب للرأى العام العالمى والمنظمات الدولية والدول المؤثرة. وسوف يزيد عدد المنظمات الدولية غير الحكومية مثل منظمة العفو الدولية ومراسلون بلا حدود التى ترصد احوال الصحفيين فى العالم وغيرها من المنظمات التى تراقب احوال حقوق الانسان كما سيتزايد تأثيرها فى العالم اجمع.

صحيح ان هذه المنظمات لها احيانا انتماءات مشبوهة واغراض سياسية. وصحيح ان الدول الكبرى الغنية هى التى ستتحكم إلى حد بعيد فى معايير هذا النظام الدولى الجديد ومدى الضغط على هذا النظام أو ذاك من منطلق مصالحها الخاصة. وصحيح ايضا ان العقود القادمة قد تشهد تدخلات سافرة وغير موضوعية فى شئون دول العالم الثالث بدعوى الدفاع عن حقوق الإنسان إلا ان الامور سوف تستقر مع الوقت وستضطر الدول الغربية رغم انفها إلى الاذعان لقوانين معيارية تحد من استغلالها للاوضاع الجديدة وسيكون على دول العالم

الثالث ان تبذل الجهد حتى لا تطلق يد الدول الكبرى فى ظل ما يمكن ان يشبه بسلطة عالمية لمراقبة احوال العالم.

كذلك فان من كان يتصور فى الماضى انه يستطيع ان يسيطر على وسائل الاعلام ويغلق حدود بلاده فيحرم مجتمعه من التعرف على ما يبثه العالم من معلومات قد تعداه الزمن تماما. فالتقدم العلمى والتكنولوجى قد الغى الحدود وعلينا ان نستخلص النتائج المترتبة على ذلك. وهذا الانفتاح الاعلامى والفكرى والثقافى سيطال الجميع فيتعرف اى شخص على وجه الارض على ما يجرى فى كل مكان.

لكن المشكلة مرة اخرى هى ان تدفق المعلومات سيكون فى اتجاه واحد بصفة اساسية. فالعالم المتقدم هو المتحكم فى مصادر المعلومات وهو صانع الاحداث ومصدر الاخبار فى حين ان العالم الثالث يقنع بدور المستهلك والمتفرج.

وبرغم كل سلبيات العولمة وتكريسها لسيطرة الاقوياء على الضعفاء الا انها ستسهم فى زيادة انفتاح الدول على بعضها البعض ولن تكون ادوات التكنولوجيا والافكار الجديدة حكرا على عدد محدود من الدول. صحيح ان الامكانيات المادية ستظل حائلا دون عملية نقل التكنولوجيا الا ان حالة العزلة الرهيبة التى تعانى منها الدول النامية فى مجال المعرفة ستختفى شيئا فشيئا بشرط ان تبذل دول الجنوب المجهود المطلوب وبشرط الا يكون التمتع بالمعرفة امتياز لطبقة الاغنياء وحدها وتبقى الطبقات الفقيرة معزولة تماما عن كل جديد فتسقط فى هاوية الحرمان والجهل.

وعلينا ان نتوقع خلال القرن الواحد والعشرين تغيرات جذرية فى العلاقات بين المجتمعات وفى العلاقات داخل المجتمعات انفسها. فالفوارق بين الناس فى السابق كانت تقوم على الثروة والمال والجاه والقوة العسكرية وغيرها من عناصر الهيمنة المادية. لكن احد الفوارق الاساسية بين البشر فى القرن القادم سيكون فارق المعرفة. فسيكون هناك عالم المنفتحين على الانترنيت وآخر التطورات العلمية والاقتصادية والمالية والسياسية والثقافية وسيكون هناك عالم المنغلقين الذين يعيشون على هامش المجتمع العالمى الجديد والذين لا يملكون الكفاءة أو المعلومات.

ومن غير شك ان الاوائل سيحكمون سيطرتهم على العالم اجمع ويخضعون المجتمعات المنغلقة على نفسها ويملون عليها ارادتهم بأكثر مما يحدث الان.

ومن اخطر التحديات التى سيواجهها العالم فى القرن المقبل الخلل الخطير فى توزيع الثروة بين الفقراء والاغنياء. ولا يعقل ان يستمر التفاوت الحالى فى مستويات المعيشة دون ان يؤدى ذلك فى المدى المتوسط إلى حالة من عدم الاستقرار المدمر على المستوى الكونى. ولا يوجد حل آخر امام الجميع سوى ايجاد صيغة تضمن نوعا من التوازن الاجتماعى داخل كل دولة وكذلك نوعا من التوازن الدولى بين البلاد المختلفة.

وطبقا لاحصائيات الامم المتحدة الاخيرة فإن عدد ابناء البشرية الذين يعيشون فى حالة من الفقر المطلق فى نهاية القرن العشرين يصل إلى ١.٣ مليار انسان ويتوقع الخبراء ان يصل بسرعة إلى ٢ مليار. فى بداية القرن الواحد والعشرين. واليوم فان عدد الذين يعانون فعليا من الجوع بلغ ٨٠٠ مليون انسان معظمهم فى قارتى آسيا وافريقيا.

هذا فى الوقت الذى حققت فيه نحو خمس عشرة دولة فى الشمال طفرة ضخمة فى مستوى معيشة مواطنيها وارتفاعا كبيرا فى دخول سكانها الذين يبلغ عددهم نحو مليار ونصف مما جعل الفجوة تتزايد بين الاغنياء والفقراء فى العالم.

ويكفى ان نعلم ان متوسط دخل الفرد فى الولايات المتحدة يبلغ اليوم ٢٧٦٠٠ دولار سنويا فى حين ان متوسط دخل الفرد فى الصومال لا يتعدى ٥٠٠ دولار فقط لا غير.

لكن هناك فى الواقع تفاوت كبير داخل هذه المجتمعات الغنية والفقيرة نفسها قد يؤدى إلى هزات من الصعب التنبؤ بها اليوم. وفى غياب توزيع عادل للثروة بين الشمال والجنوب فان الباب يكون مفتوحا على مصراعيه لاستمرار التوترات وللهجرات من الجنوب إلى الشمال ولن تستطيع الدول الغنية وقف التدفق البشرى مهما اتخذت من اجراءات لاغلاق ابوابها امام المهاجرين.

ووسط هذا العالم المتشابك والمتطور تسعى مصر لان تشق طريقها بصعوبة

إلى التقدم والخروج من المشكلات الملحة وكان الاستاذ الراحل الكبير احمد بهاء الدين قد اطلق فى اواخر الثمانينات صيحة بعموده اليومى الذى كان يزين الصفحة الاخيرة للاهرام حيث تساءل قائلا: اين الجبرتى؟ وكان يقصد اين من يرصد التغييرات الضخمة التى طرأت على المجتمع المصرى فى الحقبة الاخيرة ويحاول فهمها وتحليلها كما فعل المؤرخ الشهير فى المنعطف بين القرنين الثامن والتاسع عشر من اجل محاولة استقراء المستقبل

وكعادته وضع الراحل الكبير احمد بهاء الدين اصبعه على لب القضية فمن يرقب تطور الاحداث فى مصر يتضح له انها قد شهدت تغييرات متلاحقة وفى اتجاهات متناقضة هزت كيان المجتمع المصرى عدة مرات فى حقبة قصيرة. فقد تحولت مصر فى اقل من ثلاثين عاما من مجتمع ملكى اقطاعى تقليدى إلى مجتمع الاقتصاد الموجه والاشتراكية ثم إلى مجتمع الاقتصاد غير المحكوم ثم إلى مجتمع الاقتصاد الحر ورأس المال الحر

واذا اخذنا جيل الستينات الذى يستعد الان لتولى المناصب القيادية فى كل المجالات بحكم شريحة السن لاخذنا صورة عن حيرة المجتمع المصرى والتخبط الذى يشعر به الكثيرون حتى اليوم فهذا الجيل قد شب فى احضان ثورة ٢٣ يوليو وقيل له ان العدو الاول لنا هو اسرائيل التى كانت توصف بانها مزعومة وبانها ذنب الاستعمار وقيل له ان الحل العسكرى هو الوحيد لاسترجاع الارض المحتلة وقيل له ان امريكا هى اكبر دولة استعمارية فى العالم وان الاتحاد السوفيتى هو صديق مصر والعالم العربى وقيل له ان الاشتراكية والقطاع العام هما الحل لكل دول العالم الثالث وان العروبة حتمية ستؤدى الى الوحدة العربية الكبرى

وحلق هذا الجيل فى سماء الآمال والطموحات واحلام المستقبل الافضل للجميع لكنه عندما جاءت السبعينات قيل له ان السلام مع اسرائيل هو الحل وان الاشتراكية كانت اكذوبة وان امريكا هى شريك السلام وصديق العرب وان للوحدة العربية كانت وهما لا اساس له من الواقع وان القطاع العام والاصلاح الزراعى والتصنيع الثقيل الذين تغنى بهم فى شبابه هم سبب كل همومه. ونكباته

وقد شهد هذا الجيل انهيار المعسكر الاشتراكى وتفكك المجتمعات التى خاضت التجربة الاشتراكية ويشهد اليوم سيطرة الولايات المتحدة الامريكية على العالم وبروز قوى عملاقة مثل اليابان واوروبا. كذلك ترتسم امام هذا الجيل دنيا جديدة تقوم على العولمة وهو مفهوم غامض بالنسبة له وتعبير لا يطمئنه كثيرا خاصة مع كل ما يتردد عن انعكاسات اتفاقات دولية مثل الجات على الاقتصاد المصرى والعربى

ولا يوجد إلى اليوم من اعطى تفسيرا شاملا مقنعا لهذا الزلزال الذى ما زالت الكرة الارضية تهتز له من اعماقها الفكرية والنفسية منذ انهيار الشيوعية وتفسخ الكتلة الاشتراكية واختفائها من الساحة الدولية وتقف الاجيال الجديدة حائرة لا تدرك معنى التغيير وانعكاساته على مصر والعالم العربى وعلى حياتهم اليومية وهو ربما الاهم بالنسبة لهم لهذه الاسباب كان جيل الشباب فريسة سهلة لمن يحاولون اختراق عقولهم ومصادرة تفكيرهم باسم الدين الذى تؤمن به الاغلبية الكاسحة للشعب المصرى

لكن حالة عدم الاستقرار والبحث عن الهوية واعادة النظر فى اساسيات الحياة ليست امورا قاصرة على مصر والعالم العربى. فهناك فى نهاية القرن العشرين حالة من القلق الجماعى تسود العالم اجمع ولا تكاد تفلت منها دولة واحدة حتى الدول الصناعية الكبرى المهيمنة على مقدرات العالم تواجه حالة من الخوف من المستقبل جعلت الكثير من كتاب الغرب يشبهونها بما حدث فى نهاية الالفية الاولى ففى نهاية القرن العاشر الميلادى انتابت اوروبا حالة من الهلع لان بعض المنجمين توقعوا نهاية العالم فى عام ١٠٠٠ الميلادى

وسيطرت هذه الفكرة على عقول كثير من الناس حتى ان البعض اقدم على الانتحار خوفا من مواجهة يوم القيامة الذى لم يكن له وجود سوى فى بعض العقول المريضة التى نجحت فى اقناع الاخرين به. اما اليوم فهناك فى العالم اجمع حالة من القلق والخوف بالمعنى الفلسفى للكلمة اى بمعنى الخوف من المجهول. ويتساءل الناس فى الدول الغربية عن نتائج التقدم العلمى الكبير ولماذا لم يؤد إلى السعادة والطمأنينة.

لكن هناك ايضا وخاصة فى الغرب مسببات مستمرة للخوف مثل الايدز وجنون البقر وثقب الاوزون وغيرها من المخاوف التي يتصور البعض انها ستؤدى إلى فناء البشرية أو على الاقل جزء كبير من سكان كوكب الارض. وفى مصر والعالم العربي يردد البعض حديثا غير صحيح للرسول عليه السلام حيث يزعمون باقتناع انه قال. تؤلف ولا تؤلفان اى ان نهاية البشرية ستكون فى عام ٢٠٠٠ وكأن الرسول كان يعد السنين بالتقويم الغربى الجريجورى

والحقيقة ان هناك اسبابا موضوعية للخوف من المستقبل حيث ان العالم اجمع يمر بالفعل بمرحلة اشبه بمرحلة الثورة الصناعية التى بدأت فى القرن الماضى وادت إلى تغيير معالم الدنيا والتوازنات الكبرى فى العالم وانعكست على حياة الانسان وعلاقاته داخل المجتمع فهناك اليوم عاصفة تهب على الهياكل التقليدية والتوازنات التى عاش عليها العالم منذ اكثر من قرن ولا يستطيع احد التنبؤ اليوم بما سيكون عليه العالم بعد ثلاثين أو اربعين عاما من الان ومن المؤكد ان هذه التغييرات الجذرية التى تخرج عن تحكم البشر لا بد ان تثير القلق والرهبة فى النفوس

والسؤال الذى تطرحه كل المجتمعات الواعية الان هو كيف تدخل القرن الواحد والعشرين فى ظل افضل ظروف ممكنة ؟ وعلينا نحن ايضا بطبيعة الحال ان نطرح على انفسنا هذا السؤال الحيوى واذا خطونا خطواتنا الاولى فى القرن المقبل بمنطق نهاية التفكير والانكفاء على ماضينا المجيد والتشبث باعادة امجاد تاريخنا ورفض اى جديد فاننا نسحب البساط من تحت اقدامنا ونفوت كل فرصة للحاق بالركب العالمى الذى يسير بسرعة الصاروخ ولا يقبل ان تعوقه الافكار السلفية

علينا ان نتطلع إلى القرن الواحد والعشرين وعيوننا مثبتة على المستقبل وان ننفتح على العالم وان ننضم إلى ركب التقدم علينا ان ندرك ان التفكير السليم هو سبيلنا إلى الرقى وإلى التخلص من تبعات التخلف علينا ان ندرك انه لا يمكن ان نعود إلى جدل تم الفصل فيه من قبل مثل تحرير المرأة والديمقراطية والفصل بين الدين والدولة فالعودة إلى مثل هذه القضايا واعادة فتح الجدل بشأنها سيجرنا إلى الوراء دائما ويمنعنا من اى تقدم حقيقى ومن ادراك ما يجرى فى العالم.

ولا يعنى هذا على الاطلاق ان ننسى تاريخنا وديننا وموروثنا الثقافى بل يعنى عكس ذلك تماما حيث ان من يبنى على فراغ مصيره الانهيار ونحن نبنى على اساس متين شيده اجدادنا بالعرق واعمال العقل والتفكير.

ولعل اهم الدروس المستفادة من النظريات التى سادت فى القرن العشرين ان أسلوب الفرض مكتوب عليه دائما بالفشل. فكل النظم التى وضعت برامج وسياسات مسبقة وجامدة لا تقبل الجدل أو النقاش وسعت لفرضها على شعوبها قد واجهت نفس المصير وهو رفض الشعوب لها وبالتالى فشل تجربتها. واعتقد انه لا داعى لمناقشة النظريات النازية والفاشية التى ثبت مدى خطورتها.

اما النظرية الشيوعية التى كانت محط آمال العديد من كبار المثقفين والكتاب فى القرن العشرين فقد انتهت بالفشل لنفس السبب وهو تشكيلها المسبق لقوالب مفروضة على الجميع وحقائق ثابتة لم تستطع مواجهة محك الزمن.

وإذ كانت كل النظريات التى قامت على فرض الحقيقة من اعلى قد اثبتت فشلها فاننا نستطيع ان نستلخص من ذلك ان حرية الاختيار هى الوقود الذى يحرك المجتمعات الانسانية ويفجر طاقات الابداع الانسانى فى كل المجالات وليس فى المجال الفنى والادبى وحدهما. فالانسان فى حاجة إلى كسر القواعد والوثوب من فوق الحواجز والخروج من القوالب حتى يحقق المجتمع الديناميكى القادر على التقدم ومجاراة التطورات فى كافة المجالات.

والمجتمعات مثلها مثل الافراد تفضل دائما الاختيار الحر عن سلطة ايا كانت تفرض عليها نظاما جامدا.

ومنطق نهاية التفكير يفرض على الشعوب الاسلامية باسم الدين نظما للحياة لا تتفق مع قيم ومبادىء الحياة العصرية على عتبة الالفية الثالثة كما انها لا تتفق مع المبادىء الحقيقية لديننا كما فهمها كبار علمائنا ومفكرينا. وانصار نهاية التفكير يبذلون كل الجهود لفرض وجهة نظرهم قهرا على الشعب المصرى وباقى الشعوب الاسلامية.

وكما فشلت كل نظم التفكير التى قامت على الفرض فان منطق نهاية التفكير محكوم عليه بالفشل حتى وان نجح دعاته لبعض الوقت فى ترويج افكارهم وتزيين اغراضهم باسم الدين الاسلامى مستغلين الظروف التى تمر بها مصر والعالم الاسلامى كله منذ بضعة عقود.

الختـــام



من لا يجرؤ أن يفكر إلا بنصف عقله.. يعش نصف حياة

فولتير

الامر الذى يدعو للتأمل هو ان الدول التى ازدهرت وتعيش عصرا من التقدم اصبحت قادرة إلى حد بعيد على توقع المستقبل وتستخدم أدوات العلم والتكنولوجيا فى كافة المجالات لوضع البدائل واستقراء الاحداث تحاشيا للتعرض لأية مفاجآت تهز كيانها..

اما نحن فى مصر فمشكلتنا اننا لم نعد نستطيع حتى ان نتوقع الماضى. ففى يوم يسود رأى يقول ان اسرة محمد على كانت اعظم من حكم مصر منذ عهد الفراعنة وانها صانعة مصر الحديثة ثم يسود فى يوم آخر ان هذه الاسرة هى سبب الفساد وتدهور الاحوال فى البلاد ويقال لنا فى يوم ان ثورة ٢٣ يوليو كانت نقطة انطلاق لتحرير الانسان المصرى وان كل ما قبلها كان فراغا وهباء وان كل من توالوا على حكم مصر قبل قيام الثورة قد استعبدوها واستباحوا خيراتها ثم يظهر فى يوم آخر رأى يؤكد ان هذه الثورة كانت وبالا على مصر وكارثة على شعبها.

وهناك عشرات الامثلة على تغير النظرة إلى الماضى بصورة حادة فى خلال فترة زمنية وجيزة مثل نظرتنا إلى اجدادنا الفراعنة الذين نعتبرهم يوما بناة اعظم الحضارات الانسانية ثم يأتى من يقول لنا انهم مجرد كفرة ومارقين.

فاذا كنا لم نتفق بعد كشعب وكمجتمع على نظرة واضحة لماضينا فكيف نستطيع ان نتطلع إلى مستقبلنا وان نضع الاسس التى نريد ان يقوم عليها مجتمعنا فى القرن الواحد والعشرين ؟

هل يمكن ان نبنى مستقبلنا على رمال متحركة بدلا من ان نقيمه على اساس

متين يشكل وجدان شعبنا ويربط بين الاجيال بلحمة لا تنفصم ؟

فهذه الاختلافات بل التناقضات في نظرتنا إلى ماضينا تعوق انطلاقنا نحو المستقبل وتجعل نظرتنا إلى الغد نظرة مشوشة ومبهمة. وكل الدول التى نجحت فى التقدم بدأت بعملية غربلة لتاريخها ولثقافتها وكان اتفاق كافة الاطراف المؤثرة فى المجتمع على نظرة واحدة أو على الاقل غير متناقضة لاحداث تاريخ هذه المجتمعات ولتطور فكرها الثقافى هو الاساس الراسخ الذى شيدت فوقه مجموعة القيم والمثل والسلوكيات التى تعد الشرط الاساسى للتطور

وطالما اننا لا زلنا نتناحر حول فهم ماضينا وتفسير احداثه الهامة وطالما اننا نختلف حول دور اقطاب الفكر مثل الغزالى وابن تيمية (١٢٦٣ ـ ١٣٢٨) أو الشيخ محمد عبده وقاسم امين وطه حسين سنظل عاجزين عن ايجاد الصيغة الموحدة والجامعة لكافة ابناء المجتمع.

واذا اخذنا مثالا واحدا من تاريخنا الثقافى المعاصر وهو الدكتور طه حسين الذى يعد من ابرز الشخصيات الثقافية المصرية والعربية فى القرن العشرين ان لم يكن ابرزها على الاطلاق نجد انه يعتبر فى نظر البعض من اهم اقطاب التنوير الفكرى وألمع من اسهم فى اضاءة عقل الشعب المصرى والعربى فى الحقبة الحديثة بينما نرى البعض يعتبره أداة فى أيدى الاستعمار الفكرى الغربى ولعبة فى أيدى المستشرقين وأحد الذين اساءوا إلى التراث الثقافى العربى بمحاولة الانفتاح على الغرب والتأثر بثقافته ثم نرى فريقا آخر يعتبر طه حسين كافرا زنديقا وانه اسهم فى اختراق الفكر والثقافة العربية لصالح افكار وافدة تحقد على الاسلام وتسعى إلى تقويض اركان ديننا الحنيف.

وليس المطلوب بطبيعة الحال ان يكون هناك رأى واحد رسمى يحتذى به الجميع كما هو الحال فى ظل النظم الدكتاتورية. بل ان هذا الرأى الواحد هو عادة مصدر التناقضات والمشاحنات بين ابناء الشعب الواحد. فهذا الرأى الواحد يكون مقبولا فى الظاهر من ابناء الشعب ومرفوضا فى الواقع من غالبيتهم.

انما المطلوب هو ان يكون هناك اتفاق عام حول فهم التاريخ السياسى والتطور الفكرى والثقافى كما هو الحال فى كل الدول المتقدمة. وباب الاختلاف مفتوح على مصراعيه داخل هذا الاطار ولا زالت هناك اجتهادات فى الدول الغربية حول ارسطو وافلاطون أو دور كروموبل بانجلترا فى القرن السابع عشر

أو نابليون بفرنسا واوروبا في بداية القرن التاسع عشر.

لكن كل هذه الاجتهادات تدخل في سياق واحد ولطابي واحد وقع عليه اتفاق عام في هذه الدول منذ سنوات طويلة ولا اظن انه قابل للتغيير الا اذا تغيرت الدعائم المؤسسة للمجتمعات الغربية فهذه المجتمعات قامت بعملية مصالحة جماعية مع تاريخها اسهمت في خلق مناخ من السلام الاجتماعي تنعم به الدول المتقدمة في هذا العصر.

ولولا التوصل إلى صيغة المصالحة مع التاريخ لما نجحت المجتمعات الغربية في تشييد حضارتها الحالية والسيطرة على مقدرات العالم النامي الذي لا يزال ابناؤه يتصارعون حول تفسير ماضيهم فتعكر هذه التناقضات في الرؤى صفو حياتهم الحاضرة

لكن المصالحة مع التاريخ لا تكفي فعملية هضم التاريخ ثم غربلته واستيعابه على الصعيد الجماعي هي مقدمة لا غنى عنها لانجاز عملية اكثر تعقيدا واهمية وهي التوصل إلى توافق للاراء Consensus حول القضايا الحيوية التي تواجه المجتمع في العصر الذي نعيش فيه وايجاد ارضية مشتركة تتفاهم عليها الاغلبية وتلتف حولها، ومجموعة من القيم الراسخة تتمسك بها. وطالما ان هناك تناقضات صارخة في الرؤى حول القضايا الجوهرية لا يمكن القيام بعملية بناء مجتمع صلب ومتماسك على كافة الاصعدة الاجتماعية والثقافية والاخلاقية.

فلا بديل لتوفر ارضية مشتركة.. وفوق هذه الارضية المشتركة تكون الاختلافات في الرأي والاجتهادات والجدل الحيوي المستمر. لكن هذه الاختلافات لا ينبغي ان تتحول إلى تناقضات يتناحر بسببها ابناء المجتمع. كما ينبغي أن تتراجع اى اختلافات عندما يتعلق الامر بالمصلحة الجماعية للمجتمع وبقضاياه الجوهرية التي تمس جميع اعضائه.

ولعل سر قوة المجتمعات الغربية واستقرار الديمقراطية بها هو التفاف الغالبية العظمى حول المحاور الاساسية التي يقوم عليها المجتمع. فهناك يمين ويسار سياسي يتنازعان الحكم في كل الدول الغربية ولكل منهما رؤية سياسية واقتصادية وفلسفية وثقافية مختلفة للحياة. لكن كلاهما متفق تماما على الدعامات التي ينبغي ان يقوم عليها المجتمع ولعل اهمها بالنسبة للدول الغربية الاقتصاد الحر والمبادرة الفردية وحرية الرأى والتعبير ومساواة الجميع امام

القانون وعدم المساس بالحريات العامة.

والفارق بين الطرفين اى اليمين واليسار هو فى مدى تدخل الدولة فى الشئون الاقتصادية وفى الحياة العامة ومدى ترك الحرية لرجال الاعمال وكذلك فى مدى كفالة الضمانات والتأمينات الاجتماعية للعاملين وايضا للعاطلين والمحتاجين.

الاساس إذن واحد والمبادىء العامة مماثلة ولم تعد هناك تناقضات ايديولوجية جوهرية لكن الاختلاف حول وسائل التطبيق، بل فى تفصيلات التطبيق.

صحيح ان لغة الخطاب السياسى مختلفة بين اليمين واليسار فى اوروبا وبين الجمهوريين والديمقراطيين فى امريكا لكن من يدقق فى الخلافات بين الجانبين يتضح له انها تتركز على سبل تطبيق المبادىء العامة التى تتفق عليها الغالبية العظمى من ابناء هذه الشعوب. وصحيح كذلك ان هناك قوى تقف على طرفى الحياة السياسية فى اليمين واليسار مثل احزاب التطرف اليمينية والاحزاب الشيوعية فى اقصى اليسار لكن هذه القوى اصبحت بفضل توافق آراء غالبية ابناء هذه المجتمعات قوى هامشية لا تملك امكانية التأثير الحاسم على مجريات الامور وبالتالى فهى غير قادرة على الفوز بالانتخابات الحرة التى تقام دوريا بهذه الدول.

وعندما يحدث تداول للسلطة فى دولة من هذه الدول الديمقراطية لا يطرأ تغيير جذرى على سياساتها الداخلية أو الخارجية ولا يشعر المواطن فيها بانقلاب فى حياته كما يحدث فى دول العالم الثالث التى لم تتوصل إلى صيغة توافق الآراء عندما يختفى حاكمها أو يقوم انقلاب ضده وهى وسائل تداول السلطة التقليدية فى دول الجنوب.

وقد توصلت المجتمعات الغربية المتقدمة إلى صيغة للتعايش بين كافة القوى الحيوية المؤثرة من خلال تنازلات أو بمعنى ادق حلول وسط وجهود توفيقية من اجل المصلحة العامة. فاليسار من ناحيته قد تنازل عن مبدأ تعميم الملكية العامة لوسائل الانتاج ومبدأ دكتاتورية البروليتاريا الذى وضعته الماركسية كما تنازل عن العداء التقليدى لاصحاب العمل ولم يعد يتهمهم بانهم مصاصو دماء الفقراء والكادحين ولم يعد يقوم بتأليب الطبقات الفقيرة على الاغنياء بل اصبح يقبل مبدأ المنافسة المفتوحة والاقتصاد الحر على اساس آليات السوق.

ولم يعد اليسار فى اوروبا يدعو إلى التأميم وسيطرة الدولة على وسائل الانتاج كما كان يفعل فى بداية القرن.

اما اليمين فقد قطع هو الآخر جزءا كبيرا من الطريق للتوصل إلى صيغة تعايشية فاقتنع بافكار العدالة الاجتماعية التى يحارب من اجلها اليسار ولم يعد مطروحا بالنسبة لانصاره فى الغرب التراجع عن مكاسب العمال أو فى العودة إلى ظروف العمل التى كانت سائدة فى بداية القرن عندما كان اليمين يسيطر سيطرة كاملة على مقدرات المجتمعات الغربية وكانت اجازات العاملين غير مدفوعة الاجر وكان اصحاب العمل يتحكمون فى العمال والفلاحين وفقا لرغباتهم فيجبرونهم على العمل لاكثر من عشر ساعات يوميا دون ضمانات صحية أو غيرها.

كل هذا اصبح فى نظر المجتمعات الغربية فى ذمة التاريخ ولم يعد قابلا للمناقشة أو حتى للطرح على بساط البحث من جديد. وربما كان وراء تحول اليمين الوعى بمصلحته الخاصة نظرا لاقتناعه بان معاملة العاملين بالاساليب السابقة قد تؤدى إلى ثورة أو إلى تخفيض الانتاج وان افضل وسيلة للحفاظ على مكاسب اصحاب العمل المادية هى تخصيص جزء صغير من هذه المكاسب لصالح العاملين. لكن أيا كانت اسباب الاقتناع فان المهم هنا ليس النوايا وما فى القلوب وانما المهم هو النتيجة وهى تقبل اليمين لبعض افكار اليسار والعكس بالعكس مما سمح بقيام صيغة التعايش الحالية فى المجتمعات الغربية.

حدث إذن فض اشتباك بين اطراف المعادلة الاجتماعية فى الغرب بعد قرون طويلة من الصراع والتناقض بين الطبقات المتميزة والغنية من ناحية والغالبية الكادحة من ناحية اخرى. وكانت التناقضات الزاعقة قد ادت عبر التاريخ إلى مصادمات دامية ربما كان اشهرها الثورة الفرنسية التى مزقت فرنسا ما بين عام ١٧٨٩ و١٧٩٤ والثورة الروسية عام ١٩١٧ بالاضافة إلى عشرات الثورات ومئات من عمليات التمرد والاضطرابات فى اوروبا وامريكا. وقد نجحت هذه المجتمعات فى استخلاص الدروس من هذه الفصول الدامية فى تاريخها من اجل تلافى تكرارها.

ولم يكن من الوارد ان تتوصل هذه المجتمعات إلى الصيغة التعايشية الحالية لولا توفر كل العناصر المكونة للحضارة الغربية والتى حاولنا استعراضها فى

فصول هذا الكتاب ومن اهمها اعلاء مكانة العقل والوعى بالمصلحة الجماعية العليا والمصير المشترك والشعور بالمواطنة وبالانتماء للكيان الاجتماعى.

كما لم تتوصل المجتمعات الغربية إلى هذه الصيغة التوفيقية الا بعد مرحلة من النضج السياسى والاجتماعى والثقافى أوصلتها إلى مفهوم جديد للمصلحة الجماعية والمصير المشترك. وقد اختمرت المبادىء العامة التى تقوم عليها المجتمعات الغربية حاليا بعد مرحلة طويلة من المخاض والبحث والاجتهاد وكانت نتيجة لنضج اجتماعى وثقافى وحضارى آن الاوان ان نسعى للوصول اليه.

لكنه من المؤكد ان هذه المجتمعات لم تكن قادرة على التوصل إلى صيغة التقدم الحالية فى غياب التقدم العلمى الذى اتاح زيادة الثروات الانسانية بشكل ملحوظ واسهم بالتالى فى تخفيف الصراع والتكالب على وسائل المعيشة. ففى العصور الماضية كانت الطبقات العليا تحتكر الثروة وتترك الطبقات الفقيرة المغلوبة على امرها فى حالة من الفقر والحرمان قد لا تخطر على البال اليوم. ومن يقرأ روايات الانجليزى تشارلز ديكنز (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) والفرنسى اميل زولا (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢) يتضح له كم كانت شرائح واسعة من المجتمعات الاوروبية تعانى من الضنك حتى نهاية القرن الماضى على الرغم من ان بلادهم كانت امبراطوريات أو دولا تبسط سيطرتها على العالم ولا تغيب عنها الشمس.

اما اليوم وبعد ان ظهرت آثار الثورة الصناعية ثم ثورة المعلومات ودخل الغرب فى مرحلة ما بعد الثورة الصناعية فقد اصبح كم الثروات المنتجة والخدمات اكبر بصورة ملحوظة واصبح يسمح بنوع من توزيع الثروة يحقق بعض العدالة أو على الاقل يمنع التفاوت الصارخ بين الاغنياء والفقراء كما يمنح الطبقات الفقيرة الحد الادنى للمعيشة الكريمة. واصبحت المجتمعات الغربية بفضل ذلك قادرة على حماية المحتاجين من خلال الضمانات والتأمينات الاجتماعية. وقد اسهم ذلك فى تهدئة الظروف المعيشية لهذه المجتمعات وفى امكانية البحث عن صيغة تعطى الطبقات الكادحة الفرصة للخروج من دائرة الحرمان المؤدى إلى اليأس وتمنحها بعض الامل فى المستقبل.

نفس التحليل ينطبق على الاتحاد الاوروربى الذى يضم اليوم خمس عشرة دولة من اوروبا الغربية نجحوا بفضل النضج العقلانى والسياسى فى التوصل إلى صيغة للتفاهم والتعايش فى ظل تجمع اقتصادى اصبح يقلق الولايات

المتحدة واليابان وصار القوة التجارية الاولى فى العالم.

كما نجحوا على الرغم من المنافسة بين الدول الاعضاء فى انشاء عملة موحدة وفتح الحدود فيما بينهم.

وعلى الرغم من ان هذا الاتحاد ليست له حتى اليوم سياسة خارجية موحدة الا ان الدول الاعضاء به فى حالة بحث عن الصيغة التى تحمى مصالح الجميع وتوفق بين كافة الرؤى.

اما نحن فى العالم العربى فلا زلنا فى مرحلة المراهقة السياسية. فكل دولة تتمسك بمصالحها الخاصة والضيقة وترفض اى صيغة توفيقية فى اطار جامعة الدول العربية وتعتبر ان التوفيق أو الحل الوسط هو نوع من التنازل، ثم تضطر هذه الدول بعد ذلك إلى تنازلات كبرى فى تعاملاتها مع الدول الخارجية بسبب ضعف العالم العربى وادراك العالم الخارجى المتعامل معنا انه لا خطر من اى تضامن عربى وان العرب لن يقفوا صفا واحدا من اجل حماية مصالحهم المشتركة.

والذين يهللون عندنا للديمقراطية ويطالبون بتطبيقها دون ابطاء - وهو مطلب مشروع تماما - عليهم اولا ان يعملوا على ايجاد الصيغة التى لا غنى عنها لتحقيق الديمقراطية فى اى بلد من بلدان العالم. مع العلم بان القضية ليست قضية غنى وفقر. فالهند دولة فقيرة نجحت فى تحقيق الديمقراطية من خلال توفير المناخ المناسب والصيغة التوفيقية الملائمة فى حين ان هناك دولا غنية لا تعرف شعوبها طعم الديمقراطية.

لكن الغريب ان الكثيرين ممن ينادون بالديمقراطية فى مصر بأعلى صوتهم يعبرون فى ذات الوقت عن أراء حادة تتنافى تماما مع توافق الآراء على صعيد المجتمع وهو الشرط الاساسى للديمقراطية وهم يسهمون بالتالى بغير وعى فى تقويض اركان الديمقراطية الناشئة.

وفى ظل الظروف الدولية المؤاتية حاليا فان المهمة الحيوية التى لا بد ان يضطلع بها جيلنا فى مصر والعالم العربى هى القيام بعملية استيعاب وغربلة لتاريخنا السياسى وموروثنا الثقافى ولتطور الفكر العربى والاسلامى حتى يمكن ان نتوصل إلى ارضية مشتركة من القيم والمثل والمصالح الجماعية التى تتفق مع ثقافتنا وتاريخنا وديننا.

ولدفع أى التباس أحب أن أقول أن من يفهم من التحليل السابق حول أوضاع

المجتمعات الغربية أنني أدعو إلى تقليد هذه المجتمعات وزرع الصيغة التى توصلوا إليها عندنا دون تمييز يكون قد أخطأ الفهم أو أنني قد أسأت التعبير.

فما أدعو إليه هو اتباع المنهج الذى أوصل الغرب إلى درجة التقدم التى يعيشها اليوم من خلال المصالحة مع تاريخه والمصالحة بين كافة التيارات السياسية وأتاح له التوصل إلى صيغة توافق الآراء حول قضايا المجتمع الأساسية.

وهذه الصيغة هى بمثابة وعاء يمكن أن يضع فيه كل مجتمع ما يناسبه. هم وضعوا ثقافتهم ورؤيتهم للحياة وتاريخهم الأدبى والفنى وصهروا كل هذه العناصر حتى توصلوا إلى الصيغة الحالية التى تجعلهم يعيشون فى سلام اجتماعى وفى ظل أنظمة ديمقراطية. وفى رخاء اقتصادى برغم كل عيوب الحياة فى الغرب.

أما نحن فعلينا أن نضع تراثنا العريق وثقافتنا وتعاليم ديننا ومزاجنا الخاص حتى نتوصل بدورنا إلى صيغة مناسبة لتوافق الآراء تنزع فتيل المواجهة بين أطراف المعادلة الاجتماعية من خلال سلسلة من التنازلات التوفيقية التى لن يخسر فيها أحد بل سيكسب منها الجميع على المدى الطويل.

هذه العملية قد تتطلب عشرات السنين وربما أكثر من جيل واحد لإنجازها لكنها الوسيلة الوحيدة فيما يبدو للخروج من محنة التخلف.

وعلينا الا نخشى فكرة توافق الاراء والا نعتبرها صيغة جديدة لوأد الحرية أو لتصفية المواقف المبدئية. فهناك فارق شاسع بين توافق الآراء والاجماع. الاجماع يعنى اتفاق الجميع دون استثناء ودون تحفظات على مشروع سياسى واجتماعى واحد.. اما توافق الاراء فيعنى ان الاغلبية مقتنعة برأى معين وانها قد توصلت اليه بشىء من التنازلات المتبادلة حتى توصلت هذه الاغلبية إلى ارضية مشتركة متفق عليها تصون مصالح الجميع ولا تقوم لمصلحة فئة على حساب فئات الشعب الاخرى.

والمفارقة هى ان توافق الاراء الذى نشاهده فى المجتمعات الغربية الان جاء نتيجة لحرية الاختيار الفردية والجماعية التى ينعم بها ابناء هذه الدول. اما الانظمة الدكتاتورية التى تفرض الاجماع على شعوبها فانها هى التى تتسبب فى التناقضات الجوهرية وتفسخ المجتمع وعدم اتفاق ابنائه على الاساسيات كما

حدث فى الاتحاد السوفيتى السابق الذى انفجر من الداخل. **فتوافق الآراء لا يكون من خلال دكتاتورية فوقية أو فرض للرأى لكنه يأتى انعكاسا لحرية الاختيار** من خلال رؤية مشتركة للمصلحة الجماعية ومن خلال تنازلات من كل فئات المجتمع من اجل المصلحة العامة.

فالدكتاتورية ومحاولة فرض السياسات بالارغام تؤدى إلى الاختلاف والتطاحن اما حرية الاختيار فتؤدى إلى التعايش والتفاهم وإلى صيغة ملائمة لتوافق الاراء.

لكن دعاة نهاية التفكير فى عالمنا العربى والاسلامى ليسوا على استعداد للمشاركة فى صياغة توفيقية تتفق عليها كل القوى الحيوية فى مصر وفى العالم العربى. فهم مقتنعون قناعة راسخة بانهم ملاك الحقيقة المطلقة وان تفسيرهم الخاص للدين هو الوحيد المقبول وبالتالى فهم ليسوا مستعدين لاى مناقشة ناهيك عن اى محاولة للتوفيق والتفاهم.

وبهذا الفكر المتحجر فانهم يضعون انفسهم على هامش اى محاولة توفيقية واردة داخل المجتمع المصرى والمجتمعات العربية الاخرى لان فكرهم هو نفى قطعى للديمقراطية ولتوافق الآراء بل هو نفى لاى اجتهاد أو فكر يختلف معهم.

والتفاهم ليس اصلا من ادوات الحوار التى يؤمن بها انصار نهاية التفكير. فالحوار بالنسبة لهم هو حوار من جانب واحد والمطلوب من الجميع الاذعان لما يطلقونه من فتاوى وما يصدرونه من فرمانات.. فالأساس الذى يقوم عليه فكرهم هو الغاء العقل وتعطيل التفكير.

وكما قال المفكر العبقرى فولتير الذى كرس حياته لمقاومة الجهل والتعصب فان من لا يجرؤ ان يفكر الا بنصف عقله يعش نصف حياة.

واليوم فان من يراقب هؤلاء الذين يلغون عقولهم تماما ويريدون منع الآخرين من التفكير باسم الدين لا يملك إلاّ أن يقول: من لا يجرؤ على استخدام عقله لا يستحق ان يصنف فى عداد الاحياء.

رقم الإيداع
١٣٠٤٣ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-13-0263-q

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

نهاية التفكير

التنازل للتطرف الدينى كان السمة الغالبة فى العالم العربى والاسلامى خلال العشرين عاما الماضية. وكانت النتيجة الطبيعية ان استشرت افكار التطرف فى اعماق المجتمعات العربية والاسلامية واستفحل غول الارهاب انطلاقا من رؤية للعالم تقوم على الغاء العقل والاستسلام الكامل لاراء حفنة من دعاة التطرف الدينى فى ظاهرة يمكن ان نسميها «نهاية التفكير». وكان حادث الاقصر وكل تدخل أمنى فى مصر وغيرها من الدول الاسلامية معناه فشل طابور طويل من المسئولين وقادة الرأى والاعلاميين والمثقفين فى اداء مهمتهم.

لكن محاولة استئصال الارهاب دون التصدى للافكار التى تغذيه هو كالضرب بالسيف فى الماء.

فهل نترك الساحة خالية لافكار تشوه صورة الاسلام بعد ان ظل ديننا الحنيف والحضارة التى افرزها يضىء البشرية لعدة قرون بشعلة العلم والمعرفة ؟ هل نقبل منطق من يسمحون للانسان بأن يستخدم اى عضلة فى جسده الا العقل ؟

هل يقال ان المثقفين فى هذا العصر تقاعسوا عن أداء واجبهم ؟

هذا الكتاب هو محاولة للاجابة على هذه التساؤلات.

هذا الكتاب هو اطلالة على القرن الواحد والعشرين.





تصوير الفنان نور الشريف

المؤلف

- مدير مكتب الأهرام فى باريس.
- ١٩٩٢ أصدر كتاباً بعنوان: «هل فرنسا عنصرية؟»
- ١٩٩٤ أصدر مجموعة قصص قصيرة بعنوان: «الشيخ عبد الله»
- ١٩٩٥ صدرت له مسرحية «لن تسقط أورشليم»
- ١٩٩٨ ترجمة لن تسقط أورشليم بالفرنسية عن دار نشر لارمتان مع مقدمة للدكتور بطرس بطرس غالى

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر